مخبر الملح

تصنيف الخوري يوحنا الياس اليسوعي ورتبه
من الرهبان السوريين

وهو يشتمل على حكايات أدبية
ونوادر حكمية وحوادث تاريخية

٢

طبع في مطبعة المرسلين اليسوعيين
في بيروت

٢٩
١٩٠

www.marefa.org

marefa.org

موسوعة المعرفة

المعرفة مشروع علمي ثقافي يهدف لجمع المحتوى العربي والإضافة إليه، لإنشاء موسوعة دقيقة، متكاملة، متنوعة، مفتوحة، محايدة ومجانية، يستطيع الجميع المساهمة في تحريرها، بالكتابة أو بالاقتباس من مصادر مرخصة بالنقل. بدأت المعرفة في 16 فبراير 2007 ويوجد بها الآن 35,587 مقال و 2,409,583 صفحة مخطوط فيها.

خلافاً للغات العالم الكبرى الأخرى، تفتقر الثقافة العربية إلى المحتوى الإلكتروني، ويفاقم من ذلك الوضع قصر عمر المواقع الإلكترونية العربية، مما يجعل محتواها الإلكتروني مملوكاً لكيان اعتباري قد زال من الوجود، ولا يستطيع حتى كاتب المحتوى نشره في مكان آخر.

لذا فندعو المهتمين إلى المساهمة في جمع تراثنا في موسوعة المعرفة الحرة والحصول على تصاريح النقل من مختلف المصادر وتوعية أصحاب تلك المصادر ببدائل علامة حفظ الملكية التي تتيح نشر المعرفة. **ادع أصدقاءك للكتابة في أي موضوع معرفي يهمهم.**

مشروع معرفة المخطوطات

تشهد الثقافة العربية تراجعاً على كافة الأصعدة. ونتيجة لذلك تخلى العديد من الشعوب عن استخدام الأبجدية العربية، مما أدى إلى سقوط مراكز إشعاع الثقافة العربية في تلك الشعوب في غياهب النسيان. فنرى حواضر حيدر أباد وتنبكتو وزنجبار وسمرقند ملأى بمئات الآلاف من المخطوطات العربية في حالة يرثى لها من الإهمال. ولقد شكلت التقنية الحديثة من الماسحات الضوئية والإنترنت بارقة أمل. إذ أصبح بإمكان المتطوعين، حيثما كانوا، المشاركة في تحويل تلك المخطوطات الممسوحة إلى نصوص رقمية يعم نفعها الجميع.

وتفخر موسوعة "المعرفة" بحصولها على 25,000 مخطوط تحتوي على 2,409,583 صفحة من المخطوطات من حكومة الهند، وهي تمثل 5% من المخطوطات باللغة العربية التي يعملون على مسحها ضوئياً. قائمة بروكلمان لأهم مصادر الكتب والمخطوطات العربية تضم 16 مكتبة بالهند بين أهم 168 موقع بالعالم. أمدتنا الهند كذلك بملايين الصفحات بالفارسية والتركية (بحروف عربية). وبعد أن كانت الهند أكبر مشتر وقارئ للأدب العربي أصبحت اليوم لا تجد بين أبنائها من هو قادر حتى على قراءة عناوين تلك المخطوطات. الفرصة سانحة لإثراء تراثنا ودعم أواصر التعاون الإنساني مع حضارة الهند الصديقة. المشروع ذاته يجري تكراره مع تجمعات Corpora المخطوطات العربية الكبرى في الصين وتنبكتو (مالي).

هذه قائمة جزئية للمخطوطات التي لدينا. إذا كنت تريد أن نعجل بنشر أي منها فأخبرنا بالضغط هنا.

خطوات المشروع:

1. الحصول على صور المسح الضوئي للمخطوطات.
2. نشر المخطوط إلكترونياً مقروناً بمقالات من موسوعة المعرفة متعلقة بالمخطوط والكاتب. ويمكن للجميع تحميل المخطوط. قائمة المخطوطات الجاهزة للتحميل.
3. تدوين المخطوطات, أي تحويل الصورة إلى نص حرفي يمكن التعامل التحريري معه، وذلك للمخطوطات التي لا يوجد لها نصوص. وهذا عن طريق مشروع معرفة المخطوطات الذي يضم برنامج تدوين المخطوطات عن بعد Distributed Proofreading. وتلك الخطوة تتطلب جهداً فائقاً ندعو القراء للمشاركة فيه (بالتسجيل هنا).
4. تقديم نص المخطوط إلى مشروع گوتنبرگ Gutenberg Project لنشر كتب التراث العالمي. وقد انضمت موسوعة المعرفة **لمشروع گوتنبرگ** وهي بذلك المشارك العربي الوحيد في هذا المشروع العالمي.

مع تحيات مدير المشروع

د. نايل الشافعي

www.marefa.org

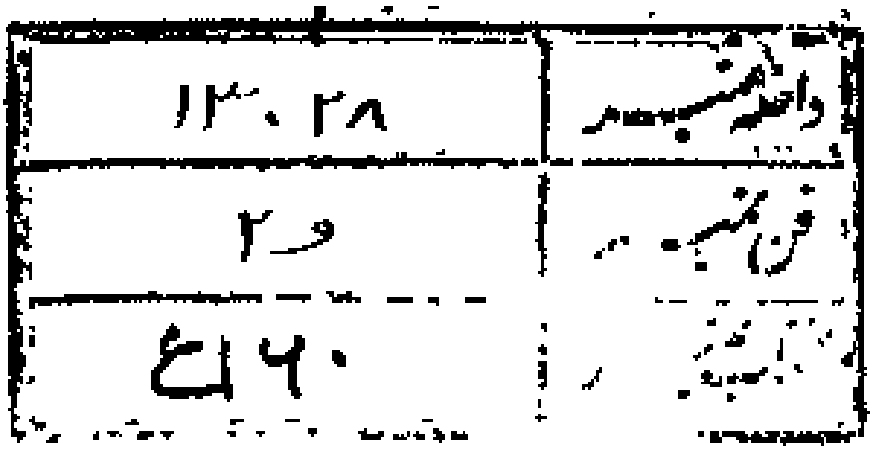

www.marefa.org

www.marefa.org

تحفة الملح

جمعها الاب يوحنا لو ويلاب اغوستينوس رومه
من الرهبة اليسوعية

الجزء الاول

القسم الثاني

وهو يشتمل على حكايات أدبية
ونوادر حكيمة وحوادث تأريخية

طبعة ثالثة في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

www.marefa.org

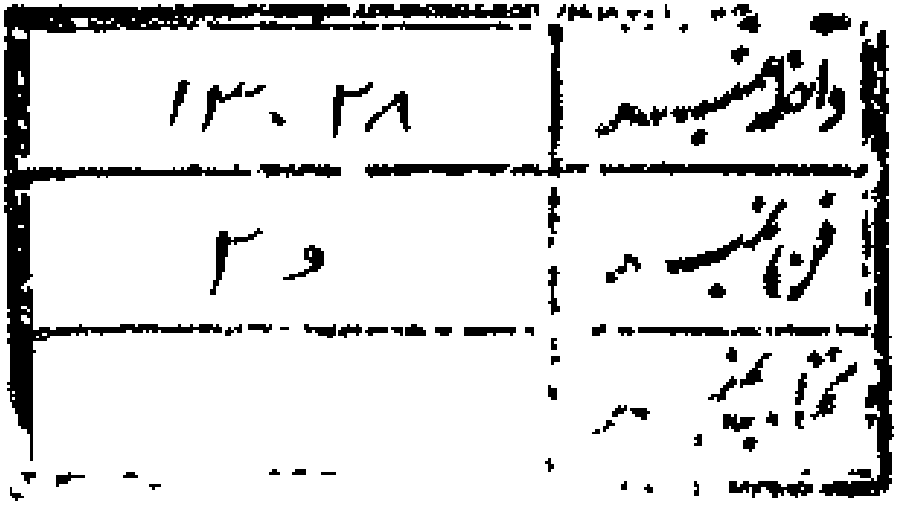

www.marefa.org

تحفة

مِنْ مُقَدِّمَةِ بَهْبُوذَ بْنِ سَحْوَانَ وَيُعْرَفُ بِعَلِي

ذكر فيها السبب الذي من اج

هل يبدا الفيلسوف المبتدي راس الب

لدبشليم ملك الهند كتابة الذي سما

كليله ودمنه

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الشَّاهِ الْفَارِسِيُّ: كَانَ السَّبَبُ الَّذِي مِنْ أَجْلِهِ وَضَعَ لِدَبْشَلِيمَ مَلِكِ الْهِنْدِ كِتَابَ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ أَنَّ الْإِسْكَنْدَرَ ذَا الْقَرْنَيْنِ الرُّومِيَّ لَمَّا فَرَغَ مِنْ أَمْرِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ كَانُوا بِنَاحِيَةِ الْمَغْرِبِ سَارَ بِجُنُودِ مُلُوكِ الْمَشْرِقِ مِنَ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ. فَلَمْ يَزَلْ يُحَارِبُ مَنْ نَازَعَهُ وَيُوَافِقُ مَنْ وَافَقَهُ وَيُسَالِمُ مَنْ وَادَعَهُ مِنْ مُلُوكِ الْفُرْسِ وَهُمُ الطَّبَقَةُ الْأُولَى حَتَّى ظَفِرَ عَلَيْهِمْ وَقَهَرَ مَنْ نَاوَاهُ وَتَغَلَّبَ عَلَى مَنْ حَارَبَهُ. فَتَفَرَّقُوا طَرَائِقَ وَتَمَزَّقُوا حَرَائِقَ. فَتَوَجَّهَ بِالْجُنُودِ نَحْوَ بِلَادِ الصِّينِ فَبَدَأَ فِي طَرِيقِهِ بِمَلِكِ الْهِنْدِ لِيَدْعُوَهُ إِلَى طَاعَتِهِ وَالدُّخُولِ فِي مِلَّتِهِ وَوِلَايَتِهِ. وَكَانَ عَلَى الْهِنْدِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ مَلِكٌ ذُو سَطْوَةٍ وَبَأْسٍ وَقُوَّةٍ مِرَاسٍ يُقَالُ لَهُ فُورٌ. فَلَمَّا بَلَغَهُ إِقْبَالُ ذِي الْقَرْنَيْنِ نَحْوَهُ تَأَهَّبَ لِمُحَارَبَتِهِ وَاسْتَعَدَّ لِجِهَادِهِ وَضَمَّ إِلَيْهِ أَطْرَافَهُ وَجَدَّ التَّأَلُّبَ عَلَيْهِمْ وَجَمَعَ لَهُ الْعُدَّةَ فِي أَسْرَعِ مُدَّةٍ مِنَ الْمُدَّةِ الْمُعَدَّةِ لِلْحُرُوبِ وَالسِّبَاعِ الْمُضَرِّيَةِ لِلْوُثُوبِ مَعَ الْفُيُولِ الْمُسَرَّجَةِ وَالسُّيُوفِ الْقَوَاطِعِ وَالْحِرَابِ اللَّوَامِعِ

فَلَمَّا قَرُبَ ذُو الْقَرْنَيْنِ مِنْ فُورِ الْهِنْدِيِّ وَبَلَغَهُ مَا قَدْ أَعَدَّ لَهُ مِنَ الْخَيْلِ الَّتِي كَأَنَّهَا قِطَعُ اللَّيْلِ مِمَّا لَمْ يَلْقَهُ بِمِثْلِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ

www.marefa.org

كانوا في الأقاليم. فخوف ذو القرنين من تصيير يقع به إن عجل المبارزة. وكان ذو القرنين رجلا ذا حيل ومكايد مع حسن تدبير وتجربة فرأى أعمال الحيلة والتسهل. واختار خندقا على عسكره وأقام بمكانه لاستنباط الحيلة والتدبير في أمره. وكيف ينبغي له أن يقدم على الإيقاع به. فاستدعى بالفيجين وأمرهم بالاختيار ليوم موافق تكون فيه له سعادة لمحاربة ملك الهند والنصر عليه. فاشتغلوا بذلك وكان ذو القرنين لا يمر بمدينة إلا أخذ الصناع المشهورين من صنائعها بالحذق من كل صنف. فأنجحت له همته ودلته فطنته أن يقدم إلى الصناع الذين معه أن يصنعوا خيلا من نحاس مجوفة عليها تماثيل من الرجال على بكر تجري إذا دفعت مرت سراعا. وأمر إذا فرغوا منها أن تحشى أجوافها بالنفط والكبريت وتلبس وتقدم أمام الصف في القلب. ووقت ما يلتقي الجمعان تضرم فيها النيران. فإن الفيلة إذا لفت خراطيمها على الفرسان وهي حامية ولت هاربة. وأوعز إلى الصناع بالتشمير والانكماش والفراغ منها. فجدوا في ذلك وعجلوا وقرب أيضا وقت اختيار الفيجين. فأعاد ذو القرنين رسله إلى فور بما يدعوه إليه من طاعته والإذعان لدولته. فأجاب جواب مصر على مخالفته متيم على محاربته. فلما رأى ذو القرنين عزيمته سار إليه بأهبته وقدم فور الفيلة أمامه ودفعت الرجال تلك الخيل وتماثيل الفرسان. فأقبلت الفيلة نحوها ولفت خراطيمها عليها. فلما أحست بالحرارة ألقت من كان عليها وداستهم تحت أرجلها ومضت مهزومة هاربة لا تلوي على شيء ولا تمر بأحد إلا وطئته. وتقطع فور وجمعه وتبعهم

www.marefa.org

أصحاب الإسكندر واتخموا فيهم الجراح

وصاح الإسكندر: يا ملك الهند ابرز إلينا وابق على عدتك وعيالك ولا تحملهم إلى الفناء. فإنه ليس من المروءة أن يرمي الملك بعدته في المهالك المتلفة والمواضع المجحفة بل يقيهم بماله ويدفع عنهم بنفسه. فابرز إليه ودع الجند فأيقنا فهو صاحبه فهو الأسعد. فلما سمع فور من ذي القرنين ذلك الكلام دعته نفسه لملاقاته طمعا فيه وظن ذلك فرصة. فبرز إليه الإسكندر فتجاولا على ظهر بي فرسيهما ساعات من النهار ليس يلقى أحدهما من صاحبه فرصة ولا حيلة ولم يزالا يتعاركان. فلما أعيا الإسكندر أمره فلم يجد له فرصة أوقع ذو القرنين بعسكره صيحة عظيمة ارتجت لها الأرض والعساكر. فالتفت فور عندما سمع الزعقة وظنها مكيدة في عساكره فعاجله ذو القرنين بضربة أماتته عن سرجه فوقع إلى الأرض. فلما رأت الهند ما نزل بهم وما صار إليه ملكهم حملوا على الإسكندر فقاتلوه قتالا أحبوا معه الموت فوعدهم من نفسه الإحسان ومنعه الله أكثافهم. فاستولى على بلادهم وملك عليهم رجلا من ثقاته وأقام بالهند حتى استوثق له ما أراد من أمرهم واتساق كلمتهم. ثم انصرف عن الهند وخلف ذلك الرجل عليهم ومضى متوجها نحو ما قصد

فلما بعد ذو القرنين عن الهند بحبوده تغيرت الهند عما كانوا عليه من طاعة الرجل الذي خلفه عليهم وقالوا: لا يصلح للسياسة ولا ترضى الخاصة ولا العامة أن يملكوا عليهم رجلا ليس هو منهم ولا من أهل بيوتهم. فإنه

www.marefa.org

لَا يَزَالُ يَسْتَذِلُّهُمْ وَيَسْتَقِلُّهُمْ. وَاجْتَمَعُوا يُمَلِّكُونَ عَلَيْهِمْ رَجُلًا مِنْ أَوْلَادِ مُلُوكِهِمْ فَمَلَّكُوا عَلَيْهِمْ مَلِكًا يُقَالُ لَهُ دَبْشَلِيمُ وَخَلَعُوا الرَّجُلَ الَّذِي كَانَ خَلَفَهُ عَلَيْهِمُ الْإِسْكَنْدَرُ. فَلَمَّا اسْتَوْثَقَ لَهُ الْأَمْرُ وَاسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ طَغَى وَبَغَى وَتَجَبَّرَ وَتَكَبَّرَ وَجَعَلَ يَغْزُو مَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمُلُوكِ. وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ مُؤَيَّدًا مُظَفَّرًا مَنْصُورًا فَهَابَتْهُ الرَّعِيَّةُ. فَلَمَّا رَأَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْمُلْكِ وَالسَّطْوَةِ عَيَّثَ بِالرَّعِيَّةِ وَاسْتَصْغَرَ أَمْرَهُمْ وَأَسَاءَ السِّيرَةَ فِيهِمْ وَكَانَ لَا يَزْدَادُ حَالُهُ إِلَّا ازْدِيَادًا عُتُوًّا

فَمَكَثَ عَلَى ذَلِكَ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ. وَكَانَ فِي زَمَانِهِ رَجُلٌ فَيْلَسُوفٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ فَاضِلٌ حَكِيمٌ يُعْرَفُ بِفَضْلِهِ وَيُرْجَعُ فِي الْأُمُورِ إِلَى قَوْلِهِ يُقَالُ لَهُ بَيْدَبَا. فَلَمَّا رَأَى الْمَلِكَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الظُّلْمِ لِلرَّعِيَّةِ فَكَّرَ فِي وَجْهِ الْحِيلَةِ فِي صَرْفِهِ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ وَرَدِّهِ إِلَى الْحَقِّ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ. فَجَمَعَ لِذَلِكَ تَلَامِيذَهُ وَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ مَا أُرِيدُ أَنْ أُشَاوِرَكُمْ فِيهِ. اعْلَمُوا أَنِّي أَظُنُّ الْمَلِكَ فِي دَبْشَلِيمَ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ وَلُزُومِ الشَّرِّ وَرَدَاءَةِ السِّيرَةِ وَسُوءِ الْعِشْرَةِ مَعَ الرَّعِيَّةِ وَنَحْنُ مَا نَرُوضُ أَنْفُسَنَا بِمِثْلِ هَذِهِ الْأُمُورِ إِذَا ظَهَرَتْ مِنَ الْمُلُوكِ إِلَّا لِنَرُدَّهُمْ إِلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَلُزُومِ الْعَدْلِ. وَعَسَى أَغْفَلْنَا ذَلِكَ وَأَهْمَلْنَاهُ لِزَمَانٍ وُقُوعِ الْمَكْرُوهِ بِنَا وَبُلُوغِ الْمَحْذُورَاتِ إِلَيْنَا إِذَا كُنَّا فِي أَنْفُسِ الْجُهَّالِ أَجْهَلَ مِنْهُمْ وَفِي الْعُيُونِ عِنْدَهُمْ أَقَلَّ مِنْهُمْ. وَلَيْسَ الرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ نَخْلُوَ عَنِ الْوَطَنِ وَلَا يَسَعُنَا فِي حِكْمَتِنَا إِبْقَاؤُهُ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السِّيرَةِ وَقُبْحِ الطَّرِيقَةِ. وَلَا يُمْكِنُنَا مُجَاهَدَتُهُ بِغَيْرِ أَلْسِنَتِنَا لَوْ ذَهَبْنَا إِلَى أَنْ نَسْتَعِينَ بِغَيْرِنَا لَمْ نَتَهَيَّأْ لَنَا مُعَانَدَتُهُ وَإِنْ أَحَسَّ مِنَّا

www.marefa.org

بِمُخَالَفَةِ وَإِنْكَارِنَا سُوءَ سِيرَتِهِ كَانَ فِي ذَلِكَ بَوَارُنَا. وَقَدْ تَعْلَمُونَ إِنَّ مُجَاوَرَةَ السَّبُعِ وَالْكَلْبِ وَالْحُرَّةِ وَالثَّوْرِ عَلَى طِيبِ الْوَطَنِ وَنَضَارَةِ الْعَيْشِ لَغَدْرٌ بِالنَّفْسِ وَإِنَّ الْفَيْلَسُوفَ لَحَقِيقٌ أَنْ تَكُونَ هِمَّتُهُ مَصْرُوفَةً إِلَى مَا يُحَصِّنُ بِهِ نَفْسَهُ مِنْ نَوَازِلِ الْمَكْرُوهِ وَلَوَاحِقِ الْمَحْذُورِ وَيَدْفَعُ الْخَوْفَ لِاشْتِغَالِهِ بِالْمَحْبُوبِ. وَلَقَدْ كُنْتُ أَسْمَعُ أَنَّ فَيْلَسُوفًا كَتَبَ لِتِلْمِيذِهِ يَقُولُ: إِنَّ مُجَاوَرَةَ رِجَالِ السُّوءِ وَالْمُصَاحَبَةَ لَهُمْ كَرَاكِبِ الْبَحْرِ هُوَ إِنْ سَلِمَ مِنَ الْغَرَقِ لَمْ يَسْلَمْ مِنَ الْخَاوِفِ: فَإِذَا أَوْرَدَتْ نَفْسُهُ مَوَارِدَ الْمَهَالِكِ وَمَصَادِرَ الْحُتُوفِ عُدَّ مِنَ الْحُمَيْرِ الَّتِي لَا نَفْسَ لَهَا. لِأَنَّ الْحَيَوَانَاتِ الْبَهِيمِيَّةَ قَدْ خُصَّتْ فِي طَبَائِعِهَا بِمَعْرِفَةِ مَا تَكْتَسِبُ بِهِ النَّفْعَ وَتَوَقِّي الْمَكْرُوهَ لِذَلِكَ لَمْ تَرَهَا تُورِدُ أَنْفُسَهَا مَوْرِدًا فِيهِ هَلَكَتُهَا. وَإِنَّهَا مَتَى أَشْرَفَتْ عَلَى مَوْرِدٍ مُهْلِكٍ لَهَا مَالَتْ بِطَبَائِعِهَا الَّتِي رُكِّبَتْ فِيهَا نَحْوًا بِأَنْفُسِهَا وَصِيَانَةً لَهَا إِلَى النُّفُورِ وَالتَّبَاعُدِ عَنْهُ

وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهَذَا الْأَمْرِ لِأَنَّكُمْ أَسْرَتِي وَمَكَانُ سِرِّي وَمَوْضِعُ مَعْرِفَتِي وَبِكُمْ أَعْتَضِدُ وَعَلَيْكُمْ أَعْتَمِدُ. فَإِنَّ الْوَحِيدَ بِنَفْسِهِ وَالْمُنْفَرِدَ بِرَأْيِهِ حَيْثُ كَانَ فَهُوَ ضَائِعٌ وَلَا نَاصِرَ لَهُ. عَلَى أَنَّ الْعَاقِلَ قَدْ يَبْلُغُ بِحِيلَتِهِ مَا لَا يَبْلُغُ بِالْخَيْلِ وَالْجُنُودِ وَالْمَثَلُ فِي ذَلِكَ. أَنَّ قُنْبَرَةً اتَّخَذَتْ أُحْجِيَّةً وَبَاضَتْ فِيهَا عَلَى طَرِيقِ الْفِيلِ وَكَانَ لِلْفِيلِ مَشْرَبٌ يَتَرَدَّدُ إِلَيْهِ. فَمَرَّ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى عَادَتِهِ لِيَرِدَ مَوْرِدَهُ فَوَطِئَ عُشَّ الْقُنْبَرَةِ وَهَشَّمَ بَيْضَهَا وَقَتَلَ فِرَاخَهَا. فَلَمَّا نَظَرَتْ مَا سَاءَهَا عَلِمَتْ أَنَّ الَّذِي نَالَهَا مِنَ الْفِيلِ لَا مِنْ غَيْرِهِ. فَطَارَتْ فَوَقَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ بَاكِيَةً. ثُمَّ قَالَتْ: أَيُّهَا الْمَلِكُ. لِمَ هَشَّمْتَ بَيْضِي وَقَتَلْتَ فِرَاخِي. وَأَنَا فِي جِوَارِكَ أَفَعَلْتَ هَذَا اسْتِصْغَارًا مِنْكَ لِأَمْرِي وَاحْتِقَارًا لِشَأْنِي قَالَ هُوَ

www.marefa.org

ٱلَّذِي حَمَلَنِي عَلَى ذٰلِكَ : فَتَرَكْتُهُ وَٱنْصَرَفْتُ إِلَى جَمَاعَةِ ٱلطَّيْرِ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ ٱلْفِيلِ . فَقَالَتْ لَهَا : وَمَا عَسَى أَنْ نَبْلُغَ مِنْهُ وَنَحْنُ طُيُورٌ ؟ فَقَالَتْ لِلضَّفَادِعِ وَٱلْغِرْبَانِ : أُحِبُّ مِنْكُنَّ أَنْ تَصِرْنَ مَعِي فَتَفْقَأْنَ عَيْنَيْهِ فَإِنِّي أَحْتَالُ لَهُ بَعْدَ ذٰلِكَ بِحِيلَةٍ أُخْرَى : فَأَجَابُوهَا إِلَى ذٰلِكَ وَذَهَبُوا إِلَى ٱلْفِيلِ فَلَمْ يَزَالُوا يَنْقُرُونَ عَيْنَيْهِ حَتَّى ذَهَبُوا بِهِمَا وَرَجَعَ لَا يَهْتَدِي إِلَى طَرِيقِ مَطْعَمِهِ وَمَشْرَبِهِ . فَلَمَّا عَلِمَتْ ذٰلِكَ مِنْهُ جَاءَتْ إِلَى غَدِيرٍ فِيهِ ضَفَادِعُ كَثِيرَةٌ فَشَكَتْ إِلَيْهَا مَا نَالَهَا مِنَ ٱلْفِيلِ . قَالَتِ ٱلضَّفَادِعُ : مَا حِيلَتُنَا نَحْنُ فِي عِظَمِ ٱلْفِيلِ وَأَيْنَ نَبْلُغُ مِنْهُ : قَالَتْ : أُحِبُّ مِنْكُمْ أَنْ تَصِرْنَ مَعِي إِلَى وَهْدَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْهُ فَتَبِيتُوا فِيهَا وَتُضِجُّوا فَإِنَّهُ إِذَا سَمِعَ أَصْوَاتَكُمْ لَمْ يَشُكَّ فِي ٱلْمَاءِ فَيَهْوِي فِيهَا : فَأَجَابُوهَا إِلَى ذٰلِكَ وَٱجْتَمَعُوا فِي ٱلْمَاوِيَةِ . فَسَمِعَ ٱلْفِيلُ نَقِيقَ ٱلضَّفَادِعِ وَقَدْ جَهَدَهُ ٱلْعَطَشُ فَأَقْبَلَ حَتَّى وَقَعَ فِي ٱلْوَهْدَةِ فَٱعْتَظَمَ فِيهَا وَجَاءَتِ ٱلْقُبَّرَةُ تُرَفْرِفُ عَلَى رَأْسِهِ وَقَالَتْ : أَيُّهَا ٱلطَّاغِي ٱلْمُغْتَرُّ بِقُوَّتِهِ ٱلْمُحْتَقِرُ لِأَمْرِي كَيْفَ رَأَيْتَ عِظَمَ حِيلَتِي مَعَ صِغَرِ جُثَّتِي عِنْدَ عِظَمِ جُثَّتِكَ وَصِغَرِ هِمَّتِكَ

فَلْيُشِرْ كُلٌّ مِنْكُمْ بِمَا يَسْنَحُ لَهُ مِنَ ٱلرَّأْيِ : قَالُوا بِأَجْمَعِهِمْ : أَيُّهَا ٱلْفَيْلَسُوفُ ٱلْفَاضِلُ وَٱلْحَكِيمُ ٱلْعَادِلُ أَنْتَ ٱلْمُقَدَّمُ فِينَا وَٱلْفَاضِلُ عَلَيْنَا وَمَا عَسَى أَنْ

---

[1] يقال للضفدع والعقرب والدجاجة والهر انثى اسمه صاعد والافعى فخ والارنب ضعب والصقر باز والكلب سمع والثعلب رعر والسبع حجل والذئب عوسى والثعلب فسيح والظبي بغم والغراب نعب والباز صرصر والنسر صفر والحمام هدر والبط بشق والصقر فنق والذئاب طن والعصفور خشش والجمل هدر والفيل صأى والمعز بعر والشاة ثغت والعجل خار والفرس صهل والبغل نحيح والعنز بهق

www.marefa.org

يَكُونَ مَبْلَغُ رَأْيِنَا عِنْدَ رَأْيِكَ وَفَهْمُنَا عِنْدَ فَهْمِكَ. غَيْرَ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ السِّبَاحَةَ فِي الْمَاءِ مَعَ النِّعَاجِ تَغْرِيرٌ وَالذِّئْبُ فِيهِ لِمَنْ دَخَلَ عَلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ. وَالَّذِي يَسْتَخْرِجُ السُّمَّ مِنْ نَابِ الْحَيَّةِ فَيَبْتَلِعُهُ قَلَّمَا سَلِمَ الذِّئْبُ لِلْحَيَّةِ. وَمَنْ دَخَلَ عَلَى الْأَسَدِ فِي غَابِهِ لَمْ يَأْمَنْ وَثْبَتَهُ. وَهَذَا الْمَلِكُ لَمْ تُفْزِعْهُ النَّوَائِبُ وَلَمْ تُؤْذِهِ الْمَحَارِبُ وَلَسْنَا نَأْمَنُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَنْفُسِنَا سَطْوَتَهُ. وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ مِنْ سَوْرَتِهِ وَمُبَادَرَتِهِ بِسُوءٍ إِذَا لَقِيَتْهُ بِغَيْرِ مَا يُحِبُّ: فَقَالَ الْحَكِيمُ يَدْبَا: لَعَمْرِي لَقَدْ قُلْتُمْ فَأَحْسَنْتُمْ لَكِنَّ ذَا الرَّأْيِ الْحَازِمِ لَا يَدَعُ أَنْ يُشَاوِرَ مَنْ هُوَ دُونَهُ وَفَوْقَهُ فِي الْمَنْزِلَةِ. وَالرَّأْيُ الْفَرْدُ لَا يُكْتَفَى بِهِ فِي الْخَاصَّةِ وَلَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي الْعَامَّةِ. وَقَدْ صَحَّتْ عَزِيمَتِي عَلَى لِقَاءِ دَبْشَلِيمَ وَقَدْ سَمِعْتُ مَقَالَتَكُمْ وَتَبَيَّنَ لِي نَصِيحَتُكُمْ وَالْإِشْفَاقُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُمْ. غَيْرَ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ رَأْيًا وَعَزَمْتُ عَزْمًا وَسَتَعْرِفُونَ حَدِيثِي عِنْدَ الْمَلِكِ وَمُجَاوَبَتِي إِيَّاهُ. فَإِذَا اتَّصَلَ خُرُوجِي مِنْ عِنْدِهِ فَاجْتَمِعُوا إِلَيَّ: وَصَرَفَهُمْ وَهُمْ يَدْعُونَ لَهُ بِالسَّلَامَةِ

ثُمَّ إِنَّ يَدْبَا اخْتَارَ يَوْمًا لِلدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ حَتَّى إِذَا كَانَ ذَلِكَ الْوَقْتُ أَلْفَى عَلَيْهِ مُسُوحَهُ وَهِيَ لِبَاسُ الْبَرَاهِمَةِ وَقَصَدَ بَابَ الْمَلِكِ وَسَأَلَ صَاحِبَ إِذْنِهِ وَأَرْشَدَ إِلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَعْلَمَهُ وَقَالَ: إِنِّي رَجُلٌ قَصَدْتُ الْمَلِكَ فِي نَصِيحَةٍ فَدَخَلَ الْآذِنُ عَلَى الْمَلِكِ فِي وَقْتِهِ وَقَالَ: بِالْبَابِ رَجُلٌ مِنَ الْبَرَاهِمَةِ يُقَالُ لَهُ يَدْبَا ذَكَرَ أَنَّ مَعَهُ لِلْمَلِكِ نَصِيحَةً: فَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ وَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَكَبَّرَ وَسَجَدَ لَهُ وَاسْتَوَى قَائِمًا وَسَكَتَ فَفَكَّرَ دَبْشَلِيمُ فِي سُكُوتِهِ وَقَالَ: إِنَّ هَذَا لَمْ يَقْصِدْنَا إِلَّا لِأَمْرَيْنِ. إِمَّا أَنْ يَلْتَمِسَ مِنَّا شَيْئًا يُصْلِحُ بِهِ حَالَهُ. أَوْ لِأَمْرٍ لَحِقَهُ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بِهِ طَاقَةٌ: ثُمَّ قَالَ: إِنْ كَانَ لِلْمُلُوكِ فَضْلٌ

www.marefa.org

فِي مَمْلَكَتِهَا فَإِنَّ لِلْحُكَمَاءِ فَضْلًا فِي حِكْمَتِهَا أَعْظَمَ. لِأَنَّ الْحُكَمَاءَ أَغْنِيَاءُ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْعِلْمِ وَلَيْسَ الْمُلُوكُ بِأَغْنِيَاءَ عَنِ الْحُكَمَاءِ بِالْمَالِ. وَقَدْ وَجَدْتُ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ إِلْفَيْنِ مُتَآلِفَيْنِ لَا يَفْتَرِقَانِ مَتَى فُقِدَ أَحَدُهُمَا لَمْ يُوجَدِ الْآخَرُ كَالْمُتَصَافِيَيْنِ إِنْ عُدِمَ مِنْهُمَا أَحَدٌ لَمْ يَطِبْ صَاحِبُهُ نَفْسًا بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُ تَأَسُّفًا عَلَيْهِ. وَمَنْ لَمْ يَسْتَفِدْ مِنَ الْحُكَمَاءِ وَيُكْرِمْهُمْ وَيَعْرِفْ فَضْلَهُمْ عَلَى غَيْرِهِمْ وَيَصُنْهُمْ عَنْ مَوَاقِفِ الْوِهْنَةِ وَيُنَزِّهْهُمْ عَنِ الْمَوَاطِنِ الرَّذْلَةِ كَانَ مِمَّنْ حُرِمَ عَقْلَهُ وَخَسِرَ دُنْيَاهُ وَظَلَمَ الْحُكَمَاءَ حَقَّهُمْ وَعُدَّ مِنَ الْجُهَّالِ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى بَيْدَبَا وَقَالَ لَهُ: نَظَرْتُ إِلَيْكَ يَا بَيْدَبَا سَاكِتًا لَا تَعْرِضُ حَاجَتَكَ وَلَا تَذْكُرُ بُغْيَتَكَ فَقُلْتُ: إِنَّ الَّذِي أَسْكَتَهُ هَيْبَةُ سَوْرَتِهِ أَوْ حَيْرَةٌ أَدْرَكَتْهُ وَتَأَمَّلْتُ عِنْدَ ذَلِكَ مِنْ طُولِ وُقُوفِكَ وَقُلْتُ: لَمْ يَكُنْ لِبَيْدَبَا أَنْ يَطْرُقَنَا عَلَى غَيْرِ عَادَةٍ إِلَّا لِأَمْرٍ حَرَّكَهُ لِذَلِكَ فَإِنَّهُ مِنْ أَفْضَلِ أَهْلِ زَمَانِهِ فَهَلَّا نَسْأَلُهُ عَنْ سَبَبِ دُخُولِهِ فَإِنْ يَكُنْ مِنْ ضَيْمٍ نَالَهُ كُنْتُ أَوْلَى مَنْ أَخَذَ بِيَدِهِ وَسَارَعَ فِي تَشْرِيفِهِ وَتَقَدَّمَ فِي الْبُلُوغِ إِلَى مُرَادِهِ وَإِعْزَازِهِ. وَإِنْ كَانَتْ بُغْيَتُهُ غَرَضًا مِنْ أَغْرَاضِ الدُّنْيَا أَمَرْتُ بِإِرْضَائِهِ مِنْ ذَلِكَ فِيمَا أَحَبَّ وَإِنْ يَكُنْ مِنْ أَمْرِ الْمُلْكِ وَمِمَّا يَنْبَغِي لِلْمُلُوكِ أَنْ يَبْذُلُوهُ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَلَا يَنْقَادُوا إِلَيْهِ نَظَرْتُ فِي قَدْرِ عُذْرِهِ. عَلَى أَنَّ مِثْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِيَجْتَرِئَ عَلَى إِدْخَالِ نَفْسِهِ فِي بَابِ مَسْئَلَةِ الْمُلُوكِ. وَإِنْ كَانَ مِمَّا مِنْ أُمُورِ الرَّعِيَّةِ يَقْصِدُ فِيهِ إِلَى صَرْفِ عِنَايَتِي إِلَيْهِمْ نَظَرْتُ مَا هُوَ. فَإِنَّ الْحُكَمَاءَ لَا يُشِيرُونَ إِلَّا بِالْخَيْرِ وَالْجُهَّالُ يُشِيرُونَ بِضِدِّهِ وَأَنَا قَدْ فَسَحْتُ لَكَ بِالْكَلَامِ

فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ بَيْدَبَا مِنَ الْمَلِكِ أَفْرَجَ عَنْهُ رَوْعُهُ وَسَرَى مَا كَانَ وَقَعَ فِي

www.marefa.org

نَفْسِهِ مِنْ خَوْفِهِ وَكَرَّرَ لَهُ وَسَجَدَ. ثُمَّ قَامَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَقَالَ: أَوَّلُ مَا أَقُولُ
أَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بَقَاءَ الْمَلِكِ عَلَى الْأَبَدِ وَدَوَامَ مُلْكِهِ عَلَى الْأَمَدِ. لِأَنَّهُ قَدْ
مَضَى الْمَلِكُ فِي مَقَامِي هٰذَا مِرَارًا جَعَلَهُ شَرَفًا لِي عَلَى جَمِيعِ مَنْ بَعْدِي مِنَ
الْعُلَمَاءِ. وَذِكْرًا بَاقِيًا عَلَى الدَّهْرِ عِنْدَ الْحُكَمَاءِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْمَلِكِ بِوَجْهِهِ
مُسْتَبْشِرًا بِهِ فَرِحًا بِمَا بَدَا لَهُ مِنْهُ وَقَالَ: قَدْ عَطَفَ الْمَلِكُ عَلَيَّ بِكَرَمِهِ
وَإِحْسَانِهِ وَالْأَمْرُ الَّذِي دَعَانِي إِلَى الدُّخُولِ عَلَى الْمَلِكِ وَحَمَلَنِي عَلَى الْمُخَاطَرَةِ
بِكَلَامِهِ وَالْإِقْدَامِ إِلَى الْمَلِكِ لَصِيحَةٌ اخْتَصَصْتُهُ بِهَا دُونَ غَيْرِهِ وَسَيَعْلَمُ
مَنْ يَتَّصِلُ بِهِ ذٰلِكَ أَنِّي لَمْ أُقَصِّرْ عَنْ غَايَةٍ فِيمَا يَجِبُ لِلْمَوْلَى عَلَى الْحُكَمَاءِ.
فَإِنْ ضَعَ فِي كَلَامِي وَوَعَاهُ عَنِّي فَهُوَ حَقِيقٌ بِذٰلِكَ وَمَا يَرَاهُ. وَإِنْ هُوَ أَلْقَاهُ
فَقَدْ بَلَّغْتُ مَا يَلْزَمُنِي وَخَرَجْتُ مِنْ لَوْمٍ يَلْحَقُنِي. قَالَ الْمَلِكُ: يَا بِيدَبَا تَكَلَّمْ
بِمَا شِئْتَ فَإِنِّي مُصْغٍ إِلَيْكَ وَمُقْبِلٌ عَلَيْكَ وَسَامِعٌ مِنْكَ حَتَّى أَسْتَفْرِغَ مَا
عِنْدَكَ إِلَى آخِرِهِ وَأُجَازِيَكَ عَلَى ذٰلِكَ بِمَا أَنْتَ أَهْلُهُ

قَالَ بِيدَبَا: إِنَّ الْأُمُورَ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا الْإِنْسَانُ مِنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ أَرْبَعَةُ
أَشْيَاءَ وَهِيَ جِمَاعُ مَا فِي الْعَالَمِ وَهِيَ: الْحِكْمَةُ وَالْعِفَّةُ وَالْعَقْلُ وَالْعَدْلُ. وَالْعِلْمُ
وَالْأَدَبُ وَالرَّوِيَّةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْحِكْمَةِ. وَالْحِلْمُ وَالصَّبْرُ وَالْوَقَارُ دَاخِلَةٌ
فِي بَابِ الْعَقْلِ. وَالْحَيَاءُ وَالْكَرَمُ وَالصِّيَانَةُ وَالْأَنَفَةُ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعِفَّةِ.
وَالصِّدْقُ وَالْإِحْسَانُ وَالْمُرَاقَبَةُ وَحُسْنُ الْخُلُقِ دَاخِلَةٌ فِي بَابِ الْعَدْلِ.
وَهٰذِهِ هِيَ الْمَحَاسِنُ وَأَضْدَادُهَا هِيَ الْمَسَاوِئُ فَمَنْ كَمُلَتْ هٰذِهِ فِي وَاحِدٍ لَمْ
تُخْرِجْهُ الزِّيَادَةُ فِي نِعْمَةٍ إِلَى سُوءِ الْحَظِّ مِنْ دُنْيَاهُ وَلَا إِلَى نَقْصٍ وَلَمْ يَتَأَسَّفْ
عَلَى مَا لَمْ يُعِنِ التَّوْفِيقُ بِبَقَائِهِ وَلَمْ يَحْزُنْهُ مَا تَجْرِي بِهِ الْمَقَادِيرُ فِي مُلْكِهِ وَلَمْ

www.marefa.org

يَذْهَبْ عِنْدَ مَكْرُوهٍ. فَالْحِكْمَةُ كَنْزٌ لَا يَفْنَى عَلَى إِنْفَاقٍ. وَذَخِيرَةٌ لَا يُضْرَبُ لَهَا بِالْإِمْلَاقِ وَحُلَّةٌ لَا تُخْلِقُ جِدَّتَهَا وَلَذَّةٌ لَا تُصْرَمُ مُدَّتُهَا وَلَئِنْ كُنْتُ عِنْدَ مَقَامِي بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ أَمْسَكْتُ عَنِ ابْتِدَائِهِ بِالْكَلَامِ. فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مِنِّي إِلَّا لِهَيْبَتِهِ وَالْإِجْلَالِ لَهُ. وَلَعَمْرِي إِنَّ الْمُلُوكَ لَأَهْلٌ أَنْ يُهَابُوا لَاسِيَّمَا مَنْ هُوَ فِي الْمَنْزِلَةِ الَّتِي حَلَّ فِيهَا الْمَلِكُ عَنْ مَنَازِلِ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ. وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: الْزَمِ السُّكُوتَ فَإِنَّ فِيهِ سَلَامَةً وَتَجَنَّبِ الْكَلَامَ الْفَارِغَ فَإِنَّ عَاقِبَتَهُ النَّدَامَةُ

وَحُكِيَ أَنَّ أَرْبَعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ ضَمَّهُمْ مَجْلِسُ مَلِكٍ فَقَالَ لَهُمْ: لِيَتَكَلَّمْ كُلُّ وَاحِدٍ بِكَلَامٍ يَكُونُ أَصْلًا لِلْأَدَبِ: فَقَالَ أَحَدُهُمْ: أَفْضَلُ خَلَّةِ الْعِلْمِ السُّكُوتُ: وَقَالَ الثَّانِي: إِنَّ مِنْ أَنْفَعِ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَعْرِفَ قَدْرَ مَنْزِلَتِهِ مِنْ عَقْلِهِ: وَقَالَ الثَّالِثُ: أَنْفَعُ الْأَشْيَاءِ لِلْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَتَكَلَّمَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ: قَالَ الرَّابِعُ: أَرْوَحُ الْأُمُورِ عَلَى الْإِنْسَانِ التَّسْلِيمُ لِلْمَقَادِيرِ: وَاجْتَمَعَ فِي بَعْضِ الزَّمَانِ مُلُوكُ الْأَقَالِيمِ مِنَ الصِّينِ وَالْهِنْدِ وَفَارِسَ وَالرُّومِ وَقَالُوا: يَنْبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا بِكَلِمَةٍ تُدَوَّنُ عَنْهُ عَلَى غَابِرِ الدَّهْرِ: قَالَ مَلِكُ الصِّينِ: أَنَا عَلَى مَا لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنِّي عَلَى رَدِّ مَا قُلْتُ: قَالَ مَلِكُ الْهِنْدِ: عَجِبْتُ لِمَنْ يَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ فَإِنْ كَانَتْ لَهُ لَمْ تَنْفَعْهُ وَإِنْ كَانَتْ عَلَيْهِ أَوْ بَغْتَهُ: قَالَ مَلِكُ فَارِسَ: أَنَا إِذَا تَكَلَّمْتُ بِالْكَلِمَةِ مَلَكَتْنِي وَإِذَا لَمْ أَتَكَلَّمْ بِهَا مَلَكْتُهَا: قَالَ مَلِكُ الرُّومِ: مَا نَدِمْتُ عَلَى مَا لَمْ أَتَكَلَّمْ قَطُّ وَلَقَدْ نَدِمْتُ عَلَى مَا تَكَلَّمْتُ بِهِ كَثِيرًا. وَالسُّكُوتُ عِنْدَ الْمُلُوكِ أَحْسَنُ مِنَ الْهَذَرِ الَّذِي لَا يُرْجَعُ مِنْهُ إِلَى نَفْعٍ وَأَفْضَلُ مَا بِهِ اسْتَنْطَقَ الْإِنْسَانُ لِسَانُهُ

www.marefa.org

غَيْرَ أَنَّ الْمَلِكَ أَطَالَ اللهُ مُدَّتَهُ لَمَّا فَسَحَ لِي فِي الْكَلَامِ وَأَوْسَعَ لِي فِيهِ كَانَ أَوْلَى مَا أَبْدَأُ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي هِيَ غَرَضِي أَنْ يَكُونَ ثَمَرَةُ ذَلِكَ لَهُ دُونِي وَأَنَا أَخُصُّهُ بِالْفَائِدَةِ قِبَلِي. عَلَى أَنَّ الْعُنْيَةَ هِيَ مَا أَقْصِدُ فِي كَلَامِي لَهُ وَإِنَّمَا نَفْعُهُ وَشَرَفُهُ رَاجِعٌ إِلَيْهِ وَأَكُونُ أَنَا قَضَيْتُ فَرْضًا وَجَبَ عَلَيَّ فَأَقُولُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ إِنَّكَ فِي مَنَازِلِ آبَائِكَ وَأَجْدَادِكَ مِنَ الْجَبَابِرَةِ الَّذِينَ أَسَّسُوا الْمُلْكَ قَبْلَكَ وَشَيَّدُوهُ دُونَكَ وَبَنَوُا الْقِلَاعَ وَالْحُصُونَ وَمَهَّدُوا الْبِلَادَ وَقَادُوا الْجُيُوشَ وَاسْتَجَاشُوا الْعُدَّةَ وَطَالَتْ لَهُمُ الْمُدَّةُ وَاسْتَكْثَرُوا مِنَ السِّلَاحِ وَالْكُرَاعِ وَعَاشُوا الدُّهُورَ فِي الْغِبْطَةِ وَالسُّرُورِ. فَلَمْ يَمْنَعْهُمْ ذَلِكَ مِنِ اكْتِسَابِ جَمِيلِ الذِّكْرِ وَلَا قَطَعَهُمْ عَنِ ارْتِكَابِ الشُّكْرِ وَلَا اسْتِعْمَالِ الْإِحْسَانِ إِلَى مَنْ خَوَّلُوهُ وَالْإِرْفَاقِ بِمَنْ وَلُوهُ وَحُسْنِ السِّيَرِ فِيمَا تَقَلَّدُوهُ مَعَ عِظَمِ مَا كَانُوا فِيهِ مِنْ غُرَّةِ الْمُلْكِ وَسَكْرَةِ الِاقْتِدَارِ

وَإِنَّكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ الطَّالِعُ كَوْكَبُ سَعْدِهِ قَدْ وَرِثْتَ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَمَنَازِلَهُمُ الَّتِي كَانَتْ عُدَّتَهُمْ فَأَنْتَ فِيمَا خُوِّلْتَ مِنَ الْمُلْكِ وَوَرِثْتَ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْجُنُودِ، فَلَمْ تَقُمْ بِذَلِكَ بِحَقِّ مَا يَجِبُ عَلَيْكَ بَلْ طَغَيْتَ وَبَغَيْتَ وَعَتَوْتَ وَعَلَوْتَ عَلَى الرَّعِيَّةِ وَأَسَأْتَ السِّيرَةَ وَعَظُمَتْ مِنْكَ الْبَلِيَّةُ. وَكَانَ الْأَوْلَى وَالْأَشْبَهُ بِكَ أَنْ تَسْلُكَ سَبِيلَ أَسْلَافِكَ وَتَتَّبِعَ آثَارَ الْمُلُوكِ قَبْلَكَ وَتَقْفُوَ مَحَاسِنَ مَا أَتَوْهُ لَكَ وَتَقْلَعَ مَا عَارُهُ لَازِمٌ لَكَ وَشَيْنُهُ وَاقِعٌ عَلَيْكَ. وَتُحْسِنَ النَّظَرَ بِرَعِيَّتِكَ وَتَسُنَّ لَهُمْ سُنَنَ الْخَيْرِ الَّذِي يَبْقَى بَعْدَكَ ذِكْرُهُ وَيَعْتَبِكَ الْجَمِيلَ فَرْعُهُ. وَيَكُونَ ذَلِكَ أَبْنَى عَلَى السَّلَامَةِ وَأَدْوَمَ عَلَى الِاسْتِقَامَةِ. فَإِنَّ الْجَاهِلَ الْمُغْتَرَّ مَنِ اسْتَعْمَلَ فِي

www.marefa.org

أُمُورِهِ ٱلْبُطَرَ وَٱلْأَمْنَةَ . وَٱلْحَازِمَ ٱللَّبِيبَ مَنْ سَاسَ ٱلْمُلْكَ بِٱلْمَدَارَاةِ وَٱلرِّفْقِ . فَٱنْظُرْ أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ مَا أَلْبَتُّ إِلَيْكَ وَلَا يَثْقُلَنَّ ذٰلِكَ عَلَيْكَ فَلَمْ أَتَكَلَّمْ لِٱبْتِغَاءِ غَرَضٍ تِجَارِيٍّ وَلَا ٱلْتِمَاسِ مَعْرُوفٍ تُكَافِئُنِي فِيهِ وَلٰكِنِّي أَبْتَلِيكَ نَاصِحًا مُشْفِقًا عَلَيْكَ

فَلَمَّا فَرَغَ بِيدَبَا مِنْ مَقَالَتِهِ وَقَضَى مُنَاصَحَةَ ٱلْمَلِكِ أَرْعَبَ قَلْبَ ٱلْمَلِكِ فَأَغْلَظَ لَهُ ٱلْجَوَابَ ٱسْتِصْغَارًا لِلْأَمْرِ وَقَالَ : لَقَدْ تَكَلَّمْتَ بِكَلَامٍ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِي يَسْتَبْلِغُنِي بِمِثْلِهِ وَلَا يُقْدِمُ عَلَى مَا أَقْدَمْتَ عَلَيْهِ . فَكَيْفَ أَنْتَ مَعَ صِغَرِ شَأْنِكَ وَضَعْفِ بِنْيَتِكَ وَعَجْزِ قُوَّتِكَ . وَلَقَدْ أَكْثَرْتَ إِعْجَابِي مِنْ إِقْدَامِكَ عَلَيَّ وَتَسَلُّطِكَ بِلِسَانِكَ فِيمَا جَاوَزْتَ فِيهِ حَدَّكَ . وَمَا أَجِدُ شَيْئًا فِي تَأْدِيبِ غَيْرِكَ أَبْلَغَ مِنَ ٱلتَّنْكِيلِ بِكَ . فَذٰلِكَ عِبْرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ لِمَنْ عَسَاهُ أَنْ يَبْلُغَ وَيَرُومَ مَا رُمْتَ أَنْتَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ إِذَا أَوْسَعُوا لَهُ فِي مَجَالِسِهِمْ : ثُمَّ أَمَرَ بِهِ أَنْ يُقْتَلَ وَيُصْلَبَ . فَلَمَّا مَضَوْا بِهِ فِيمَا أَمَرَ فَكَّرَ فِيمَا أَمَرَ بِهِ فَأَعْظَمَ عَنْهُ . ثُمَّ أَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ

فَلَمَّا حُبِسَ أَنْفَذَ بِطَلَبِ تَلَامِذَتِهِ وَمَنْ كَانَ يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ فَهَرَبُوا فِي ٱلْبِلَادِ وَٱعْتَصَمُوا بِجَزَائِرِ ٱلْبِحَارِ . فَمَكَثَ بِيدَبَا فِي مَحْبِسِهِ أَيَّامًا لَا يَسْأَلُ ٱلْمَلِكُ عَنْهُ وَلَا يَلْتَفِتُ وَلَا يَجْسُرُ أَحَدٌ أَنْ يَذْكُرَهُ عِنْدَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ لَيْلَةً مِنَ ٱللَّيَالِي سَهِرَ ٱلْمَلِكُ سَهَرًا شَدِيدًا فَطَالَ سَهَرُهُ وَمَدَّ إِلَى ٱلْفَلَكِ بَصَرَهُ وَتَفَكَّرَ فِي تِلْكَ ٱلْفَلَكِ وَحَرَكَاتِ ٱلْكَوَاكِبِ . فَأَغْرَقَ ٱلْفِكْرُ فِيهِ فَسَلَكَ بِهِ إِلَى ٱسْتِنْبَاطِ شَيْءٍ عَرَضَ لَهُ مِنْ أُمُورِ ٱلْفَلَكِ وَٱلْمَسْئَلَةِ عَنْهُ . فَذَكَرَ عِنْدَ ذٰلِكَ بِيدَبَا وَتَفَكَّرَ فِيمَا كَلَّمَهُ بِهِ فَٱرْعَوَى لِذٰلِكَ فَقَالَ فِي نَفْسِهِ : لَقَدْ أَسَأْتُ فِيمَا صَنَعْتُ بِهٰذَا

www.marefa.org

ٱلْمَلْهُوفِ وَضَيَّعْتُ وَاجِبَ حَقِّهِ وَحَمَلَنِي عَلَى ذٰلِكَ سُرْعَةُ ٱلْغَضَبِ. فَقَدْ قَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ: أَرْبَعَةٌ لَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ فِي ٱلْمُلُوكِ. ٱلْغَضَبُ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ ٱلْأَشْيَاءِ مَقْتًا. وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ صَاحِبَهُ لَيْسَ بِمَعْذُورٍ مَعَ ذَاتِ يَدِهِ. وَٱلْكَذِبُ فَإِنَّهُ لَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُجَاوِزَهُ. وَٱلْخُرْقُ فِي ٱلْمُعَاوَرَةِ فَإِنَّ ٱلسَّفَهَ لَيْسَ مِنْ شَأْنِهَا. وَإِنِّي أَتَى إِلَيَّ رَجُلٌ نَصَحَ لِي وَلَمْ يَكُنْ بَلَّاغًا فَعَامَلْتُهُ بِضِدِّ مَا يَسْتَحِقُّ وَكَافَأْتُهُ بِخِلَافِ مَا يَسْتَوْجِبُ. وَمَا كَانَ هٰذَا جَزَاءَهُ مِنِّي بَلْ كَانَ ٱلْوَاجِبُ أَنْ أَسْمَعَ كَلَامَهُ وَأَنْقَادَ لِمَا يُشِيرُ بِهِ: ثُمَّ أَنْفَذَ فِي سَاعَتِهِ مَنْ يَأْتِيهِ بِهِ

فَلَمَّا مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا أَلَسْتَ ٱلَّذِي قَصَدْتَ إِلَى تَصْيِيرِ هِنْدِي وَعَجَزْتَ رَأْيِي فِي سِيرَتِي بِمَا تَكَلَّمْتَ بِهِ آنِفًا: فَقَالَ لَهُ بَيْدَبَا: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ ٱلنَّاصِحُ ٱلشَّفِيقُ ٱلصَّادِقُ ٱلرَّفِيقُ إِنَّمَا نَبَّأْتُكَ بِمَا فِيهِ صَلَاحٌ لَكَ وَلِرَعِيَّتِكَ وَدَوَامُ مُلْكِكَ لَكَ: قَالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا أَعِدْ عَلَيَّ كَلَامَكَ كُلَّهُ وَلَا تَدَعْ مِنْهُ حَرْفًا إِلَّا جِئْتَ بِهِ: فَجَعَلَ بَيْدَبَا يَنْثُرُ كَلَامَهُ وَٱلْمَلِكُ مُصْغٍ إِلَيْهِ وَجَعَلَ يَتَشَلَّمُ كُلَّ مَا سَمِعَ مِنْهُ شَيْئًا يَنْكُتُ ٱلْأَرْضَ بِشَيْءٍ فِي يَدِهِ. ثُمَّ رَفَعَ طَرْفَهُ إِلَى بَيْدَبَا وَأَمَرَهُ بِٱلْجُلُوسِ وَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا إِنِّي قَدِ ٱسْتَعَدْتُ كَلَامَكَ وَحَسُنَ مَوْقِعُهُ مِنْ قَلْبِي وَأَنَا نَاظِرٌ فِي ٱلَّذِي أَشَرْتَ بِهِ وَعَامِلٌ بِمَا أَمَرْتَ: ثُمَّ أَمَرَ بِقُرْدِهِ فَحُلَّتْ وَأَلْقَى عَلَيْهِ مِنْ لِبَاسِهِ وَتَلَقَّاهُ. فَقَالَ بَيْدَبَا: يَا أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ فِي دُونِ مَا كَلَّمْتُكَ بِهِ نِهَايَةً بِمِثْلِكَ: قَالَ: صَدَقْتَ أَيُّهَا ٱلْحَكِيمُ ٱلْفَاضِلُ وَقَدْ وَلَّيْتُكَ مِنْ مَجْلِسِي هٰذَا إِلَى جَمِيعِ أَقَاصِي مَمْلَكَتِي: فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ أَعْفِنِي مِنْ هٰذَا ٱلْأَمْرِ فَإِنِّي لَسْتُ مُضْطَلِعًا بِمَقْوِيهِ: فَأَعْفَاهُ مِنْ ذٰلِكَ. فَلَمَّا ٱنْصَرَفَ عَلِمَ أَنَّ ٱلَّذِي فَعَلَهُ لَيْسَ بِرَأْيِهِ فَبَعَثَ فَرَدَّهُ.

www.marefa.org

وَقَالَ: إِنِّي فَكَّرْتُ فِي إِعْفَائِكَ فِيمَا عَرَضْتُ عَلَيْكَ فَوَجَدْتُهُ لَا يَقُومُ إِلَّا بِكَ وَلَا يَنْهَضُ بِهِ غَيْرُكَ وَلَا يَضْطَلِعُ بِهِ سِوَاكَ فَلَا تُخَالِفْنِي فِيهِ: فَأَجَابَهُ بَيْدَبَا إِلَى ذَلِكَ

وَكَانَ عَادَةُ ذَلِكَ الزَّمَانِ إِذَا اسْتَكْتَبُوا وَزِيرًا أَنْ يَعْقِدُوا عَلَى رَأْسِهِ تَاجًا فِي أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَيُطَافَ بِهِ فِي الْمَدِينَةِ. فَأَمَرَ الْمَلِكُ أَنْ يُفْعَلَ ذَلِكَ بِبَيْدَبَا. فَوُضِعَ التَّاجُ عَلَى رَأْسِهِ وَرَكِبَ فِي الْمَدِينَةِ وَرَجَعَ وَجَلَسَ بِمَجْلِسِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ يَأْخُذُ لِلدَّنِيِّ مِنَ الشَّرِيفِ وَيُسَاوِي بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ وَرَدَّ الْمَظَالِمَ وَوَضَعَ مُنَنَ الْعَدْلِ وَأَكْثَرَ مِنَ الْعَطَاءِ وَالْبَذْلِ. وَاتَّصَلَ الْخَبَرُ بِلَادِمْرِيهِ فَجَاءَتْهُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَرِحِينَ بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ مِنْ جَمِيلِ رَأْيِ الْمَلِكِ فِي بَيْدَبَا. وَشَكَرُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَوْفِيقِ بَيْدَبَا فِي إِزَالَةِ دَبْشَلِيمَ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ السِّيرَةِ. وَاتَّخَذُوا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا يَعِيدُونَ فِيهِ فَهُوَ إِلَى الْيَوْمِ عِيدٌ عِنْدَهُمْ فِي بِلَادِ الْهِنْدِ

ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا لَمَّا خَلَا فِكْرُهُ مِنِ اشْتِغَالِهِ بِدَبْشَلِيمَ تَفَرَّغَ لِوَضْعِ كُتُبِ السِّيَاسَةِ وَنَشَطَ لَهَا. فَعَمِلَ كُتُبًا كَثِيرَةً فِيهَا مِنْ دَقِيقِ الْحِيَلِ وَمَضَى الْمَلِكُ عَلَى مَا رَسَمَ لَهُ بَيْدَبَا مِنْ حُسْنِ السِّيرَةِ وَالْعَدْلِ فِي الرَّعِيَّةِ. فَرَغِبَتْ إِلَيْهِ الْمُلُوكُ الَّذِينَ كَانُوا فِي نَوَاحِيهِ وَانْقَادَتْ إِلَيْهِ الْأُمُورُ عَلَى اسْتِوَائِهَا. وَفَرِحَتْ بِهِ رَعِيَّتُهُ وَأَهْلُ مَمْلَكَتِهِ. ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِذَتَهُ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُمْ وَوَعَدَهُمْ وَعْدًا جَمِيلًا وَقَالَ لَهُمْ: لَسْتُ أَشُكُّ أَنَّهُ وَقَعَ فِي نُفُوسِكُمْ وَقْتَ دُخُولِي عَلَى الْمَلِكِ أَنْ قُلْتُمْ إِنَّ بَيْدَبَا قَدْ ضَاعَتْ حِكْمَتُهُ وَبَطَلَتْ فِكْرَتُهُ أَنْ عَزَمَ عَلَى الدُّخُولِ عَلَى هَذَا الْجَبَّارِ الطَّاغِي. فَقَدْ عَلِمْتُمْ نَصِيحَةَ رَأْيِي وَرَجَاحَةَ

www.marefa.org

فِكْرِي وَأَنِّي لَمْ آتِهِ جَهْلًا بِهِ لِأَنِّي كُنْتُ أَسْمَعُ مِنَ الْحُكَمَاءِ قَبْلِي تَقُولُ: إِنَّ الْمُلْكَ لَهُ سَكْرَةٌ وَكَذَلِكَ الشَّبَابُ: فَالْمُلُوكُ لَا تُفِيقُ مِنَ السَّكْرَةِ إِلَّا بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ وَأَدَبِ الْحُكَمَاءِ. وَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُلُوكِ أَنْ يَتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ الْعُلَمَاءِ. وَالْوَاجِبُ عَلَى الْعُلَمَاءِ تَقْوِيمُ الْمُلُوكِ بِأَلْسِنَتِهَا وَتَأْدِيبُهَا بِحِكَمِهَا وَإِظْهَارُ الْحُجَّةِ الْبَيِّنَةِ اللَّازِمَةِ لَهُمْ لِئَلَّا يَدَّعُوا عَمَّا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الِاعْوِجَاجِ وَالْخُرُوجِ عَنِ الْعَدْلِ. فَوَجَدْتُ مَا قَالَتِ الْعُلَمَاءُ فَرْضًا وَاجِبًا عَلَى الْحُكَمَاءِ لِمُلُوكِهِمْ لِيُوقِظُوهُمْ مِنْ سِنَةِ سُكْرِهِمْ كَالطَّبِيبِ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِ فِي صِنَاعَتِهِ حِفْظُ الْأَجْسَادِ عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ رَدُّهَا إِلَى الصِّحَّةِ. فَكَرِهْتُ أَنْ يَمُوتَ أَوْ أَمُوتَ وَلَا يَبْقَى عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ يَقُولُ: إِنَّهُ كَانَ بِدْبَا الْفَيْلَسُوفُ فِي زَمَانِ دَبْشَلِيمَ الطَّاغِي فَلَمْ يَرُدَّهُ عَمَّا كَانَ عَلَيْهِ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّهُ لَمْ يُمْكِنْهُ كَلَامُهُ خَوْفًا عَلَى نَفْسِهِ فَالْهَرَبُ مِنْهُ وَمِنْ جِوَارِهِ وَالِانْزِعَاجُ عَنِ الْوَطَنِ شَدِيدٌ. فَرَأَيْتُ أَنَّ الْجُودَ بِحَيَاتِي فَأَكُونَ قَدْ أَثْبَتُّ بَيْنِي وَبَيْنَ الْحُكَمَاءِ بَعْدِي عُذْرًا فَحَمَلْتُهَا عَلَى التَّغْرِيرِ وَالظَّنِّ بِمَا أُرِيدُ. وَكَانَ مِنْ ذَلِكَ مَا أَنْتُمْ مُعَايِنُوهُ. فَإِنَّهُ يُقَالُ فِي بَعْضِ الْأَمْثَالِ: إِنَّهُ لَمْ يَبْلُغْ أَحَدٌ مَرْتَبَةً إِلَّا بِإِحْدَى ثَلَاثٍ. إِمَّا بِمَشَقَّةٍ نَالَهُ فِي نَفْسِهِ وَإِمَّا بِوَضِيعَةٍ فِي مَالِهِ أَوْ وَكْسٍ فِي دِينِهِ: مَنْ لَمْ يَرْكَبِ الْأَهْوَالَ لَمْ يَنَلِ الرَّغَائِبَ. وَإِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ قَدْ بَسَطَ لِسَانِي فِي أَنْ أَضَعَ كِتَابًا فِيهِ مِنْ ضُرُوبِ الْحِكْمَةِ. فَلْيَضَعْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ فِي أَيِّ فَنٍّ شَاءَ وَلْيَعْرِضْهُ عَلَيَّ لِأَنْظُرَ بِمِقْدَارِ عَقْلِهِ وَأَيْنَ بَلَغَ مِنَ الْحِكْمَةِ فَهْمُهُ: فَقَالُوا: أَيُّهَا الْحَكِيمُ الْفَاضِلُ وَاللَّبِيبُ الْعَاقِلُ وَالَّذِي وَهَبَ لَكَ مَا مَحَكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعَقْلِ وَالْأَدَبِ وَالْفَضِيلَةِ مَا خَطَرَ هَذَا

www.marefa.org

بِتْلُو بِنَا قَطُّ وَأَنْتَ رَئِيسُنَا وَفَاضِلُنَا وَعَلَى يَدِكَ أَنْعَشْنَا وَلَكِنْ سَنَجْهَدُ أَنْفُسَنَا فِيمَا أَمَرْتَ

وَمَكَثَ الْمَلِكُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ حُسْنِ السِّيرَةِ زَمَانًا يَتَوَلَّى ذَلِكَ لَهُ بَيْدَبَا وَيَقُومُ بِهِ. ثُمَّ إِنَّ الْمَلِكَ دَبْشَلِيمَ لَمَّا اسْتَقَرَّ لَهُ الْمُلْكُ وَسَقَطَ عَنْهُ النَّظَرُ فِي أُمُورِ الْأَعْدَاءِ بِمَا قَدْ كَفَاهُ ذَلِكَ بَيْدَبَا صَرَفَ هِمَّتَهُ إِلَى النَّظَرِ فِي الْكُتُبِ الَّتِي وَضَعَهَا فَلَاسِفَةُ الْهِنْدِ لِآبَائِهِ وَأَجْدَادِهِ. فَوَقَعَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَيْضًا كِتَابٌ مَشْرُوحٌ يُنْسَبُ إِلَيْهِ تُذْكَرُ فِيهِ أَيَّامُهُ كَمَا ذُكِرَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ مِنْ قَبْلِهِ. فَلَمَّا عَزَمَ عَلَى ذَلِكَ عَلِمَ أَنَّهُ لَا يَقُومُ بِذَلِكَ إِلَّا بَيْدَبَا فَدَعَاهُ وَخَلَا بِهِ وَقَالَ لَهُ: يَا بَيْدَبَا إِنَّكَ حَكِيمُ الْهِنْدِ وَفَيْلَسُوفُهَا وَإِنِّي فَكَّرْتُ وَنَظَرْتُ فِي خَزَائِنِ الْحِكْمَةِ الَّتِي كَانَتْ لِلْمُلُوكِ قَبْلِي فَلَمْ أَرَ فِيهِمْ أَحَدًا إِلَّا وَقَدْ وَضَعَ كِتَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَيَّامَهُ وَسِيرَتَهُ وَبَنِيهِ عَنْ أَدَبِهِ وَأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ. فَمِنْهُ مَا وَضَعَهُ الْمُلُوكُ لِأَنْفُسِهَا وَذَلِكَ لِفَضْلِ حِكْمَةٍ فِيهَا. وَمِنْهُ مَا وَضَعَتْهُ حُكَمَاؤُهَا. وَأَخَافُ أَنْ يَخْفَى مَا لِحَقِّ أُولَئِكَ مِمَّا لَا حِيلَةَ لِي فِيهِ وَلَا يُوجَدَ فِي خَزَائِنِي كِتَابٌ أُذْكَرُ فِيهِ بَعْدِي وَأُنْسَبُ إِلَيْهِ كَمَا ذُكِرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي بِكُتُبِهِمْ. وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تَضَعَ لِي كِتَابًا بَلِيغًا تَسْتَفْرِغُ فِيهِ عَقْلَكَ. يَكُونُ ظَاهِرُهُ سِيَاسَةَ الْعَامَّةِ وَتَأْدِيبَهَا وَبَاطِنُهُ أَخْلَاقَ الْمُلُوكِ وَسِيَاسَتَهَا لِلرَّعِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ الْمَلِكِ وَخِدْمَتِهِ فَيَسْقُطُ بِذَلِكَ عَنِّي وَعَنْهُمْ مَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي مُعَانَاةِ الْمُلْكِ. وَأُرِيدُ أَنْ يَبْقَى لِي هَذَا الْكِتَابُ بَعْدِي ذِكْرًا عَلَى غَابِرِ الدُّهُورِ

فَلَمَّا سَمِعَ بَيْدَبَا كَلَامَهُ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَرَفَعَ رَأْسَهُ وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ السَّعِيدُ جَدُّهُ عَلَا نَجْمُكَ وَغَابَ نَحْسُكَ وَدَامَتْ أَيَّامُكَ. إِنَّ الَّذِي قَدْ

www.marefa.org

طُبِعَ عَلَيْهِ ٱلْمَلِكُ مِنْ جُودَةِ ٱلْقَرِيحَةِ وَوُفُورِ ٱلْعَقْلِ حَرَكَةٌ لِعَالِي ٱلْأُمُورِ وَسَمَتْ بِهِ نَفْسُهُ وَهِمَّتُهُ إِلَى أَشْرَفِ ٱلْمَرَاتِبِ مَنْزِلَةً وَأَبْعَدِهَا غَايَةً. وَأَدَامَ ٱللهُ سَعَادَةَ ٱلْمَلِكِ وَأَعَانَهُ عَلَى مَا عَزَمَ مِنْ ذٰلِكَ وَأَعَانَنِي عَلَى بُلُوغِ مُرَادِهِ. فَلْيَأْمُرِ ٱلْمَلِكُ بِمَا شَاءَ مِنْ ذٰلِكَ فَإِنِّي صَائِرٌ إِلَى غَرَضِهِ مُجْتَهِدٌ فِيهِ بِرَأْيِي: قَالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا لَمْ تَزَلْ مَوْصُوفًا بِحُسْنِ ٱلرَّأْيِ وَطَاعَةِ ٱلْمُلُوكِ فِي أُمُورِهِمْ. وَقَدِ ٱخْتَبَرْتُ مِنْكَ ذٰلِكَ وَٱخْتَرْتُ أَنْ تَضَعَ هٰذَا ٱلْكِتَابَ وَتُعْمِلَ فِيهِ فِكْرَكَ وَتَجْهَدَ فِيهِ نَفْسَكَ بِغَايَةِ مَا تَجِدُ إِلَيْهِ ٱلسَّبِيلَ. وَلْيَكُنْ مُشْتَمِلًا عَلَى ٱلْجِدِّ وَٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَٱلْحِكْمَةِ وَٱلْفَلْسَفَةِ: فَكَفَرَ لَهُ بَيْدَبَا وَسَجَدَ وَقَالَ: قَدْ أَجَبْتُ ٱلْمَلِكَ أَدَامَ ٱللهُ أَيَّامَهُ إِلَى مَا أَمَرَنِي بِهِ وَقَدْ جَعَلْتُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ أَجَلًا: قَالَ: وَكَمْ هُوَ ٱلْأَجَلُ: قَالَ: سَنَةٌ: قَالَ: قَدْ أَجَّلْتُكَ: وَأَمَرَ لَهُ بِجَائِزَةٍ سَنِيَّةٍ تُعِينُهُ عَلَى عَمَلِ ٱلْكِتَابِ

فَبَقِيَ بَيْدَبَا مُفَكِّرًا فِي ٱلْأَخْذِ فِيهِ وَفِي أَيِّ صُورَةٍ يَبْتَدِئُ فِيهِ وَفِي وَضْعِهِ. ثُمَّ إِنَّ بَيْدَبَا جَمَعَ تَلَامِذَتَهُ وَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ ٱلْمَلِكَ قَدْ نَدَبَنِي لِأَمْرٍ فِيهِ فَخْرِي وَفَخْرُكُمْ وَفَخْرُ بِلَادِكُمْ وَقَدْ جَمَعْتُكُمْ لِهٰذَا ٱلْأَمْرِ: ثُمَّ وَصَفَ لَهُمْ مَا سَأَلَ ٱلْمَلِكُ مِنْ أَمْرِ ٱلْكِتَابِ وَٱلْغَرَضِ ٱلَّذِي قَصَدَ فِيهِ فَلَمْ يَقَعْ لَهُمُ ٱلْفِكْرُ فِيهِ. فَلَمَّا لَمْ يَجِدْ عِنْدَهُمْ مَا يُرِيدُ فَكَّرَ بِفَضْلِ حِكْمَتِهِ وَعَلِمَ أَنَّ ذٰلِكَ أَمْرٌ يَتِمُّ بِٱسْتِفْرَاغِ ٱلْعَقْلِ وَإِعْمَالِ ٱلْفِكْرِ وَقَالَ: أَرَى ٱلسَّفِينَةَ لَا تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ إِلَّا بِٱلْمَلَّاحِينَ لِأَنَّهُمْ يَعْدِلُونَ بِهَا إِنْ مَالَتْ نَاحِيَةً تِلْكَ ٱللُّجَّةُ بِتَدْبِيرِهَا ٱلَّذِي تَفَرَّدَ بِإِمْرَارِهَا. وَمَتَى شُحِنَتْ بِٱلرُّكَّابِ ٱلْكَثِيرِينَ وَكَثُرَ مَلَّاحُوهَا لَمْ يُؤْمَنْ عَلَيْهَا مِنَ ٱلْغَرَقِ: وَلَمْ يَزَلْ يُفَكِّرُ فِيمَا يَعْمَلُهُ فِي بَابِ ٱلْكِتَابِ حَتَّى وَضَعَهُ عَلَى ٱلِٱنْفِرَادِ بِنَفْسِهِ مَعَ

www.marefa.org

رَجُلٍ مِنْ تَلَامِذَتِهِ كَانَ يَثِقُ بِهِ فَخَلَا بِهِ مُنْفَرِدًا بَعْدَ أَنْ أَعَدَّ مِنَ الْوَرَقِ
الَّذِي تَكْتُبُ الْهِنْدُ فِيهِ شَيْئًا وَمِنَ الْقُوتِ مَا يَقُومُ بِهِ هُوَ وَتِلْمِيذُهُ تِلْكَ
الْمُدَّةَ. وَجَلَسَا فِي مَقْصُورَةٍ وَرَدَّا عَلَيْهَا الْبَابَ. ثُمَّ بَدَأَ فِي نَظْمِ الْكِتَابِ
وَتَصْنِيفِهِ وَلَمْ يَزَلْ هُوَ يُمْلِي وَتِلْمِيذُهُ يَكْتُبُ وَيَرْجِعُ هُوَ فِيهِ حَتَّى اسْتَقَرَّ
الْكِتَابُ عَلَى غَايَةِ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْكَامِ. وَرَتَّبَ فِيهِ أَرْبَعَةَ عَشَرَ بَابًا كُلُّ
بَابٍ مِنْهَا قَائِمٌ بِنَفْسِهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ مَسْئَلَةٌ وَالْجَوَابُ عَنْهَا لِيَكُونَ لِمَنْ
نَظَرَ فِيهِ حَظٌّ. وَضَمَّنَ تِلْكَ الْأَبْوَابَ كِتَابًا وَاحِدًا وَسَمَّاهُ كِتَابَ كَلِيلَةَ
وَدِمْنَةَ. ثُمَّ جَعَلَ كَلَامَهُ عَلَى أَلْسُنِ الْبَهَائِمِ وَالسِّبَاعِ وَالطَّيْرِ لِيَكُونَ
ظَاهِرُهُ هَوًى لِلْخَوَاصِّ وَالْعَوَامِّ وَبَاطِنُهُ رِيَاضَةً لِعُقُولِ الْخَاصَّةِ. وَضَمَّنَهُ أَيْضًا
مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ مِنْ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَاصَّتِهِ بَعْضُهُ عَلَى
حُسْنِ طَاعَتِهِ لِلْمُلُوكِ وَبَعْضُهُ مَا يَكُونُ مُجَانَبَتُهُ خَيْرًا لَهُ. ثُمَّ جَعَلَهُ بَاطِنًا
وَظَاهِرًا كَرَسْمِ سَائِرِ الْكُتُبِ الَّتِي بِرَسْمِ الْحِكْمَةِ. فَصَارَ الْحَيَوَانُ هَوًى وَمَا
يَنْطِقُ بِهِ حِكَمًا وَأَدَبًا. فَلَمَّا ابْتَدَأَ يَدْبَا بِذَلِكَ جَعَلَ أَوَّلَ الْكِتَابِ
وَصْفَ الصَّدِيقِ وَكَيْفَ يَكُونُ صَدِيقَانِ وَكَيْفَ تَنْقَطِعُ الْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمَا بِحِيَالَةِ ذِي
النَّمِيمَةِ. وَأَمَرَ تِلْمِيذَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَلَى لِسَانِ يَدْبَا مِثْلَ مَا كَانَ الْمَلِكُ شَارَطَهُ
فِي أَنْ يَجْعَلَهُ هَوًى وَحِكْمَةً. فَذَكَرَ يَدْبَا أَنَّ الْحِكْمَةَ مَتَى دَخَلَهَا كَلَامُ
الْغَفَلَةِ أَفْسَدَهَا وَاسْتَجْهَلَ حِكْمَتَهَا. فَلَمْ يَزَلْ هُوَ وَتِلْمِيذُهُ يُعْمِلَانِ الْفِكْرَ فِيمَا
سَأَلَهُ الْمَلِكُ حَتَّى فَتَقَ لَهُمَا الْعَقْلُ أَنْ يَكُونَ كَلَامُهَا عَلَى لِسَانِ بَهِيمَتَيْنِ.
فَوَقَعَ لَهُمَا مَوْضِعُ اللَّهْوِ وَالْأَنَسِ بِكَلَامِ الْبَهَائِمِ وَكَانَتِ الْحِكْمَةُ مَا نَطَقَا بِهِ.
فَأَضَفَتِ الْحُكَمَاءُ إِلَى حِكْمَتِهِ وَتَرَكُوا الْبَهَائِمَ وَاللَّهْوَ وَعَلِمُوا أَنَّهَا السَّبَبُ فِي

www.marefa.org

ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُمْ. وَمَالَتْ إِلَيْهِ ٱلْجُهَّالُ عَجَبًا مِنْ مُحَاوَرَةِ بَهِيمَتَيْنِ وَلَمْ يَشْكُوا فِي ذٰلِكَ وَٱعْتَقَدُوهُ لَمَّا وَتَرَكُوا مَعْنَى ٱلْكَلَامِ أَنْ يَفْهَمُوهُ وَلَمْ يَعْلَمُوا ٱلْغَرَضَ ٱلَّذِي وُضِعَ لَهُ. لِأَنَّ ٱلْفَيْلَسُوفَ إِنَّمَا كَانَ غَرَضُهُ فِي ٱلْبَابِ ٱلْأَوَّلِ أَنْ يُخْبِرَ عَنْ تَوَاصُلِ ٱلْإِخْوَانِ كَيْفَ تَتَأَكَّدُ ٱلْمَوَدَّةُ بَيْنَهُمْ عَلَى ٱلْحِفْظِ مِنْ أَهْلِ ٱلسِّعَايَةِ وَٱلتَّحَرُّزِ مِمَّنْ يُوقِعُ ٱلْعَدَاوَةَ بَيْنَ ٱلْمُتَحَابَّيْنِ لِيُجْرِيَ بِذٰلِكَ نَفْعًا إِلَى نَفْسِهِ

فَلَمْ يَزَلْ بَيْدَبَا وَتِلْمِيذُهُ فِي ٱلْمَقْصُورَةِ حَتَّى ٱسْتَتَمَّ عَمَلَ ٱلْكِتَابِ فِي مُدَّةِ سَنَةٍ. فَلَمَّا تَمَّ ٱلْحَوْلُ أَنْفَذَ إِلَيْهِ ٱلْمَلِكُ : أَنْ قَدْ جَاءَ ٱلْوَعْدُ فَإِذَا صَنَعْتَ : فَأَنْفِذْ إِلَيَّ بَيْدَبَا : إِنِّي عَلَى مَا وَعَدْتُ ٱلْمَلِكَ فَلْيَأْمُرْنِي بِحَمْلِهِ بَعْدَ أَنْ يَجْمَعَ أَهْلَ ٱلْمَمْلَكَةِ لِتَكُونَ قِرَاءَتِي هٰذَا ٱلْكِتَابَ بِحَضْرَتِهِمْ : فَلَمَّا رَجَعَ ٱلرَّسُولُ إِلَى ٱلْمَلِكِ سُرَّ بِذٰلِكَ وَوَعَدَهُ يَوْمًا يَجْمَعُ فِيهِ أَهْلَ ٱلْمَمْلَكَةِ. ثُمَّ نَادَى فِي أَقَاصِي بِلَادِ ٱلْهِنْدِ لِيَحْضُرُوا قِرَاءَةَ ٱلْكِتَابِ. فَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمُ أَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ يُنْصَبَ لِبَيْدَبَا سَرِيرٌ مِثْلُ سَرِيرِهِ وَكَرَامَةٌ لِأَبْنَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُلَمَاءِ وَأَنْفَذَ فَأَحْضَرَهُ. فَلَمَّا جَاءَهُ ٱلرَّسُولُ قَامَ فَلَبِسَ ٱلثِّيَابَ ٱلَّتِي كَانَ يَلْبَسُهَا إِذَا دَخَلَ عَلَى ٱلْمُلُوكِ وَهِيَ ٱلْمُسُوحُ ٱلسُّودُ وَحَمَلَ ٱلْكِتَابَ بِيَدِهِ. فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى ٱلْمَلِكِ وَثَبَ ٱلْخَلَائِقُ بِأَجْمَعِهِمْ وَقَامَ ٱلْمَلِكُ شَاكِرًا. فَلَمَّا قَرُبَ مِنَ ٱلْمَلِكِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ وَلَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ. قَالَ لَهُ ٱلْمَلِكُ: يَا بَيْدَبَا ٱرْفَعْ رَأْسَكَ فَإِنَّ هٰذَا يَوْمُ هَنَاءٍ وَفَرَحٍ وَسُرُورٍ وَأُمِرَ أَنْ يَجْلِسَ. فَحِينَ جَلَسَ لِقِرَاءَةِ ٱلْكِتَابِ. سَأَلَهُ ٱلْمَلِكُ عَنْ مَعْنَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْكِتَابِ وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ قَصَدَ فِيهِ. فَأَخْبَرَهُ بِغَرَضِهِ فِيهِ وَفِي كُلِّ بَابٍ. فَازْدَادَ

www.marefa.org

الْمَلِكُ مِنْهُ تَعَجُّبًا وَسُرُورًا فَقَالَ لَهُ: يَا بُذَبَا مَا عَدَوْتَ الَّذِي فِي نَفْسِي وَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَطْلُبُ فَاطْلُبْ مَا شِئْتَ وَتَمَنَّ: فَدَعَا لَهُ بُذَبَا بِالسَّعَادَةِ وَطُولِ الْجَدِّ وَقَالَ: أَيُّهَا الْمَلِكُ أَمَّا الْمَالُ فَلَا حَاجَةَ لِي فِيهِ. وَأَمَّا الْكِسْوَةُ فَلَا أَخْتَارُ عَلَى لِبَاسِي هَذَا شَيْئًا وَلَسْتُ أُخْلِي الْمَلِكَ مِنْ حَاجَةٍ: قَالَ الْمَلِكُ: يَا بُذَبَا مَا حَاجَتُكَ. فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا مَقْضِيَّةٌ. قَالَ: يَأْمُرُ الْمَلِكُ أَنْ يُدَوَّنَ كِتَابِي هَذَا كَمَا دَوَّنَ آبَاؤُهُ وَأَجْدَادُهُ كُتُبَهُمْ وَيَأْمُرُ بِالِاحْتِيَاطِ عَلَيْهِ. فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَيُعَارِضَهُ أَهْلُ فَارِسَ إِذَا عَلِمُوا بِهِ. فَلْيَأْمُرِ الْمَلِكُ أَنْ لَا يَخْرُجَ مِنْ بَيْتِ الْحِكْمَةِ: ثُمَّ دَعَا الْمَلِكُ بِتَلَامِيذِهِ وَأَحْسَنَ لَهُمُ الْجَوَائِزَ. ثُمَّ إِنَّهُ لَمَّا مَلَكَ كِسْرَى أَنُوشِرْوَانُ وَكَانَ مُسْتَبْشِرًا بِالْكَسْبِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ وَالنَّظَرِ فِي أَخْبَارِ الْأَوَائِلِ وَقَعَ لَهُ خَبَرُ الْكِتَابِ فَلَمْ يَقِرَّ قَرَارُهُ حَتَّى بَعَثَ بُزُرْجُمِهْرَ الطَّبِيبَ حَتَّى أَخْرَجَهُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ فَأَقَرَّ فِي خَزَائِنِ فَارِسَ

www.marefa.org

مُقَدِّمَةٌ

مِنْ كِتَابِ كَلِيلَةَ وَدِمْنَةَ

فِي بَعْثَةِ بُزُرْجُمِهْرَ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ

وَقَدْ رَزَقَ اللهُ الْمَلِكَ السَّعِيدَ أَنُوشَرْوَانَ مِنَ الْعَقْلِ أَفْضَلَهُ وَمِنَ الْعِلْمِ أَجْزَلَهُ وَمِنَ الْمَعْرِفَةِ بِالْأُمُورِ أَصْوَبَهَا وَمَدَّهُ مِنَ الْأَفْعَالِ أَمَدَّهَا وَمِنَ الْبَحْثِ عَنِ الْأُصُولِ وَالْفُرُوعِ أَنْفَعَهُ. وَبَلَّغَهُ مِنْ فُنُونِ اخْتِلَافِ الْعِلْمِ وَبُلُوغِ مَنْزِلَةِ الْفَلْسَفَةِ مَا لَمْ يَبْلُغْهُ مَلِكٌ قَطُّ مِنَ الْمُلُوكِ قَبْلَهُ. حَتَّى كَانَ فِي مَا طَلَبَ وَبَحَثَ عَنْهُ مِنَ الْعِلْمِ أَنْ بَلَغَهُ عَنْ كِتَابٍ بِالْهِنْدِ عِلْمُ أَنَّهُ أَصْلُ كُلِّ أَدَبٍ وَرَأْسُ كُلِّ عِلْمٍ وَالدَّلِيلُ عَلَى كُلِّ مَنْفَعَةٍ. فَأَمَرَ الْمَلِكُ وَزِيرَهُ بُزُرْجُمِهْرَ أَنْ يَبْحَثَ لَهُ عَنْ رَجُلٍ أَدِيبٍ عَاقِلٍ مِنْ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ بَصِيرٍ بِلِسَانِ الْفَارِسِيَّةِ مَاهِرٍ فِي كَلَامِ الْهِنْدِ وَيَكُونُ بَلِيغًا بِاللِّسَانَيْنِ جَمِيعًا، حَرِيصًا عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ مُجْتَهِدًا فِي اسْتِعْمَالِ الْأَدَبِ مُبَادِرًا فِي الْعِلْمِ وَالْبَحْثِ عَنْ كُتُبِ الْفَلْسَفَةِ. فَأَتَاهُ بِرَجُلٍ أَدِيبٍ كَامِلِ الْعَقْلِ وَالْأَدَبِ مَعْرُوفٍ بِصِنَاعَةِ الطِّبِّ مَاهِرٍ فِي الْفَارِسِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ يُقَالُ لَهُ بُزُرْجُمِهْرُ

فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ كَفَّرَ لَهُ وَسَجَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: يَا بُزُرْجُمِهْرُ إِنِّي قَدِ اخْتَرْتُكَ لِمَا بَلَغَنِي مِنْ فَضْلِكَ وَعِلْمِكَ وَعَقْلِكَ وَحِرْصِكَ عَلَى طَلَبِ الْعِلْمِ حَيْثُ كَانَ. وَقَدْ بَلَغَنِي عَنْ كِتَابٍ بِالْهِنْدِ مَخْزُونٍ فِي خَزَائِنِهِمْ: وَقَصَّ عَلَيْهِ مَا بَلَغَهُ عَنْهُ وَقَالَ لَهُ: تَجَهَّزْ فَإِنِّي مُرَحِّلُكَ إِلَى أَرْضِ الْهِنْدِ فَتَلَطَّفْ بِعَقْلِكَ وَحُسْنِ أَدَبِكَ وَنَافِذِ رَأْيِكَ لِاسْتِخْرَاجِ هَذَا الْكِتَابِ مِنْ خَزَائِنِهِمْ وَفَحْلِ عُلَمَائِهِمْ فَتَسْتَفِيدَ مِنْ ذَلِكَ وَتُفِيدَنَا. وَمَا قَدِرْتَ عَلَيْهِ مِنْ كُتُبِ

www.marefa.org

الْهِنْدِ مَا لَيْسَ فِي خَزَائِنِنَا مِنْهُ شَيْءٌ فَاحْمِلْهُ مَعَكَ وَخُذْ مَعَكَ مِنَ الْمَالِ مَا تَحْتَاجُ إِلَيْهِ وَعَجِّلْ ذٰلِكَ وَلَا تُقَصِّرْ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ. وَإِنْ أَكْثَرْتَ فِيهِ النَّفَقَةَ فَإِنَّ جَمِيعَ مَا فِي خَزَائِنِي مَبْذُولٌ لَكَ فِي طَلَبِ الْعُلُومِ. وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ الْمُنَجِّمِينَ فَاخْتَارُوا لَهُ يَوْمًا يَسِيرُ فِيهِ وَسَاعَةً صَالِحَةً يَخْرُجُ فِيهَا وَحَمَلَ مَعَهُ مِنَ الْمَالِ عِشْرِينَ جِرَابًا كُلُّ جِرَابٍ فِيهِ عَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ

فَلَمَّا قَدِمَ بُرْزُوَيْهِ بِلَادَ الْهِنْدِ طَافَ بِبَابِ الْمَلِكِ وَمَجَالِسِ الشُّرَفَةِ وَسَأَلَ عَنْ خَوَاصِّ الْمَلِكِ وَالْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ. فَجَعَلَ يَغْشَاهُمْ فِي مَنَازِلِهِمْ وَيَتَلَطَّفُهُمْ بِالتَّحِيَّةِ وَيُخْبِرُهُمْ بِأَنَّهُ رَجُلٌ غَرِيبٌ قَدِمَ بِلَادَهُمْ لِطَلَبِ الْعُلُومِ وَالْأَدَبِ. وَأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى مَعُونَتِهِمْ فِي ذٰلِكَ. فَلَمْ يَزَلْ كَذٰلِكَ زَمَانًا طَوِيلًا يَتَأَدَّبُ عَنْ عُلَمَاءِ الْهِنْدِ بِمَا هُوَ عَالِمٌ بِجَمِيعِهِ وَكَأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ مِنْهُ شَيْئًا وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذٰلِكَ يَسْتُرُ بُغْيَتَهُ وَحَاجَتَهُ. وَاتَّخَذَ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ لِطُولِ مُقَامِهِ أَصْدِقَاءَ كَثِيرَةً مِنَ الْأَشْرَافِ وَالْعُلَمَاءِ وَالْفَلَاسِفَةِ وَالسُّوقَةِ وَمِنْ أَهْلِ كُلِّ طَبَقَةٍ وَصِنَاعَةٍ. وَكَانَ قَدِ اتَّخَذَ مِنْ بَيْنِ أَصْدِقَائِهِ رَجُلًا وَاحِدًا قَدِ اتَّخَذَهُ لِسِرِّهِ وَمَا يَجِبُ مُشَاوَرَتُهُ فِيهِ لِلَّذِي ظَهَرَ لَهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ وَاسْتَبَانَ لَهُ صِحَّةُ إِخَائِهِ وَكَانَ يُشَاوِرُهُ فِي الْأُمُورِ وَيَرْتَاحُ إِلَيْهِ فِي جَمِيعِ مَا أَهَمَّهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَكْتُمُ عَنْهُ الْأَمْرَ الَّذِي قَدِمَ مِنْ أَجْلِهِ لِكَيْ يَسْلُوَ وَيَخْتَبِرَهُ وَيَنْظُرَ هَلْ هُوَ أَهْلٌ أَنْ يُطْلِعَهُ عَلَى سِرِّهِ

فَقَالَ لَهُ يَوْمًا وَهُمَا جَالِسَانِ: يَا أَخِي مَا أُرِيدُ أَنْ أَكْتُمَكَ مِنْ أَمْرِي فَوْقَ الَّذِي كَتَمْتُكَ. فَاعْلَمْ أَنِّي لِأَمْرٍ قَدِمْتُ وَهُوَ غَيْرُ الَّذِي يَظْهَرُ مِنِّي وَالْعَاقِلُ يَكْتَفِي مِنَ الرَّجُلِ بِالْعَلَامَاتِ مِنْ نَظَرِهِ حَتَّى يَعْلَمَ سِرَّ نَفْسِهِ وَمَا يُضْمِرُ قَلْبُهُ

www.marefa.org

عَلَيْهِ. قَالَ لَهُ ٱلْهِنْدِيُّ: إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ بَدَأْتُكَ وَأَخْبَرْتُكَ بِمَا جِئْتَ لَهُ وَإِيَّاهُ تُرِيدُ وَأَنَّكَ تَكْتُمُ أَمْرًا تَطْلُبُهُ وَتُظْهِرُ غَيْرَهُ. فَأَخْفَى عَلَيَّ ذٰلِكَ مِنْكَ وَلٰكِنِّي لِرَغْبَتِي فِي إِخَائِكَ كَرِهْتُ أَنْ أُوَاجِهَكَ بِهِ وَأَنَّهُ قَدِ ٱسْتَبَانَ مَا تُخْفِيهِ مِنِّي. فَأَمَّا إِذْ قَدْ أَظْهَرْتَ ذٰلِكَ وَأَفْصَحْتَ بِهِ وَبِٱلْكَلَامِ فِيهِ فَإِنِّي مُخْبِرُكَ عَنْ نَفْسِكَ وَمُظْهِرٌ لَكَ سَرِيرَتَكَ وَمُعْلِمُكَ بِحَالِكَ ٱلَّتِي قَدِمْتَ لَهَا بِلَادَنَا لِتَسْلُبَنَا كُنُوزَنَا ٱلنَّفِيسَةَ فَتَذْهَبَ بِهَا إِلَى بِلَادِكَ وَتَسُرَّ بِهَا مَلِكَكَ وَكَانَ قُدُومُكَ بِٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ. وَلٰكِنِّي لَمَّا رَأَيْتُ صَبْرَكَ وَمُوَاظَبَتَكَ عَلَى طَلَبِ حَاجَتِكَ وَٱلتَّحَفُّظَ مِنْ أَنْ يَسْقُطَ مِنْكَ ٱلْكَلَامُ مَعَ طُولِ مُكْثِكَ عِنْدَنَا بِشَيْءٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى سَرِيرَتِكَ وَأُمُورِكَ أَرْدَتُّ رَغْبَةً فِي إِخَائِكَ وَثِقَةً بِعَقْلِكَ فَأَحْبَبْتُ مَوَدَّتَكَ. فَإِنِّي لَمْ أَرَ فِي ٱلرِّجَالِ رَجُلًا هُوَ أَرْصَنُ مِنْكَ عَقْلًا وَلَا أَحْسَنُ أَدَبًا وَلَا أَصْبَرُ عَلَى طَلَبِ ٱلْعِلْمِ وَلَا أَكْتَمُ لِسِرٍّ مِنْكَ وَلَا سِيَّمَا فِي بِلَادٍ غُرْبَةٍ وَمَمْلَكَةٍ غَيْرِ مَمْلَكَتِكَ وَعِنْدَ قَوْمٍ لَا تَعْرِفُ سُنَنَهُمْ. وَإِنَّ عَقْلَ ٱلرَّجُلِ لَيَبِينُ فِي ثَمَانِي خِصَالٍ ٱلْأُولَى مِنْهَا ٱلرِّفْقُ. وَٱلثَّانِيَةُ أَنْ يَعْرِفَ ٱلرَّجُلُ نَفْسَهُ فَيَحْفَظَهَا. وَٱلثَّالِثَةُ طَاعَةُ ٱلْمُلُوكِ وَٱلتَّحَرِّي لِمَا يُرْضِيهِمْ. وَٱلرَّابِعَةُ مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ مَوْضِعَ سِرِّهِ وَكَيْفَ يَنْبَغِي أَنْ يُطْلِعَ عَلَيْهِ صَدِيقَهُ. وَٱلْخَامِسَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى أَبْوَابِ ٱلْمُلُوكِ أَدِيبًا مَلِيقَ ٱللِّسَانِ. وَٱلسَّادِسَةُ أَنْ يَكُونَ لِسِرِّهِ وَسِرِّ غَيْرِهِ حَافِظًا. وَٱلسَّابِعَةُ أَنْ يَكُونَ عَلَى لِسَانِهِ قَادِرًا فَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يَأْمَنُ تَبِعَتَهُ. وَٱلثَّامِنَةُ أَنْ يَكُونَ بِٱلْمَحَلِّ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِمَا يُسْأَلُ عَنْهُ. فَمَنِ ٱجْتَمَعَتْ فِيهِ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ كَانَ هُوَ ٱلدَّاعِيَ ٱلْمُخْبِرَ إِلَى نَفْسِهِ وَهٰذِهِ ٱلْخِصَالُ كُلُّهَا قَدِ ٱجْتَمَعَتْ

www.marefa.org

فيك وبانت لي منك. فالله تعالى يحفظك ويعينك على ما قدمت له فمصاد قتك إياي لتسلبني كنزي وفخري وعليي. فإنك أهل لأن تسعف بحاجتك وتشفع بطلبتك وتعطى سؤلك

فقال له برزويه: إني قد كنت هيأت كلاما كثيرا وشعبت له شعوبا وأنشأت له أصولا وطرقا. فلما انتهيت إلى ما بدأتني به من اطلاعك على أمري والذي قدمت له وألقيته علي من خبايا نفسك ورغبتك في ما ألقيت من القول اكتفيت باليسير من الخطاب معك وعرفت الكثير من أموري بالصغير من الكلام واقتصرت به معك على الإيجاز ورأيت من إسعافك إياي بحاجتي ما دلني على كرمك وحسن وفائك. فإن الكلام إذا ألقي إلى الفيلسوف والسر إذا استودع إلى اللبيب الحافظ فقد حصن وبلغ به نهاية أمل صاحبه كما يحصن الشيء النفيس في القلاع الحصينة. قال الهندي: لا شيء أفضل من المودة ومن خلصت مودته كان أهلا أن يخلطه الرجل بنفسه ولا يدخر عنه شيئا ولا يكتمه سرا. فإن حفظ السر رأس الأدب فإذا كان السر عند الأمين الكتوم فقد احترز من التضييع مع أنه خليق أن لا يتكلم به ولا يتم سر بين اثنين قد علياه وتفاوضاه. فإذا تكلم بالسر اثنان فلا بد من ثالث من جهة أحدهما أو من جهة الآخر فإذا صار إلى الثلاثة فقد شاع وذاع حتى لا يستطيع صاحبه أن يجحده ويكابر عنه كالنجم إذا كان منقطعا في السماء. فقال قائل نجم منقطع لا يقدر أحد على تكذيبه. وأنا فقد يدخلني من مودتك وخلطتك سرور لا يعدله شيء. وهذا الأمر الذي تطلبه مني أعلم أنه

www.marefa.org

مِنَ ٱلْأَسْرَارِ ٱلَّتِي لَا تُكْتَمُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَفْشُوَ وَيَظْهَرَ حَتَّى يَتَحَدَّثَ بِهِ ٱلنَّاسُ.
فَإِذَا فَشَا فَقَدْ سَعَيْتُ فِي هَلَاكِي هَلَاكًا لَا أَقْدِرُ عَلَى ٱلْفِدَاءِ مِنْهُ بِٱلْمَالِ وَإِنْ كَثُرَ. لِأَنَّ مَلِكَنَا فَظٌّ غَلِيظٌ يُعَاقِبُ عَلَى ٱلذَّنْبِ ٱلصَّغِيرِ أَشَدَّ ٱلْعِقَابِ فَكَيْفَ مِثْلُ هٰذَا ٱلذَّنْبِ ٱلْعَظِيمِ وَإِذَا حَمَلَتْنِي ٱلْوَدَّةُ ٱلَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ فَأَسْعَفْتُكَ بِحَاجَتِكَ لَمْ يَرُدَّ عِقَابَهُ عَنِّي شَيْءٌ

قَالَ بُرْزُوَيْهِ: إِنَّ ٱلْعُلَمَاءَ قَدْ مَدَحَتِ ٱلصَّدِيقَ إِذَا كَتَمَ سِرَّ صَدِيقِهِ وَأَعَانَهُ عَلَى ٱلْفَوْزِ وَهٰذَا ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي قَدِمْتُ لَهُ لِمِثْلِكَ ذَخَرْتُهُ وَبِكَ أَرْجُو بُلُوغَهُ وَأَنَا وَاثِقٌ بِكَرَمِ طِبَاعِكَ وَوُفُورِ عَقْلِكَ وَأَعْلَمُ أَنَّكَ لَا تَخْشَى مِنِّي وَلَا تَخَافُ أَنْ أُبْدِيَهُ بَلْ تَخْشَى أَهْلَ بَيْتِكَ ٱلطَّائِفِينَ بِكَ وَبِٱلْمَلِكِ أَنْ يَسْمَعُوا بِكَ. وَأَنَا أَرْجُو أَنْ لَا يَشِيعَ شَيْءٌ مِنْ هٰذَا ٱلْأَمْرِ لِأَنِّي أَنَا ظَاعِنٌ وَأَنْتَ مُقِيمٌ وَمَا أَقْمْتُ فَلَا نَالَكَ بَيْنَنَا. فَتَعَاهَدَا عَلَى هٰذَا جَمِيعًا: فَأَجَابَهُ ٱلْهِنْدِيُّ إِلَى ذٰلِكَ ٱلْكِتَابِ وَإِلَى غَيْرِهِ مِنَ ٱلْكُتُبِ فَأَكَبَّ عَلَى تَفْسِيرِهِ وَنَقْلِهِ مِنَ ٱللِّسَانِ ٱلْهِنْدِيِّ إِلَى ٱللِّسَانِ ٱلْفَارِسِيِّ وَأَتْعَبَ نَفْسَهُ وَأَنْصَبَ بَدَنَهُ لَيْلًا وَنَهَارًا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ وَجِلٌ وَفَزِعٌ مِنْ مَلِكِ ٱلْهِنْدِ خَائِفٌ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ أَنْ يَذْكُرَ ٱلْمَلِكُ ٱلْكِتَابَ فِي وَقْتٍ وَلَا يُصَادِفُهُ فِي خِزَانَتِهِ

فَلَمَّا فَرَغَ مِنِ ٱنْتِسَاخِ ٱلْكِتَابِ وَغَيْرِهِ مِمَّا أَرَادَ مِنْ سَائِرِ ٱلْكُتُبِ كَتَبَ إِلَى أَنُوشِيرْوَانَ يُعْلِمُهُ بِذٰلِكَ. فَلَمَّا وَصَلَ إِلَيْهِ ٱلْكِتَابُ سُرَّ بِذٰلِكَ سُرُورًا شَدِيدًا. ثُمَّ خَوْفَ مُعَاجَلَةِ ٱلْمَقَادِيرِ أَنْ تُنْغِصَ عَلَيْهِ فَرَحَهُ فَكَتَبَ إِلَى بُرْزُوَيْهِ بِأَمْرِهِ بِتَعْجِيلِ ٱلْقُدُومِ. فَسَارَ بُرْزُوَيْهِ مُتَوَجِّهًا نَحْوَ كِسْرَى. فَلَمَّا رَأَى ٱلْمَلِكُ مَا قَدْ نَسَهُ مِنَ ٱلشُّخُومِ وَٱلتَّعَبِ وَٱلنَّصَبِ قَالَ لَهُ: أَيُّهَا ٱلْعَبْدُ ٱلنَّاصِحُ

www.marefa.org

ٱلذِي يَأْكُلُ ثَمَرَةَ مَا قَدْ غَرَسَ ٱلْبِشْرُ وَقَرَّ عَيْنًا فَإِنِّي مُبَشِّرُكَ بَالِغٌ بِكَ أَفْضَلَ دَرَجَةٍ: وَأَمَرَهُ أَنْ يُرِيحَ بَدَنَهُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ

فَلَمَّا كَانَ ٱلْيَوْمُ ٱلسَّابِعُ أَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ يَجْتَمِعَ إِلَيْهِ ٱلْأُمَرَاءُ وَٱلْعُلَمَاءُ. فَلَمَّا ٱجْتَمَعُوا أَمَرَ بُرْزُوَيْهِ بِٱلْحُضُورِ فَحَضَرَ وَمَعَهُ ٱلْكُتُبُ فَفَتَحَهَا وَقَرَأَهَا عَلَى مَنْ حَضَرَ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَمْلَكَةِ. فَلَمَّا سَمِعُوا مَا فِيهَا مِنَ ٱلْعِلْمِ فَرِحُوا فَرَحًا شَدِيدًا وَشَكَرُوا ٱللَّهَ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ وَمَدَحُوا بُرْزُوَيْهِ وَأَثْنَوْا عَلَيْهِ وَأَمَرَ ٱلْمَلِكُ أَنْ تُفْتَحَ لِبُرْزُوَيْهِ خَزَائِنُ ٱللُّؤْلُؤِ وَٱلزَّبَرْجَدِ وَٱلْيَاقُوتِ وَٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ ٱلْخَزَائِنِ مَا شَاءَ مِنْ مَالٍ وَكُسْوَةٍ وَقَالَ: يَا بُرْزُوَيْهِ إِنِّي قَدْ أَمَرْتُ أَنْ تَجْلِسَ عَلَى مِثْلِ سَرِيرِي هٰذَا وَتَلْبَسَ تَاجًا وَتَتَرَأَّسَ عَلَى جَمِيعِ ٱلْأَشْرَافِ: فَسَجَدَ بُرْزُوَيْهِ لِلْمَلِكِ وَدَعَا لَهُ وَطَلَبَ مِنَ ٱللَّهِ وَقَالَ: أَكْرَمَ ٱللَّهُ تَعَالَى ٱلْمَلِكَ كَرَامَةَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَحْسَنَ عَنِّي ثَوَابَهُ وَجَزَاءَهُ. فَإِنِّي بِحَمْدِ ٱللَّهِ مُسْتَغْنٍ عَنِ ٱلْمَالِ بِمَا رَزَقَنِي ٱللَّهُ عَلَى يَدِ ٱلْمَلِكِ ٱلسَّعِيدِ ٱلْجَدِّ ٱلْعَظِيمِ ٱلْمُلْكِ وَلَا حَاجَةَ لِي بِٱلْمَالِ. لٰكِنْ لَمَّا كَلَّفَنِي ذٰلِكَ وَعَلِمْتُ أَنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ أَمْضِيَ إِلَى ٱلْخَزَائِنِ فَآخُذَ مِنْهَا طَلَبًا لِمَرْضَاتِهِ وَٱمْتِثَالًا لِأَمْرِهِ: ثُمَّ قَصَدَ خِزَانَةَ ٱلثِّيَابِ فَأَخَذَ مِنْهَا تُحَفًا مِنْ ظَرَائِفِ خُرَاسَانَ وَمِنْ مَلَابِسِ ٱلْمُلُوكِ

فَلَمَّا قَبَضَ بُرْزُوَيْهِ مَا ٱخْتَارَهُ وَرَضِيَهُ مِنَ ٱلثِّيَابِ قَالَ: أَكْرَمَ ٱللَّهُ ٱلْمَلِكَ وَمَدَّ فِي عُمُرِهِ أَبَدَ ٱلْآبِدِ. إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا أُكْرِمَ وَجَبَ عَلَيْهِ ٱلشُّكْرُ وَإِنْ كَانَ قَدِ ٱسْتَوْجَبَهُ تَعَبًا وَمَشَقَّةً فَقَدْ كَانَ فِيهِ لِرِضَا ٱلْمَلِكِ. وَأَمَّا أَنَا فَمَا لَقِيتُهُ مِنْ عَنَاءٍ وَتَعَبٍ وَمَشَقَّةٍ لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ ٱلشَّرَفَ يَا أَهْلَ هٰذَا ٱلْبَيْتِ فَإِنِّي لَمْ أَزَلْ إِلَى هٰذَا ٱلْيَوْمِ تَابِعًا رِضَاكُمْ أَرَى ٱلْعَسِيرَ فِيهِ يَسِيرًا

www.marefa.org

وَالشَّاقَّ هَيِّنًا وَالنَّصَبَ وَالْأَذَى سُرُورًا وَلَذَّةً لِمَا أَعْلَمُ أَنَّ لَكُمْ فِيهِ رِضَى وَقُرْبَةً عِنْدَكُمْ. وَلَكِنِّي أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ حَاجَةً تُسْعِفُنِي بِهَا وَتُعْطِينِي فِيهَا سُؤْلِي فَإِنَّ حَاجَتِي يَسِيرَةٌ وَفِي قَضَائِهَا فَائِدَةٌ كَبِيرَةٌ: قَالَ أَنُوشَرْوَانُ: فَكُلُّ حَاجَةٍ لَكَ قِبَلَنَا مَقْضِيَّةٌ فَإِنَّكَ عِنْدَنَا عَظِيمٌ وَلَوْ طَلَبْتَ مُشَارَكَتَنَا فِي مُلْكِنَا لَفَعَلْنَا وَلَمْ نَرُدَّ طِلْبَتَكَ فَكَيْفَ مَا سِوَى ذَلِكَ فَقُلْ وَلَا تَخْتَشِمْ فَإِنَّ الْأُمُورَ كُلَّهَا مَبْذُولَةٌ لَكَ

قَالَ بُرْزُوَيْهِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ لَا تَنْظُرْ إِلَى عَنَائِي فِي رِضَاكَ وَانْكِمَاشِي فِي طَاعَتِكَ. فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ يَلْزَمُنِي بَذْلُ مُهْجَتِي فِي رِضَاكَ وَلَوْ لَمْ تَجْزِنِي لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عِنْدِي عَظِيمًا وَلَا وَاجِبًا عَلَى الْمَلِكِ. وَلَكِنْ لِكَرَمِهِ وَشَرَفِ مَنْصِبِهِ عَمَدَ إِلَى مُجَازَاتِي وَخَصِّي وَأَهْلِ بَيْتِي بِعُلُوِّ الْمَرْتَبَةِ وَرَفْعِ الدَّرَجَةِ حَتَّى لَوْ قَدَرَ أَنْ يَجْمَعَ لَنَا بَيْنَ شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَفَعَلَ فَجَزَاهُ اللَّهُ عَنَّا أَفْضَلَ الْجَزَاءِ: قَالَ أَنُوشَرْوَانُ: اذْكُرْ حَاجَتَكَ فَعَلَيَّ مَا يَسُرُّكَ: فَقَالَ بُرْزُوَيْهِ: حَاجَتِي أَنْ يَأْمُرَ الْمَلِكُ أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَزِيرَهُ بُزُرْجُمِهْرَ بْنَ الْبَخْتَكَانِ وَيُقْسِمَ عَلَيْهِ أَنْ يُعْمِلَ فِكْرَهُ وَيَجْمَعَ رَأْيَهُ وَيَجْهَدَ طَاقَتَهُ وَيُفْرِغَ قَلْبَهُ فِي نَظْمِ تَأْلِيفِ كَلَامٍ مُتْقَنٍ مُحْكَمٍ وَيَجْعَلَهُ بَابًا يَذْكُرُ فِيهِ أَمْرِي وَيَصِفُ حَالِي وَلَا يَدَعُ مِنَ الْمُبَالَغَةِ فِي ذَلِكَ أَقْصَى مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ وَيَأْمُرُ إِذَا اسْتَتَمَّ أَنْ يَجْعَلَهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ الَّتِي تُقْرَأُ قَبْلَ بَابِ الْأَسَدِ وَالثَّوْرِ. فَإِنَّ الْمَلِكَ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ بَلَغَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ وَأَعْلَى الْمَرَاتِبِ وَأَبْقَى لَنَا مَا لَا يَزَالُ ذِكْرُهُ بَاقِيًا عَلَى الْأَبَدِ حَيْثُمَا قُرِئَ هَذَا الْكِتَابُ

فَلَمَّا سَمِعَ كِسْرَى أَنُوشَرْوَانُ وَأَعْظَمَهُ مَقَالَتَهُ وَمَا سَمَتْ إِلَيْهِ نَفْسُهُ مِنْ

www.marefa.org

مَحَبَّةِ إِبْقَاءِ الذِّكْرِ وَاسْتَحْسَنُوا طَلِبَتَهُ وَاخْتِيَارَهُ قَالَ كِسْرَى: حُبًّا وَكَرَامَةً لَكَ بَابْرُزُوِيهِ إِنَّكَ لَأَهْلٌ أَنْ نُسْعِفَ بِحَاجَتِكَ فَمَا أَقَلَّ مَا قَنِعْتَ بِهِ وَأَيْسَرَهُ عِنْدَنَا وَإِنْ كَانَ خَطَرُهُ عِنْدَكَ عَظِيمًا: ثُمَّ أَقْبَلَ أَنُوشِيرَوَانُ عَلَى وَزِيرِهِ بُزُرْجُمِهْرَ، فَقَالَ لَهُ: قَدْ عَرَفْتَ مُنَاصَحَةَ بُرْزُوِيهِ لَنَا وَتَجَشُّمَهُ الْمَخَاوِفَ وَأَلَمَ الِيكَ فِي مَا بَعَّدَهُ مِنَّا وَإِتْعَابَهُ بَدَنَهُ فِي مَا يَسَّرَنَا وَمَا أَتَى بِهِ إِلَيْنَا مِنَ الْمَعْرُوفِ وَمَا أَفَادَنَا اللهُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْأَدَبِ الْبَاقِي لَنَا فَخْرُهُ وَمَا عَرَضْنَا عَلَيْهِ مِنْ خَزَائِنِنَا لِنَجْزِيَهُ بِذَلِكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْهُ. فَلَمْ نَجِدْ نَفْسَهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ وَكَانَ بُغْيَتُهُ وَطَلِبَتُهُ مِنَّا أَمْرًا يَسِيرًا رَآهُ هُوَ الثَّوَابَ مِنَّا لَهُ وَالْكَرَامَةَ الْجَلِيلَةَ عِنْدَهُ. فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ تَتَكَلَّمَ فِي ذَلِكَ وَتُسْعِفَهُ بِحَاجَتِهِ وَطَلِبَتِهِ. وَاعْلَمْ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَسُرُّنِي وَلَا تَدَعْ شَيْئًا مِنَ الِاجْتِهَادِ وَالْمُبَالَغَةِ إِلَّا بَلَغْتَهُ وَإِنَّ نَالَتْكَ فِيهِ مَشَقَّةٌ وَهُوَ أَنْ تَكْتُبَ بَابًا مُضَارِعًا لِتِلْكَ الْأَبْوَابِ الَّتِي فِي الْكِتَابِ وَتَذْكُرَ فِيهِ فَضْلَ بُرْزُوِيهِ وَكَيْفَ كَانَ ابْتِدَاءُ أَمْرِهِ وَشَأْنِهِ وَتَنْسُبَهُ إِلَيْنَا وَإِلَى حَسَبِهِ وَصِنَاعَتِهِ وَتَذْكُرَ فِيهِ بَعْثَتَهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي حَاجَتِنَا وَمَا أَفَدْنَا عَلَى يَدَيْهِ مِنْ هُنَاكَ وَشَرَّفَنَا بِهِ وَفَضَّلَنَا عَلَى غَيْرِنَا وَكَيْفَ كَانَ حَالُ بُرْزُوِيهِ وَقُدُومُهُ مِنْ بِلَادِ الْهِنْدِ. فَقُلْ مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنَ التَّقْرِيظِ وَالْإِطْنَابِ فِي مَدْحِهِ وَبَالِغْ فِي ذَلِكَ أَفْضَلَ الْمُبَالَغَةِ وَاجْتَهِدْ فِي ذَلِكَ اجْتِهَادًا يَسُرُّ بُرْزُوِيهِ وَأَهْلَ الْمَمْلَكَةِ. فَإِنَّ بُرْزُوِيهِ أَهْلٌ لِذَلِكَ مِنِّي وَمِنْ جَمِيعِ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَمِنْكَ أَيْضًا لِحُبِّكَ لِلْعُلُومِ. وَاجْهَدْ أَنْ يَكُونَ غَرَضُ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي يُنْسَبُ إِلَى بُرْزُوِيهِ أَفْضَلَ مِنْ أَغْرَاضِ تِلْكَ الْأَبْوَابِ عِنْدَ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ وَأَشَدَّ مُشَاكَلَةً بِحَالِ هَذَا الْعِلْمِ. فَإِنَّكَ

www.marefa.org

أَسْعَدُ النَّاسِ كُلِّهِمْ بِذٰلِكَ لِانْفِرَادِكَ بِهٰذَا الْكِتَابِ وَاجْعَلْهُ أَوَّلَ الْأَبْوَابِ. فَإِذَا أَنْتَ عَمِلْتَهُ وَوَضَعْتَهُ فِي مَوْضِعِهِ فَأَعْلِمْنِي لِأَجْمَعَ أَهْلَ الْمَمْلَكَةِ وَنُقْرَأَهُ عَلَيْهِمْ فَيَظْهَرَ فَضْلُكَ وَاجْتِهَادُكَ فِي مَحَبَّتِنَا فَيَكُونَ لَكَ بِذٰلِكَ فَخْرٌ

فَلَمَّا سَمِعَ بُزُرْجُمِهْرُ مَقَالَةَ الْمَلِكِ خَرَّ لَهُ سَاجِدًا وَقَالَ: أَدَامَ اللّٰهُ لَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْبَقَاءَ وَبَلَّغَكَ أَفْضَلَ مَنَازِلِ الصَّالِحِينَ فِي الْآخِرَةِ وَالْأُولَى لَقَدْ شَرَّفَنِي بِذٰلِكَ شَرَفًا بَاقِيًا إِلَى الْأَبَدِ. ثُمَّ خَرَجَ بُزُرْجُمِهْرُ مِنْ عِنْدِ الْمَلِكِ فَوَصَفَ بُزُرْوَيْهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ دَفَعَهُ أَبَوَاهُ إِلَى الْمُعَلِّمِ وَمَضَيْهُ إِلَى بِلَادِ الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْعَقَاقِيرِ وَالْأَدْوِيَةِ وَكَيْفَ تَعَلَّمَ خُطُوطَهُمْ وَلُغَتَهُمْ إِلَى أَنْ بَعَثَهُ أَنُوشِيرْوَانُ إِلَى الْهِنْدِ فِي طَلَبِ الْكِتَابِ وَلَمْ يَدَعْ مِنْ فَضَائِلِ بُزُرْوَيْهِ وَحِكْمَتِهِ وَخَلَائِقِهِ وَمَذْهَبِهِ أَمْرًا إِلَّا وَنَسَقَهُ وَأَتَى بِهِ بِأَجْوَدِ مَا يَكُونُ مِنَ الشَّرْحِ. ثُمَّ أَعْلَمَ الْمَلِكَ بِفَرَاغِهِ مِنْهُ. فَجَمَعَ أَنُوشِيرْوَانُ أَشْرَافَ قَوْمِهِ وَأَهْلَ مَمْلَكَتِهِ وَأَدْخَلَهُمْ إِلَيْهِ وَأَمَرَ بُزُرْجُمِهْرَ بِقِرَاءَةِ الْكِتَابِ وَبُزُرْوَيْهِ قَائِمٌ إِلَى جَانِبِ بُزُرْجُمِهْرَ وَابْتَدَأَ بِوَصْفِ بُزُرْوَيْهِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى آخِرِهِ. فَفَرِحَ الْمَلِكُ بِمَا أَتَى بِهِ بُزُرْجُمِهْرُ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ. ثُمَّ أَثْنَى الْمَلِكُ وَجَمِيعُ مَنْ حَضَرَ عَلَى بُزُرْجُمِهْرَ وَشَكَرُوهُ وَمَدَحُوهُ وَأَمَرَ لَهُ الْمَلِكُ بِمَالٍ جَزِيلٍ وَكُسْوَةٍ وَحُلِيٍّ وَأَوَانٍ. فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْ ذٰلِكَ شَيْئًا غَيْرَ كُسْوَةٍ كَانَتْ مِنْ ثِيَابِ الْمُلُوكِ. ثُمَّ شَكَرَ لَهُ ذٰلِكَ بُزُرْوَيْهِ وَقَبَّلَ رَأْسَهُ وَيَدَهُ وَأَقْبَلَ بُزُرْوَيْهِ عَلَى الْمَلِكِ وَقَالَ: أَدَامَ اللّٰهُ لَكَ الْمُلْكَ وَالسَّعَادَةَ فَقَدْ بَلَّغْتَ بِي وَبِأَهْلِي غَايَةَ الشَّرَفِ بِمَا أَمَرْتَ بِهِ بُزُرْجُمِهْرَ مِنْ صَنْعَةِ الْكِتَابِ فِي أَمْرِي وَإِبْقَاءِ ذِكْرِي

www.marefa.org

نُخْبَةٌ

مِنْ تَارِيخِ الْمُلُوكِ وَأَعْمَارِهِمْ

وَالْكَائِنِ الَّذِي كَانَ فِي زَمَنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ

تَأْلِيفِ

أَبِي جَعْفَرٍ مُحَمَّدِ بْنِ جَرِيرِ بْنِ يَزِيدَ الطَّبَرِيِّ

فِي الشَّامِ الشَّامِ

مَعْرَكَةُ الْوَافُوصَةِ

كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُبَشِّرٍ وَسَهْلٍ وَأَبِي عُثْمَانَ عَنْ خَالِدٍ وَعُبَادَةَ وَأَبِي حَارِثَةَ. قَالُوا وَلَوْعَبَ الْفُؤَادُ بِالنَّاسِ نَحْوَ الشَّامِ وَعِكْرِمَةُ رِدْءٌ لِلنَّاسِ وَبَلَغَ الرُّومَ ذَلِكَ فَكَتَبُوا إِلَى هِرَقْلَ وَخَرَجَ هِرَقْلُ حَتَّى يَنْزِلَ بِحِمْصَ فَأَعَدَّ لَهُمُ الْجُنُودَ وَعَبَّى لَهُمُ الْعَسَاكِرَ وَأَرَادَ اشْتِغَالَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ عَنْ بَعْضٍ لِكَثْرَةِ جُنْدِهِ وَفُضُولِ رِجَالِهِ وَأَرْسَلَ إِلَى عَمْرٍو أَخَاهُ تَذَارِقَ لِأُمِّهِ وَأُمِّهِ. فَخَرَجَ نَحْوَهُمْ فِي تِسْعِينَ أَلْفًا وَبَعَثَ مَنْ يَسُوقُهُمْ حَتَّى نَزَلَ صَاحِبُ السَّاقَةِ ثَنِيَّةَ جِلِّقَ بِأَعْلَى فِلَسْطِينَ وَبَعَثَ جَرَجَةَ بْنَ نُوذَرَا نَحْوَ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ فَسَكَرَ بِإِزَائِهِ وَبَعَثَ الدَّرَافِصَ فَاسْتَقْبَلَ شُرَحْبِيلَ بْنَ حَسَنَةَ وَبَعَثَ الْقِفْقَارَ بْنَ نَسْطُوسَ فِي سِتِّينَ أَلْفًا نَحْوَ أَبِي عُبَيْدَةَ. فَهَابَهُمُ الْمُسْلِمُونَ وَجَمِيعُ فِرَقِ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا سِوَى عِكْرِمَةَ فِي سِتَّةِ آلَافٍ فَفَرَّعُوا جَمِيعًا بِالْكُتُبِ وَبِالرُّسُلِ إِلَى عَمْرٍو أَنْ مَا الرَّأْيُ وَكَاتَبَهُمْ وَرَاسَلَهُمْ أَنِ الرَّأْيُ الِاجْتِمَاعُ وَذَلِكَ أَنَّ مِثْلَنَا إِذَا اجْتَمَعْنَا لَمْ نُغْلَبْ مِنْ قِلَّةٍ وَإِذَا نَحْنُ تَفَرَّقْنَا لَمْ يَبْقَ الرَّجُلُ مِنَّا فِي عَدَدٍ يُقَرُّ فِيهِ لِأَحَدٍ

www.marefa.org

مِمَّنِ اسْتَقْبَلَهُ. وَأَعَدَّ لَنَا لِكُلِّ طَائِفَةٍ مِنَّا جُنْدًا فَانْعَدُوا الْيَرْمُوكَ لِيَجْتَمِعُوا بِهِ. وَقَدْ كُتِبَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ بِمِثْلِ مَا كَاتَبُوا بِهِ عُمَرَ فَطَلَعَ عَلَيْهِمْ كِتَابُهُ بِمِثْلِ رَأْيِ عُمَرَ وَبَلَغَ ذَلِكَ هِرَقْلَ فَكَتَبَ إِلَى بَطَارِقَتِهِ أَنِ اجْتَمِعُوا لَهُمْ فَانْزِلُوا بِالرُّومِ مَنْزِلًا وَاسِعَ الْعَطَنِ وَاسِعَ الْمَطْرَدِ ضَيِّقَ الْمَهْرَبِ. وَعَلَى النَّاسِ الْقَدَارِقُ وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ جَرَجَةُ وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ بَاهَانُ وَالدَّرَافِصُ وَعَلَى الْمَيْسَرَةِ قِيقَارُ وَقَالَ أَبْشِرُوا فَإِنَّ بَاهَانَ فِي الْإِثْرِ مَدَدًا لَكُمْ. فَفَعَلُوا فَنَزَلُوا الْوَاقُوصَةَ وَهُوَ عَلَى ضَفَّةِ الْيَرْمُوكِ وَصَارَ الْوَادِي خَنْدَقًا لَهُمْ وَهُوَ لِهْبٌ لَا يُدْرَكُ. وَإِنَّمَا أَرَادَ بَاهَانُ وَأَصْحَابُهُ أَنْ يَسْتَنْبِتَ الرُّومُ وَيَأْنَسُوا بِالْمُسْلِمِينَ وَتَرْجِعَ الْيَوْمَ أَقْيَدَ نُهُمْ عَنْ طَيْرَتِهَا. وَانْتَقَلَ الْمُسْلِمُونَ عَنْ عَسْكَرِهِمُ الَّذِي اجْتَمَعُوا فِيهِ فَنَزَلُوا عَلَيْهِمْ بِحِذَائِهِمْ عَلَى طَرِيقِهِمْ وَلَيْسَ لِلرُّومِ طَرِيقٌ إِلَّا عَلَيْهِمْ. فَقَالَ عَمْرٌو: أَيُّهَا النَّاسُ أَبْشِرُوا حُصِرَتِ الرُّومُ وَاللَّهِ وَقَلَّ مَا جَاءَ مَحْصُورٌ بِخَيْرٍ. فَأَقَامُوا بِإِزَائِهِمْ وَعَلَى طَرِيقِهِمْ وَمَخْرَجِهِمْ صَفَرَ مِنْ سَنَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَشَهْرَيْ رَبِيعٍ لَا يَقْدِرُونَ مِنَ الرُّومِ عَلَى شَيْءٍ وَلَا يَخْلُصُونَ إِلَيْهِمْ. وَالْلِّهْبُ وَهُوَ الْوَاقُوصَةُ مِنْ وَرَائِهِمْ وَالْخَنْدَقُ مِنْ أَمَامِهِمْ. وَلَا يَخْرُجُونَ خَرَجَةً إِلَّا أَدْبَلَ مِنْهُمُ الْمُسْلِمُونَ. حَتَّى إِذَا سَكَكُوا شَهْرَ رَبِيعٍ الْأَوَّلَ وَقَدِ اسْتَمَدُّوا أَبَا بَكْرٍ وَأَعْلَمُوهُ الشَّأْنَ فِي صَفَرٍ. فَكَتَبَ إِلَى خَالِدٍ لِيَلْحَقَ بِهِمْ وَأَمَرَهُ أَنْ يَخْلُفَ عَلَى الْعِرَاقِ الْمُثَنَّى فَوَافَاهُمْ فِي رَبِيعٍ الْآخِرِ

كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَعَمْرٍو وَالْمُهَلَّبِ قَالُوا: وَلَمَّا نَزَلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَرْمُوكَ وَاسْتَمَدُّوا أَبَا بَكْرٍ قَالَ خَالِدٌ أَقْوَى لَهَا. فَبَعَثَ إِلَيْهِ وَهُوَ بِالْعِرَاقِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَهُ فِي السَّيْرِ

www.marefa.org

فَتَنَدَّ خَالِدٌ لِذَلِكَ فَطَلَعَ عَلَيْهِمْ خَالِدٌ وَطَلَعَ بَاهَانُ عَلَى الرُّومِ وَقَدْ قَدَّمَ قُدَّامَهُ الشَّمَامِسَةَ وَالرُّهْبَانَ وَالْقِسِّيسِينَ يُغْرُونَهُمْ وَيُحَضِّضُونَهُمْ عَلَى الْقِتَالِ. وَوَافَقَ قُدُومُ خَالِدٍ قُدُومَ بَاهَانَ فَخَرَجَ بِهِمْ بَاهَانُ كَالْمُنْتَصِرِ فَوَلِيَ خَالِدٌ قِتَالَهُ وَقَاتَلَ الْأُمَرَاءُ مَنْ يَلِيهِمْ فَهُزِمَ بَاهَانُ وَتَتَابَعَ الرُّومُ عَلَى الْهَزِيمَةِ فَأَفْحَمُوا خَنَادِقَهُمْ. وَتَبَيَّنَتِ الرُّومُ بِبَاهَانَ وَفَرِحَ الْمُسْلِمُونَ بِخَالِدٍ وَحَرَدَ الْمُسْلِمُونَ وَحَرَدَ الرُّومُ وَهُمْ أَرْبَعُونَ وَمِائَتَا أَلْفٍ مِنْهُمْ ثَمَانُونَ أَلْفَ مُقَيَّدٍ وَأَرْبَعُونَ أَلْفَ مُسَلْسَلٍ لِلْمَوْتِ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا مُرْبَطُونَ بِالْعَمَائِمِ وَثَمَانُونَ أَلْفَ رَاجِلٍ وَالْمُسْلِمُونَ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا مِمَّنْ كَانَ مُقِيمًا. إِلَى أَنْ قَدِمَ عَلَيْهِمْ خَالِدٌ فِي تِسْعَةِ آلَافٍ فَصَارُوا مِائَةً وَثَلَاثِينَ أَلْفًا. وَمَرِضَ أَبُو بَكْرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي جُمَادَى الْأُولَى وَتُوُفِّيَ لِلنِّصْفِ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ قَبْلَ الْفَتْحِ بِعَشْرِ لَيَالٍ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ قَدْ سَمَّى لِكُلِّ أَمِيرٍ مِنْ أُمَرَاءِ الشَّامِ كُورَةً. فَسَمَّى لِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْجَرَّاحِ حِمْصَ. وَلِيَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ دِمَشْقَ. وَلِشُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ الْأُرْدُنَّ. وَلِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَلِعَلْقَمَةَ بْنِ مُحَصِّنٍ فِلَسْطِينَ. فَلَمَّا فَرَغَا مِنْهَا نَزَلَ عَلْقَمَةُ وَسَارَ إِلَى مِصْرَ. فَلَمَّا شَارَفُوا الشَّامَ دَهِمَ كُلَّ أَمِيرٍ مِنْهُمْ قَوْمٌ كَثِيرٌ فَأَجْمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَنْ يَجْتَمِعُوا بِمَكَانٍ وَاحِدٍ وَأَنْ يَلْقَوْا جَمْعَ الرُّومِ بِجَمْعِ الْمُسْلِمِينَ

مُرُورُ خَالِدِ بْنِ الْعِرَاقِ إِلَى الشَّامِ

كَتَبَ أَبُو بَكْرٍ إِلَى خَالِدٍ وَهُوَ بِالْحِيرَةِ يَأْمُرُهُ أَنْ يَمُدَّ أَهْلَ الشَّامِ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْقُوَّةِ وَيَخْرُجَ فِيهِمْ وَيَسْتَخْلِفَ عَلَى ضَعَفَةِ النَّاسِ رَجُلًا مِنْهُمْ.

www.marefa.org

فَلَمَّا أَتَى خَالِدًا كِتَابُ أَبِي بَكْرٍ بِذَلِكَ قَالَ خَالِدٌ: هٰذَا عَمَلُ الْأَعْسَرِ ابْنِ أُمِّ شَمْلَةَ يَعْنِي عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ حَسَدَنِي أَنْ يَكُونَ فَتْحُ الْعِرَاقِ عَلَى يَدَيَّ. فَسَارَ خَالِدٌ بِأَهْلِ الْقُوَّةِ مِنَ النَّاسِ وَرَدَّ الضُّعَفَاءَ وَالنِّسَاءَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عُمَيْرَ بْنَ سَعْدٍ الْأَنْصَارِيَّ وَاسْتَخْلَفَ خَالِدٌ عَلَى مَنْ أَسْلَمَ بِالْعِرَاقِ مِنْ رَبِيعَةَ وَغَيْرِهِمُ الْمُثَنَّى بْنَ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيَّ. ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى عَيْنِ التَّمْرِ فَأَغَارَ عَلَى أَهْلِهَا فَأَصَابَ مِنْهُمْ وَرَابَطَ حِصْنًا بِهَا فِيهِ مُقَاتِلَةٌ كَانَ كِسْرَى وَضَعَهُمْ فِيهِ حَتَّى أَسْتَمِدَّهُمْ. فَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمْ وَسَبَى مِنْ عَيْنِ التَّمْرِ وَمِنْ أَبْنَاءِ تِلْكَ الْمَرَابِطَةِ سَبَايَا كَثِيرَةً فَبَعَثَ بِهَا إِلَى أَبِي بَكْرٍ. فَكَانَ مِنْ تِلْكَ السَّبَايَا أَبُو عَمْرَةَ مَوْلَى شَبَّانَ وَهُوَ أَبُو عَبْدِ الْأَعْلَى ابْنُ أَبِي عَمْرَةَ وَعَيْنَةُ مَوْلَى الْمُعَنَّى مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ وَأَبُو عَبْدِ اللّٰهِ مَوْلَى زَهْرَةَ وَخَيْرٌ مَوْلَى أَبِي دَاوُدَ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَازِنِ بْنِ النَّجَّارِ وَيَسَارٌ وَهُوَ جَدُّ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحٰقَ مَوْلَى قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ بْنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ وَأَفْلَحُ مَوْلَى أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ ثُمَّ أَحَدُ بَنِي مَالِكِ بْنِ النَّجَّارِ وَحُمْرَانُ بْنُ أَبَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ. وَقَتَلَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ هِلَالَ بْنَ عُقْبَةَ بْنِ بِشْرٍ الْفِيرِيَّ وَصَلَبَهُ بِعَيْنِ التَّمْرِ. ثُمَّ أَرَادَ السَّيْرَ مُغَوِّرًا مِنْ قُرَاقِرَ وَهُوَ مَاءٌ لِكَلْبٍ إِلَى سُوَى وَهُوَ مَاءٌ لِبَهْرَاءَ بَيْنَهُمَا خَمْسُ لَيَالٍ. فَلَمْ يَهْتَدِ خَالِدٌ الطَّرِيقَ فَالْتَمَسَ دَلِيلًا فَدُلَّ عَلَى رَافِعِ بْنِ عُمَيْرَةَ الطَّائِيِّ فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: أَنْطَلِقْ بِالنَّاسِ. فَقَالَ لَهُ رَافِعٌ: إِنَّكَ لَنْ تُطِيقَ ذٰلِكَ بِالْخَيْلِ وَالْأَثْقَالِ وَاللّٰهِ إِنَّ الرَّاكِبَ الْمُفْرَدَ لَيَخَافُهَا عَلَى نَفْسِهِ وَمَا يَسْلُكُهَا إِلَّا مُغَوِّرًا. إِنَّهَا لَخَمْسُ لَيَالٍ حِيَاضٌ لَا يُصَابُ فِيهَا مَاءٌ مَعَ مَضَلَّتِهَا. فَقَالَ لَهُ خَالِدٌ: وَيْحَكَ إِنَّهُ وَاللّٰهِ

www.marefa.org

إِنَّ لِي بُدًّا مِنْ ذٰلِكَ إِنَّهُ قَدْ أَتَانِي مِنَ الْأَمِيرِ عَزْمَةٌ بِذٰلِكَ فَمُرْ بِأَمْرِكَ. قَالَ أَسْتَكْثِرُوا مِنَ الْمَاءِ. مَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَصُرَّ أُذُنَ نَاقَتِهِ عَلَى مَاءٍ فَلْيَفْعَلْ فَإِنَّهَا الْمَهَالِكُ إِلَّا مَا دَفَعَ اللّٰهُ. وَأَلْقِي عِشْرِينَ جَزُورًا عِظَامًا سِمَانًا مَشَارِفَ. فَأَتَاهُ بِهِنَّ خَالِدٌ فَعَمَدَ إِلَيْهِنَّ رَافِعٌ فَظَمَّأَهُنَّ حَتَّى إِذَا أَجْهَدَهُنَّ عَطَشًا أَوْرَدَهُنَّ فَشَرِبْنَ حَتَّى إِذَا تَمَلَّأَتْ عَمَدَ إِلَيْهِنَّ فَقَطَعَ مَشَافِرَهُنَّ ثُمَّ كَعَمَهُنَّ لِئَلَّا يَجْتَرِرْنَ. ثُمَّ لَخَلَى أَدْبَارَهُنَّ. ثُمَّ قَالَ لِخَالِدٍ سِرْ فَسَارَ خَالِدٌ مَعَهُ مُغِذًّا بِالْخُيُولِ وَالْأَثْقَالِ. فَكُلَّمَا نَزَلَ مَنْزِلًا أَقْفَطَ أَرْبَعًا مِنْ تِلْكَ الشَّوَارِفِ فَأَخَذَ مَا فِي أَكْرَاشِهَا فَسَمَاهُ الْخُبَّلَ. ثُمَّ شَرِبَ النَّاسُ مِمَّا حَمَلُوا مَعَهُمْ مِنَ الْمَاءِ. فَلَمَّا خَشِيَ خَالِدٌ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي آخِرِ يَوْمٍ مِنَ الْمَفَازَةِ قَالَ لِرَافِعِ بْنِ عَمِيرَةَ وَهُوَ أَرْمَدُ: وَيْحَكَ يَا رَافِعُ مَا عِنْدَكَ؟ قَالَ أَدْرَكْتُ الرِّيَّ إِنْ شَاءَ اللّٰهُ. فَلَمَّا دَنَا مِنَ الْعَلَمَيْنِ قَالَ لِلنَّاسِ: انْظُرُوا هَلْ تَرَوْنَ شُجَيْرَةً مِنْ عَوْسَجٍ كَفِعْلِ الرَّجُلِ؟ فَقَالُوا مَا نَرَاهَا. فَقَالَ: إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. هَلَكْتُمْ وَاللّٰهِ إِذًا وَهَلَكْتُ. انْظُرُوا. فَطَلَبُوهَا فَوَجَدُوهَا فُطِمَتْ وَبَقِيَتْ مِنْهَا بَقِيَّةٌ. فَلَمَّا رَآهَا الْمُسْلِمُونَ كَبَّرُوا وَكَبَّرَ رَافِعُ بْنُ عَمِيرَةَ ثُمَّ قَالَ: احْفِرُوا فِي أَصْلِهَا. فَحَفَرُوا فَاسْتَخْرَجُوا عَيْنًا فَشَرِبُوا حَتَّى رَوِيَ النَّاسُ فَانْصَلَتْ بَعْدَ ذٰلِكَ لِخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ الْمَنَازِلُ فَقَالَ: وَاللّٰهِ مَا وَرَدْتُ هٰذَا الْمَاءَ قَطُّ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَرَدْتُهُ مَعَ أَبِي وَأَنَا غُلَامٌ. فَقَالَ شَاعِرٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ

لِلّٰهِ عَيْنَا رَافِعٍ أَنَّى اهْتَدَى ... فَوْزَ مِنْ قُرَاقِرٍ إِلَى سُوَى
خِمْسًا إِذَا مَا مَارَهُ الْجَيْشُ بَكَى ... مَا سَارَهَا قَبْلَكَ إِنْسِيٌّ بَرَى

فَلَمَّا انْتَهَى خَالِدٌ إِلَى سُوَى أَغَارَ عَلَى أَهْلِهِ وَهُوَ بِهَرَاةَ قَبْلَ الصُّبْحِ وَنَاسٌ

www.marefa.org

مِنْهُمْ بِشْرُ بْنُ خَمْرَةَ أَلَمْ فِي جَفْنَةٍ فَبَدَا اجْتَمَعُوا عَلَيْهَا وَمُغَنِّيهِمْ يَقُولُ

أَلَا عِلِّلَانِي قَبْلَ جَيْشِ أَبِي بَكْرٍ ... لَعَلَّ مَنَايَانَا قَرِيبٌ وَمَا نَدْرِي
أَلَا عِلِّلَانِي بِالزُّجَاجِ وَكَرِّرَا ... عَلَيَّ كُمَيْتَ اللَّوْنِ صَافِيَةً تَجْرِي
أَلَا عِلِّلَانِي مِنْ سُلَافَةِ قَهْوَةٍ ... تُسَلِّي هُمُومَ النَّفْسِ مِنْ جَيِّدِ الْخَمْرِ
أَظُنُّ خُيُولَ الْمُسْلِمِينَ وَخَالِدًا ... سَتَطْرُقُكُمْ قَبْلَ الصَّبَاحِ مِنَ الْبَشْرِ
فَهَلْ لَكُمْ فِي الصَّبْرِ قَبْلَ قِتَالِهِمْ ... وَقَبْلَ خُرُوجِ الْمُعْصِرَاتِ مِنَ الْخِدْرِ

قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ فَيَزْعُمُونَ أَنَّ مُغَنِّيَهُمْ ذَلِكَ قُتِلَ تَحْتَ الْغَارَةِ فَسَالَ دَمُهُ فِي تِلْكَ الْجَفْنَةِ. ثُمَّ سَارَ عَلَى وَجْهِهِ ذَلِكَ حَتَّى أَغَارَ عَلَى غَسَّانَ بِمَرْجِ رَاهِطٍ ثُمَّ سَارَ حَتَّى نَزَلَ عَلَى فَنَاةَ بُصْرَى وَعَلَيْهَا أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَشُرَحْبِيلُ بْنُ حَسَنَةَ وَيَزِيدُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ فَاجْتَمَعُوا عَلَيْهَا فَرَابَطُوا حَتَّى صَالَحَتْ بُصْرَى عَلَى الْجِزْيَةِ وَفَتَحَهَا اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فَكَانَتْ أَوَّلَ مَدِينَةٍ مِنْ مَدَائِنِ الشَّامِ فُتِحَتْ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ

مَعْرَكَةُ أَجْنَادِينَ

ثُمَّ سَارُوا جَمِيعًا إِلَى فِلَسْطِينَ مَدَدًا لِعَمْرِو بْنِ الْعَاصِ وَعَمْرٌو مُقِيمٌ بِالْعَرَبَاتِ مِنْ غَوْرِ فِلَسْطِينَ وَمَعَهُ الرُّومُ بِهِمْ فَانْكَشَفُوا عَنْ جِلِّقَ إِلَى أَجْنَادِينَ وَعَلَيْهِمْ تَذَارِقُ أَخُو هِرَقْلَ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ. وَأَجْنَادِينُ بَلَدٌ بَيْنَ الرَّمْلَةِ وَبَيْتِ جِبْرِينَ مِنْ أَرْضِ فِلَسْطِينَ. وَسَارَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ حِينَ سَمِعَ بِأَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَشُرَحْبِيلَ بْنِ حَسَنَةَ وَيَزِيدَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ حَتَّى لَقِيَهُمْ فَاجْتَمَعُوا بِأَجْنَادِينَ حَتَّى عَسْكَرُوا عَلَيْهِمْ

حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَقَ عَنْ مُحَمَّدٍ

www.marefa.org

بْنِ جَعْفَرٍ يَعْنِي ٱبْنَ ٱلزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ أَنَّهُ قَالَ: كَانَ عَلَى ٱلرُّومِ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ ٱلْقِنْقَلَارُ كَانَ هِرَقْلُ ٱسْتَخْلَفَهُمْ وَٱسْتَخْلَفَهُ عَلَى أَمْرِ ٱلشَّامِ حِينَ سَارَ إِلَى ٱلْقُسْطَنْطِينِيَّةِ وَإِلَيْهِ ٱنْصَرَفَ تَذَارِقُ بِمَنْ مَعَهُ مِنَ ٱلرُّومِ. فَأَمَّا عُلَمَاءُ ٱلشَّامِ فَيَزْعُمُونَ أَنَّمَا كَانَ عَلَى ٱلرُّومِ تَذَارِقُ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ.

حَدَّثَنَا ٱبْنُ حُمَيْدٍ قَالَ: حَدَّثَنَا سَلَمَةُ عَنِ ٱبْنِ إِسْحٰقَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ ٱلزُّبَيْرِ عَنْ عُرْوَةَ قَالَ: لَمَّا تَدَانَى ٱلْعَسْكَرَانِ بَعَثَ ٱلْقِنْقَلَارُ رَجُلًا غَرِيبًا فَقَالَ فَحُدِّثْتُ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلَ رَجُلٌ مِنْ فُضَاعَةَ مِنْ بَرِيدَةَ بْنِ حَيْدَانَ يُقَالُ لَهُ ٱبْنُ هَزَارِقَ فَقَالَ: ٱدْخُلْ فِي هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ وَأَقِمْ فِيهِمْ يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ ٱئْتِنِي بِخَبَرِهِمْ. قَالَ فَدَخَلَ فِي ٱلنَّاسِ رَجُلٌ عَرَبِيٌّ لَا يُنْكَرُ وَأَقَامَ فِيهِمْ يَوْمًا وَلَيْلَةً ثُمَّ أَتَاهُ فَقَالَ: مَا وَرَاءَكَ. قَالَ: بِٱللَّيْلِ رُهْبَانٌ وَبِٱلنَّهَارِ فُرْسَانٌ وَلَوْ سَرَقَ ٱبْنُ مَلِكِهِمْ قُطِعَتْ يَدُهُ وَلَوْ زَنَى رُجِمَ لِإِقَامَةِ ٱلْحَقِّ فِيهِمْ. قَالَ ٱلْقِنْقَلَارُ: لَئِنْ كُنْتَ صَدَقْتَنِي لَبَطْنُ ٱلْأَرْضِ خَيْرٌ مِنْ لِقَاءِ هٰؤُلَاءِ عَلَى ظُهُورِهَا وَلَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنَ ٱللَّوَاءِ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَلَا يَنْصُرُنِي عَلَيْهِمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ عَلَيَّ. قَالَ: ثُمَّ تَزَاحَفَ ٱلنَّاسُ فَٱقْتَتَلُوا. فَلَمَّا رَأَى ٱلْقِنْقَلَارُ مَا رَأَى مِنْ قِتَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ قَالَ لِلرُّومِ لُفُّوا رَأْيِي بِثَوْبِهِ. قَالُوا لَهُ لِمَ. قَالَ يَوْمَ ٱلْبُؤْسِ لَا أُحِبُّ أَنْ أَرَاهُ فَمَا رَأَيْتُ فِي ٱلدُّنْيَا أَشَدَّ مِنْ هٰذَا ٱلْيَوْمِ. قَالَ: فَٱخْتَزَّ ٱلْمُسْلِمُونَ رَأْسَهُ وَإِنَّهُ لَمُلْتَفٌّ. وَكَانَتْ وَقْعَةُ أَجْنَادِينَ فِي سَنَةِ ثَلَاثَ عَشْرَةَ لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ جُمَادَى ٱلْأُولَى وَقُتِلَ يَوْمَئِذٍ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ سَلَمَةُ بْنُ هِشَامِ بْنِ ٱلْمُغِيرَةِ وَعَبَّادُ بْنُ ٱلْأَسْوَدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْأَسَدِ وَنُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ ٱللَّهِ ٱلنَّحَّامُ وَهِشَامُ بْنُ ٱلْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ وَجَمَاعَةٌ أُخَرُ مِنْ

www.marefa.org

قُرَيْشٍ. قَالَ: وَلَمْ يُسْهِمْ لِلنَّاسِ مِنَ الْأَنْصَارِ أَحَدًا أُصِيبَ بِهَا، وَفِيهَا تُوُفِّيَ أَبُو بَكْرٍ لِثَمَانِ لَيَالٍ بَقِينَ أَوْ سَبْعٍ بَقِينَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ

فِي افْتِتَاحِ دِمَشْقَ

رَجَعَ الْحَدِيثُ إِلَى حَدِيثِ سَيْفٍ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ عَنْ خَالِدٍ وَأَبِي عُبَادَةَ قَالَا: وَلَمَّا جَاءَ عُمَرَ الْكِتَابُ عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بِالَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ كَتَبَ إِلَيْهِ. أَمَّا بَعْدُ فَابْدَءُوا بِدِمَشْقَ وَانْهَدُوا فَإِنَّهَا حِصْنُ الشَّامِ وَبَيْتُ مَمْلَكَتِهِمْ وَاشْغَلُوا عَنْكُمْ أَهْلَ فَحْلٍ بِخَيْلٍ تَكُونُ بِإِزَائِهِمْ فِي نُحُورِهِمْ. وَأَهْلَ فِلَسْطِينَ وَأَهْلَ حِمْصَ. فَإِنْ فَتَحَهَا اللَّهُ قَبْلَ دِمَشْقَ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ وَإِنْ تَأَخَّرَ فَتْحُهَا حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ بِدِمَشْقَ فَلْيَنْزِلْ بِدِمَشْقَ مَنْ يَمْسِكُ بِهَا وَذَرُوهَا وَانْطَلِقْ أَنْتَ وَسَائِرُ الْأُمَرَاءِ حَتَّى تَغْمُرُوا عَلَى فَحْلٍ. فَإِنْ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَانْصَرِفْ أَنْتَ وَخَالِدٌ إِلَى حِمْصَ وَدَعْ شُرَحْبِيلَ وَعَمْرًا وَخَلِّهِمَا بِالْأُرْدُنِّ وَفِلَسْطِينَ. وَأَمِّرْ كُلَّ بَلَدٍ وَجُنْدٍ عَلَى النَّاسِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ إِمَارَتِهِمْ. فَسَرَّحَ أَبُو عُبَيْدَةَ إِلَى فَحْلٍ أَحَدَ عَشَرَ قَوَّادًا: أَبَا الْأَعْوَرِ السُّلَمِيَّ وَعَبْدَ الرَّحْمَانِ بْنَ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ الْحَرَشِيَّ وَعَامِرَ بْنَ حَفْصَةَ وَعَمْرَ بْنَ كُلَيْبٍ مِنْ بَجِيلَةَ وَعُمَارَةَ بْنَ الصَّعِقِ بْنِ كَعْبٍ وَصَيْفِيَّ بْنَ عُلَيَّةَ بْنِ شَامِلٍ. وَعَمْرَ بْنَ فُلَانٍ وَالْحُجَيْبَ بْنَ عَمْرٍو وَوَرْدَانَ بْنَ عَامِرِ بْنِ خَثْعَمَةَ وَبِشْرَ بْنَ عِصْمَةَ وَعُمَارَةَ بْنَ مُخَشِّيٍّ قَائِدَ النَّاسِ. وَمَعَ كُلِّ رَجُلٍ قُوَّادٌ وَكَانَتِ الرُّؤَسَاءُ تَكُونُ مِنَ الصَّحَابَةِ حَتَّى لَا يَجِدُوا مَنْ يَحْتَمِلُ ذَلِكَ. فَسَارُوا مِنَ الصُّفَّرِ حَتَّى نَزَلُوا قَرِيبًا مِنْ فَحْلٍ. فَلَمَّا رَأَتِ الرُّومُ أَنَّ الْجُنُودَ تُرِيدُهُمْ بَثَقُوا الْمِيَاهَ حَوْلَ فَحْلٍ فَأَرْدَغَتِ الْأَرْضُ ثُمَّ وَحِلَتْ وَاغْتَمَّ الْمُسْلِمُونَ مِنْ ذَلِكَ

www.marefa.org

فَحَبَسُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِهَا ثَلَاثِينَ أَلْفَ فَارِسٍ وَكَانَ أَوَّلَ مَحْصُورٍ بِالشَّامِ أَهْلُ حِمْصَ ثُمَّ أَهْلُ دِمَشْقَ

وَبَعَثُوا الْأُمَرَاءَ وَبَعَثَ أَبُو عُبَيْدَةَ ذَا الْكَلَاعِ حَتَّى كَانَ بَيْنَ دِمَشْقَ وَحِمْصَ رِدْءًا. وَبَعَثَ عَامِرَ بْنَ حَكِيمٍ وَمَسْرُوقًا وَكَانَا بَيْنَ دِمَشْقَ وَفِلَسْطِينَ وَالْأَمِيرُ يَزِيدُ فَفَصَلَ وَفَصَلَ بِأَبِي عُبَيْدَةَ مِنَ الْمَرْجِ وَقَدَّمَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَعَلَى مُجَنِّبَتِهِ عَمْرٌو وَأَبُو عُبَيْدَةَ. وَعَلَى الْخَيْلِ عِيَاضٌ وَعَلَى الرَّجْلِ شُرَحْبِيلُ. فَقَدِمُوا عَلَى دِمَشْقَ وَعَلَيْهِمْ نَسْطَاسُ بْنُ نِسْطُوسَ فَحَصَرُوا أَهْلَ دِمَشْقَ وَنَزَلُوا حَوَالَيْهَا. فَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ عَلَى نَاحِيَةٍ وَعَمْرٌو عَلَى نَاحِيَةٍ وَيَزِيدُ عَلَى نَاحِيَةٍ وَهِرَقْلُ بِمَنْبِجَ بِحِمْصَ وَمَدِينَةُ حِمْصَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ. فَحَاصَرُوا أَهْلَ دِمَشْقَ نَحْوًا مِنْ سَبْعِينَ لَيْلَةً حِصَارًا شَدِيدًا بِالزُّحُوفِ وَالْقَرَامِي وَالْمَجَانِيقِ وَهُمْ مُعْتَصِمُونَ بِالْمَدِينَةِ يَرْجُونَ الْغِيَاثَ وَهِرَقْلُ مِنْهُمْ قَرِيبٌ. وَقَدِ اسْتَمَدُّوهُ وَهُوَ الْكَلَاعِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَبَيْنَ حِمْصَ عَلَى رَأْسِ لَيْلَةٍ مِنْ دِمَشْقَ كَأَنَّهُ يُرِيدُ حِمْصَ وَجَاءَتْ خُيُولُ هِرَقْلَ مَعُونَةً لِأَهْلِ دِمَشْقَ فَأَشْجَتْهَا الْخُيُولُ الَّتِي مَعَ ذِي الْكَلَاعِ وَشَغَلَتْهَا عَنِ النَّاسِ. فَارْتَزُّوا وَنَزَلُوا بِإِزَائِهِ وَأَهْلُ دِمَشْقَ عَلَى حَالِهِمْ. فَلَمَّا أَيْقَنَ أَهْلُ دِمَشْقَ أَنَّ الْإِمْدَادَ لَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ فَشِلُوا وَجَبُنُوا وَأَبْلَسُوا وَازْدَادَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ طَمَعًا. وَقَدْ كَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهَا كَالْغَارَاتِ قَبْلَ ذَلِكَ إِذَا هَجَمَ الْبَرْدُ قَفَلَ النَّاسُ فَسَقَطَ الْحَجُّ وَالْقَوْمُ مُقِيمُونَ

فَعِنْدَ ذَلِكَ انْقَطَعَ رَجَاؤُهُمْ وَنَدِمُوا عَلَى دُخُولِ دِمَشْقَ وَوُلِدَ لِلْبَطْرِيقِ الَّذِي عَلَى أَهْلِ دِمَشْقَ مَوْلُودٌ فَصَنَعَ عَلَيْهِ فَأَكَلَ الْقَوْمُ وَشَرِبُوا وَعَدَلُوا عَنْ

www.marefa.org

مَوَاقِفِهِمْ وَلَا يَشْعُرُ بِذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ خَالِدٍ فَإِنَّهُ كَانَ لَا يَنَامُ وَلَا يُنِيمُ وَلَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ شَيْءٌ. عُيُونُهُ ذَاكِيَةٌ وَهُوَ مُعْنًى بِمَا يَلِيهِ. قَدِ اتَّخَذَ حِبَالًا كَهَيْئَةِ السَّلَالِيمِ وَأَوْهَاقًا. فَلَمَّا أَمْسَى مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ نَهَضَ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ جُنْدِهِ الَّذِينَ قَدِمَ بِهِمْ عَلَيْهِمْ وَتَقَدَّمَهُمْ هُوَ وَالْقَعْقَاعُ بْنُ عَمْرٍو وَمَذْعُورُ بْنُ عَدِيٍّ وَأَمْثَالُهُ مِنْ أَصْحَابِهِ فِي أَوَّلِ نَوْبِهِ وَقَالُوا: إِذَا سَمِعْتُمْ تَكْبِيرَنَا عَلَى السُّورِ فَارْقَوْا إِلَيْنَا وَانْهَدُوا إِلَى الْبَابِ. فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى الْبَابِ الَّذِي يَلِيهِ هُوَ وَأَصْحَابُهُ الْمُتَقَدِّمُونَ رَمَوْا بِالْحِبَالِ الشُّرَفَ وَعَلَى ظُهُورِهِمُ الْقِرَبُ الَّتِي قَطَعُوا بِهَا خَنَادِقَهُمْ. فَلَمَّا ثَبَتَ لَهُمْ وَثِقَانِ تَسَلَّقَ فِيهِمَا الْقَعْقَاعُ وَمَذْعُورٌ. ثُمَّ لَمْ يَدَعَا أُحْبُولَةً إِلَّا ثَبَّتَاهَا وَالْأَوْهَاقَ بِالشُّرَفِ. وَكَانَ الْمَكَانُ الَّذِي اقْتَحَمُوا مِنْهُ أَحْصَنَ مَكَانٍ يُحِيطُ بِدِمَشْقَ أَكْثَرُ مَاءً وَأَشَدُّ مَدْخَلًا وَتَوَافَوْا لِذَلِكَ فَلَمْ يَبْقَ مِمَّنْ دَخَلَ مَعَهُ إِلَّا رَجُلٌ أَوْ دَنَا مِنَ الْبَابِ حَتَّى إِذَا اسْتَوَوْا عَلَى السُّورِ حَذَّرَ عَامَّةَ أَصْحَابِهِ وَأَنْذَرَ مَعَهُمْ وَخَلَّفَ مَنْ يُحْيِي ذَلِكَ الْمَكَانَ لِئَلَّا يُرْتَقَى. وَأَمَرَهُمْ بِالتَّكْبِيرِ فَكَبَّرَ الَّذِينَ عَلَى رَأْسِ السُّورِ. فَنَهَدَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى الْبَابِ وَمَالَ إِلَى أَنْجَالِ بَشَرٍ كَثِيرٍ فَوَثَبُوا فِيهَا وَانْتَهَى خَالِدٌ إِلَى مَنْ يَلِيهِ فَأَنَامَهُمْ وَانْحَدَرَ إِلَى الْبَابِ فَقَتَلُوا الْبَوَّابِينَ وَثَارَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَفَزِعَ سَائِرُ النَّاسِ. فَأَخَذُوا مَوَاقِفَهُمْ وَلَا يَدْرُونَ مَا الشَّأْنُ وَتَشَاغَلَ أَهْلُ كُلِّ نَاحِيَةٍ بِمَا يَلِيهِمْ. وَقَطَعَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ وَمَنْ مَعَهُ أَغْلَاقَ الْبَابِ بِالسُّيُوفِ وَفَتَحُوا لِلْمُسْلِمِينَ وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مِنْ دَاخِلٍ حَتَّى مَا بَقِيَ مِمَّا يَلِي بَابَ خَالِدٍ مُقَاتِلٌ إِلَّا أَنِيمَ

وَلَمَّا شَدَّ خَالِدٌ عَلَى مَنْ يَلِيهِ وَبَلَغَ مِنْهُمُ الَّذِي أَرَادَ عَنْوَةً وَلَزِمَ مَنْ

www.marefa.org

أَقْلَتَ إِلَى الْأَبْوَابِ الَّتِي تَلِي غَيْرَهُ. وَقَدْ كَانَ الْمُسْلِمُونَ دَعَوْهُمْ إِلَى الْمُنَاظَرَةِ فَأَبَوْا وَأَعَدُّوا فَلَمْ تَفْجَأْهُمْ إِلَّا وَهُمْ يَهْبُونَهُمْ بِالصُّلْحِ. فَأَجَابُوهُمْ وَقَبِلُوا مِنْهُمْ وَفَتَحُوا لَهُمُ الْأَبْوَابَ وَقَالُوا: ادْخُلُوا فَامْنَعُونَا مِنْ أَهْلِ ذَلِكَ الْبَابِ: وَدَخَلَ أَهْلُ كُلِّ بَابٍ بِصُلْحٍ مِنْ يَلِيهِمْ وَدَخَلَ خَالِدٌ مِمَّا يَلِيهِ عَنْوَةً. فَالْتَقَى خَالِدٌ وَالْقُوَّادُ فِي وَسَطِهَا هَذَا اسْتِعْرَاضًا وَانْتِهَابًا وَهَذَا صُلْحًا وَتَسْكِينًا فَأَجْرَوْا نَاحِيَةَ خَالِدٍ مَجْرَى الصُّلْحِ. فَصَارَ صُلْحًا وَكَانَ صُلْحُ دِمَشْقَ عَلَى مُنَاصَفَةِ الدِّينَارِ وَالْعَقَارِ وَدِينَارٍ عَلَى كُلِّ رَأْسٍ. فَاقْتَسَمُوا الْأَسْلَابَ فَكَانَ أَصْحَابُ خَالِدٍ فِيهَا كَأَصْحَابِ سَائِرِ الْقُوَّادِ وَجَرَى عَلَى الدِّيَارِ مَنْ بَقِيَ فِي الصُّلْحِ جَرِيبٌ مِنْ كُلِّ جَرِيبِ أَرْضٍ وَوَقَفَ مَا كَانَ لِلْمُلُوكِ وَمَنْ صَوَّبَ مَعَهُمْ فَيْئًا وَسَمُّوا لِذِي الْكَلَاعِ وَمَنْ مَعَهُ وَلِأَبِي الْأَعْوَرِ وَمَنْ مَعَهُ وَلِبُسْرٍ وَمَنْ مَعَهُ وَبَعَثُوا بِالْبِشَارَةِ إِلَى عُمَرَ

فِي انْقِطَاعِ بِلَادِ فَارِسَ

وَقْعَةُ الْقَرْقَسِ

وَقْعَةُ الْقَرْقَسِ وَيُقَالُ لَهَا الْقُسُّ قُسُّ النَّاطِقِ وَيُقَالُ لَهَا الْجِسْرُ وَيُقَالُ لَهَا الْمَرْوَحَةُ: قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الطَّبَرِيُّ رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْهِ. كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَزِيَادٍ بِإِسْنَادِهِمْ قَالُوا: وَلَمَّا رَجَعَ الْجَالِنُوسُ إِلَى رُسْتُمَ وَمَنْ أَفْلَتَ مِنْ جُنُودِهِ قَالَ رُسْتُمُ: أَيُّ الْعَجَمِ أَشَدُّ عَلَى الْعَرَبِ فِيمَا تُرَوْنَ: فَقَالُوا: بَهْمَنُ جَاذَوَيْهِ. فَوَجَّهَهُ وَمَعَهُ فِيلَةٌ وَرَدَّ الْجَالِنُوسَ مَعَهُ: فَقَالَ لَهُ: قَدِّمِ الْجَالِنُوسَ فَإِنْ عَادَ لِمِثْلِهَا فَاضْرِبْ عُنُقَهُ. فَأَقْبَلَ بَهْمَنُ جَاذَوَيْهِ وَمَعَهُ ذِرَفْسُ كَابَانَ رَايَةُ كِسْرَى وَكَانَتْ مِنْ

www.marefa.org

جُلُودِ الْبَقَرِ عَرْضَ ثَمَانِي أَذْرُعٍ فِي طُولِ اثْنَيْ عَشْرَةَ ذِرَاعًا. فَأَقْبَلَ أَبُو عُبَيْدٍ حَتَّى نَزَلَ الْمَرْوَحَةَ مَعَ الْبُرُوجِ وَالْعَاقُولِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بَهْمَنُ جَاذُوَيْهِ. إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَنَدَعَكُمْ وَالْعُبُورَ. وَإِمَّا أَنْ تَدَعُونَا نَعْبُرُ إِلَيْكُمْ: فَقَالَ النَّاسُ: لَا نَعْبُرُ يَا أَبَا عُبَيْدٍ إِنَّا نَنْهَاكَ عَنِ الْعُبُورِ. قَالُوا لَهُ: قُلْ لَهُمْ فَلْيَعْبُرُوا وَكَانَ مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ سَلِيطٌ. فَلَجَّ أَبُو عُبَيْدٍ وَتَرَكَ الرَّأْيَ وَقَالَ: لَا يَكُونُوا أَجْرَأَ عَلَى الْمَوْتِ مِنَّا بَلْ نَعْبُرُ إِلَيْهِمْ. فَعَبَرُوا إِلَيْهِمْ فِي مَنْزِلٍ ضَيِّقِ الْمَطْرَدِ وَالْمَذْهَبِ فَاقْتَتَلُوا يَوْمًا وَأَبُو عُبَيْدٍ فِيمَا بَيْنَ السِّتَّةِ وَالْعَشَرَةِ حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ النَّهَارِ وَاسْتَبْطَأَ رَجُلٌ مِنْ ثَقِيفٍ الْفَتْحَ وَأَلَفَ بَيْنَ النَّاسِ فَتَصَافَحُوا بِالسُّيُوفِ

فَعَبَرُوا إِلَيْهِمْ وَعَضَلَتِ الْأَرْضُ بِأَهْلِهَا وَأَلْجَمَ النَّاسُ الْحَرْبَ. فَلَمَّا نَظَرَتِ الْخُيُولُ إِلَى الْفِيلَةِ عَلَيْهَا الْجُلُلُ وَالْخَيْلُ عَلَيْهَا التَّجَافِيفُ وَالْفُرْسَانِ عَلَيْهِمُ الشَّعْرُ رَأَتْ شَيْئًا مُنْكَرًا لَمْ تَكُنْ تَرَى مِثْلَهُ. فَجَعَلَ الْمُسْلِمُونَ إِذَا حَمَلُوا عَلَيْهِمْ لَمْ تُقْدِمْ خُيُولُهُمْ. فَإِذَا حَمَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْفِيلَةِ وَالْجَلَاجِلِ فَرَّقَتْ بَيْنَ كَرَادِيسِهِمْ لَا تَقُومُ لَهَا الْخَيْلُ إِلَّا عَلَى نِفَارٍ وَخَرَّقَتْهُمُ الْفُرْسُ بِالنُّشَّابِ وَعَضَّ الْمُسْلِمِينَ الْأَلَمُ وَجَعَلُوا لَا يَصِلُونَ إِلَيْهِمْ. فَتَرَجَّلَ أَبُو عُبَيْدٍ وَتَرَجَّلَ النَّاسُ. ثُمَّ مَشَوْا إِلَيْهِمْ فَصَافَحُوهُمْ بِالسُّيُوفِ. فَجَعَلَتِ الْفِيلَةُ لَا تَحْمِلُ عَلَى جَمَاعَةٍ إِلَّا دَفَعَتْهُمْ. فَنَادَى أَبُو عُبَيْدٍ: اعْتَرِضُوا الْفِيلَةَ وَقَطِّعُوا بَطْنَهَا وَاقْلِبُوا عَنْهَا أَهْلَهَا: وَوَاثَبَ هُوَ الْفِيلَ الْأَبْيَضَ. فَتَعَلَّقَ بِبَطْنِهِ فَقَطَعَهُ وَقَطَعَ الَّذِينَ عَلَيْهِ وَفَعَلَ الْقَوْمُ مِثْلَ ذَلِكَ فَمَا تَرَكُوا فِيلًا إِلَّا حَطُّوا أَهْلَهُ وَقَتَلُوا أَصْحَابَهُ فَأَهْوَى الْفِيلُ لِأَبِي عُبَيْدٍ فَنَعَّ مِشْفَرَهُ بِالسَّيْفِ

www.marefa.org

فَأَلْقَاهُ الْفِيلُ بِيَدِهِ فَوَقَعَ فَخَبَطَهُ الْفِيلُ وَقَامَ عَلَيْهِ. فَلَمَّا بَصُرَ بِهِ النَّاسُ تَحْتَ الْفِيلِ خَشَعَتْ أَنْفُسُهُمْ وَأَخَذَ اللِّوَاءَ الَّذِي كَانَ أَمَرَّ بَعْدَهُ فَقَاتَلَ الْفِيلَ حَتَّى نَحَّى عَنْ أَبِي عُبَيْدٍ فَأَجْلَزَهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ فَأَحْرَزُوا وَشَلُّوهُ وَبَجَرَ ثُمَّ الْفِيلُ بِيَدِهِ خَاتَ أَبِي عُبَيْدٍ وَخَبَطَهُ الْفِيلُ وَقَامَ عَلَيْهِ وَتَنَابَعَ سَبْعَةٌ مِنْ ثَقِيفٍ كُلُّهُمْ يَأْخُذُ اللِّوَاءَ وَيُقَاتِلُ حَتَّى يَمُوتَ. ثُمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ الْمُثَنَّى وَهَرَبَ النَّاسُ

فَلَمَّا رَأَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَرْثَدٍ الثَّقَفِيُّ مَا لَقِيَ أَبُو عُبَيْدٍ وَخُلَفَاؤُهُ وَمَا يَصْنَعُ النَّاسُ بَادَرَهُمُ الْجِسْرَ فَقَطَعَهُ وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ مُوتُوا عَلَى مَا مَاتَ عَلَيْهِ أُمَرَاؤُكُمْ أَوْ تَظْفَرُوا وَأَجَارَ الْمُشْرِكُونَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْجِسْرِ وَجَمِيعُ النَّاسِ قَدْ انْتَبَذُوا فِي الْفُرَاتِ فَفَرِقَ مَنْ لَمْ يَصْبِرْ وَأَسْرَعُوا فِيهِمْ صَبَرَ وَحَمَى الْمُثَنَّى وَفُرْسَانٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ النَّاسَ وَنَادَى يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا دُونَكُمْ فَاعْبُرُوا عَلَى هَيْئَتِكُمْ وَلَا تَذْهَشُوا فَإِنَّا لَنْ نَزَايِلَ حَتَّى نَرَاكُمْ مِنْ ذَلِكَ الْجَانِبِ وَلَا تُغَرِّرُوا أَنْفُسَكُمْ: فَوَجَدُوا الْجِسْرَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَرْثَدٍ قَائِمٌ عَلَيْهِ يَمْنَعُ النَّاسَ مِنَ الْعُبُورِ. فَأَتَوْا بِهِ الْمُثَنَّى فَضَرَبَهُ وَقَالَ مَا حَمَلَكَ عَلَى الَّذِي صَنَعْتَ: قَالَ لِيُقَاتِلُوا. وَنَادَى مَنْ عَبَرَ. فَجَاؤُوا بِعُلُوجٍ فَضَمُّوا إِلَى السَّفِينَةِ الَّتِي قَطَعُوا سَفَائِنَهَا وَعَبَرَ النَّاسُ. وَكَانَ آخِرُ مَنْ قُتِلَ عِنْدَ الْجِسْرِ سَلِيطُ بْنُ قَيْسٍ وَعَبَرَ الْمُثَنَّى وَحَمَى جَانِبَهُ فَاضْطَرَبَ عَسْكَرُهُ وَرَامَهُمْ ذُو الْحَاجِبِ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِمْ. فَلَمَّا عَبَرَ الْمُثَنَّى وَحَمَى جَانِبَهُ ارْتَفَضَ عَنْهُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَبَقِيَ الْمُثَنَّى فِي قِلَّةٍ. كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ رَجُلٍ عَنْ أَبِي عُثْمَانَ النَّهْدِيِّ قَالَ: هَلَكَ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةُ أُلُوفٍ وَهَرَبَ أَلْفَانِ وَبَقِيَ ثَلَاثَةُ أُلُوفٍ

www.marefa.org

وَقْعَةُ ٱلْبُوَيْبِ

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ وَزِيَادٍ بِإِسْنَادِهِمْ قَالُوا: وَبَعَثَ ٱلْمُثَنَّى بَعْدَ ٱلْجِسْرِ فِيمَنْ يَلِيهِ مِنَ ٱلْمُهَذِّبِينَ فَتَوَافَوْا إِلَيْهِ فِي جَمْعٍ وَبَلَغَ رُسْتُمَ وَٱلْفِيرَزَانَ ذٰلِكَ وَأَتَتْهُمُ ٱلْعُيُونُ بِهِ وَبِمَا يَنْتَظِرُونَ مِنَ ٱلْإِمْدَادِ وَأَجْمَعَا عَلَى أَنْ يَبْعَثَا مِهْرَانَ ٱلْهَمَذَانِيَّ حَتَّى يَرَيَا مِنْ رَأْيِهَا. فَخَرَجَ مِهْرَانُ فِي ٱلْخُيُولِ وَأَمَرَاهُ بِٱلْجِدِّ وَبَلَغَ ٱلْمُثَنَّى ٱلْخَبَرُ وَهُوَ مُعَسْكِرٌ بِمَزْجِ ٱلسِّبَاخِ بَيْنَ ٱلْقَادِسِيَّةِ وَخُفَّانَ فِي ٱلَّذِينَ أَمَدَّهُمْ مِنَ ٱلْعَرَبِ عَنْ خَبَرِ بَشِيرٍ وَكِنَانَةَ وَبَشِيرٌ يَوْمَئِذٍ بِٱلْحِيرَةِ. فَٱسْتَبْطَنَ فُرَاتَ بَادَقْلَى وَأَرْسَلَ إِلَى جَرِيرٍ وَمَنْ مَعَهُ إِنَّا جَاءَنَا أَمْرٌ لَمْ نَسْتَطِعْ مَعَهُ ٱلْقِيَامَ حَتَّى تُقْدِمُوا عَلَيْنَا فَعَجِّلُوا ٱللَّحَاقَ بِنَا وَمَوْعِدُكُمُ ٱلْبُوَيْبُ وَكَانَ جَرِيرٌ مُمِدًّا لَهُ. وَكَتَبَ إِلَى عِصْمَةَ وَمَنْ مَعَهُ وَكَانَ مُمِدًّا لَهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَإِلَى كُلِّ فَائِتٍ أَظَلَّهُ بِمِثْلِ ذٰلِكَ وَخُذُوا عَلَى ٱلْجَوْفِ. فَسَلَكُوا عَلَى ٱلْقَادِسِيَّةِ وَٱلْجَوْفِ وَمَنْ سَلَكَ مَعَهُ طَرِيقَهُ فَٱنْتَهَوْا إِلَى ٱلْمُثَنَّى وَهُوَ عَلَى ٱلْبُوَيْبِ مِمَّا يَلِي وَضْعَ ٱلْكُوفَةِ ٱلْيَوْمَ وَعَلَيْهِمِ ٱلْمُثَنَّى وَهُوَ بِإِزَاءِ مِهْرَانَ وَعَسْكَرِهِ. فَقَالَ ٱلْأَخْنَسُ لِرَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلسَّوَادِ. مَا يُقَالُ لِهٰذِهِ ٱلرُّقْعَةِ ٱلَّتِي فِيهَا مِهْرَانُ وَعَسْكَرُهُ: قَالَ بُسُمْيَا. فَقَالَ أَكْذَى مِهْرَانُ وَهَلَكَ عَسْكَرُهُ نَزَلَ مَنْزِلًا هُوَ ٱلسُّوسُ. وَأَقَامَ بِمَكَانِهِ حَتَّى كَاتَبَهُ مِهْرَانُ إِمَّا أَنْ تَعْبُرُوا إِلَيْنَا وَإِمَّا أَنْ نَعْبُرَ إِلَيْكُمْ. فَقَالَ ٱلْمُثَنَّى: ٱعْبُرُوا فَعَبَرَ مِهْرَانُ فَنَزَلَ عَلَى شَاطِئِ ٱلْفُرَاتِ مَعَهُمْ فِي ٱلْمَلْطَاطِ. فَقَالَ ٱلْمُثَنَّى: كَذٰلِكَ لِلرَّجُلِ. مَا يُقَالُ لِهٰذِهِ ٱلرُّقْعَةِ ٱلَّتِي نَزَلَهَا مِهْرَانُ وَأَصْحَابُهُ وَعَسْكَرُهُ قَالَ شُومِيَا. وَذٰلِكَ فِي رَمَضَانَ. فَنَادَى فِي ٱلنَّاسِ ٱنْهَدُوا لِعَدُوِّكُمْ.

www.marefa.org

فَتَنَاهَدُوا وَقَدْ كَانَ الْمُثَنَّى عَبَّى الْجَيْشَ، فَجَعَلَ عَلَى مَجْنِبَتَيْهِ مَذْعُورًا وَالْمُسَيَّرَ وَعَلَى الْمُجَرَّدَةِ عَاصِمًا وَعَلَى الطَّلَائِعِ عِصْمَةَ وَأَصْطَفَّ الْفَرِيقَانِ وَقَامَ الْمُثَنَّى فِيهِمْ خَطِيبًا فَقَالَ: إِنَّكُمْ صُوَّامٌ وَالصَّوْمُ مَرَقَّةٌ وَمَضْعَفَةٌ وَإِنِّي أَرَى مِنَ الرَّأْيِ أَنْ تُفْطِرُوا. ثُمَّ قَوُّوا بِالطَّعَامِ عَلَى قِتَالِ عَدُوِّكُمْ: قَالُوا نَعَمْ: فَأَفْطَرُوا فَأَبْصَرَ رَجُلًا يَسْتَوْفِزُ وَيَسْتَقِلُّ مِنَ الصَّفِّ فَقَالَ: مَا بَالُ هَذَا: فَقَالُوا: مِمَّنْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ يَوْمَ الْجِسْرِ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَسْتَقِلَّ فَقَرَعَهُ بِالرُّمْحِ وَقَالَ: لَا أَبَا لَكَ الْزَمْ مَوْقِفَكَ فَإِذَا أَتَاكَ فِرْنُكَ فَأَغْنِ عَنْ صَاحِبِكَ وَلَا تَسْتَقِلَّ. قَالَ: إِنِّي بِذَلِكَ لَجَدِيرٌ فَاسْتَمَرَّ وَلَزِمَ الصَّفَّ. كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِي إِسْحَقَ الشَّيْبَانِيِّ مِثْلَهُ

كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ الْحَجَّ لَمَّا أُذِنَ لَهُمْ فِي الْعُبُورِ نَزَلُوا شُومِيًا مَوْضِعَ دَارِ الرِّزْقِ. فَتَعَبَّوْا لَمَّا جَاءُوا هُنَالِكَ. فَأَقْبَلُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي صُفُوفٍ ثَلَاثَةٍ مَعَ كُلِّ صَفٍّ فِيلٌ وَرَجْلُهُمْ أَمَامَ فِيلِهِمْ وَجَاءُوا هُمْ رَجُلٌ. فَقَالَ الْمُثَنَّى لِلْمُسْلِمِينَ: الَّذِي تَسْمَعُونَ فَشَرٌّ فَالْزَمُوا الصَّمْتَ وَأَضْمِرُوا بَيْنَكُمْ هَمْسًا. فَدَنَوْا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَجَاءُوهُمْ مِنْ قِبَلِ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمٍ نَحْوَ مَوْضِعِ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمٍ الْيَوْمَ. فَلَمَّا دَنَوْا زَحَفُوا وَصَفُّ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا بَيْنَ نَهْرِ بَنِي سُلَيْمٍ الْيَوْمَ وَمَا وَرَاءَهُ

كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ مُحَمَّدٍ وَطَلْحَةَ قَالَا وَكَانَ عَلَى مَجْنِبَتَيِ الْمُثَنَّى بَشِيرٌ وَبِشْرُ بْنُ أَبِي رُهْمٍ وَعَلَى مُجَرَّدَتِهِ الْمَعْقِلُ وَعَلَى الرَّجَّالَةِ مَسْعُودٌ وَعَلَى الطَّلَائِعِ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ الْمُسَيَّرُ وَعَلَى الرِّدْءِ مَذْعُورٌ وَكَانَ عَلَى مُجَنِّبَتَيْ مِهْرَانَ ابْنُ الْأَزَاذُبَهِ مَرْزُبَانُ الْجَمِيعِ وَمَرْدَانْشَاهْ. وَلَمَّا خَرَجَ

www.marefa.org

الْمُثَنَّى طَافَ فِي صُفُوفِهِ يَعْهَدُ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُ وَهُوَ عَلَى فَرَسِهِ الشَّمُوسِ وَكَانَ يُدْعَى الشَّمُوسَ مِنْ لَيْنِ عَرِيكَتِهِ وَلِنَهَارَتِهِ. فَكَانَ إِذَا رَكِبَهُ قَاتَلَ وَكَانَ لَا يَرْكَبُهُ إِلَّا لِقِتَالٍ يُوَدِّعُهُ مَا لَمْ يَكُنْ قِتَالٌ. فَوَقَفَ عَلَى الرَّايَاتِ رَايَةً رَايَةً يَحُضُّهُمْ وَيَأْمُرُهُمْ بِأَمْرِهِ وَيَهْزُمُهُمْ بِمَا فِيهِمْ مُحَضِّضًا لَهُمْ وَلِكُلِّهِمْ يَقُولُ: إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ لَا تُؤْتَى الْعَرَبُ مِنْ قِبَلِكُمُ الْيَوْمَ. وَاللَّهِ مَا يَسُرُّنِي الْيَوْمَ لِنَفْسِي شَيْءٌ إِلَّا وَهُوَ يَسُرُّنِي لِعَامَّتِكُمْ. فَيُجِيبُونَهُ بِمِثْلِ ذَلِكَ. وَأَنْصَفَهُمُ الْمُثَنَّى فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ وَخَلَطَ النَّاسَ فِي الْمَكْرُوهِ وَالْمَحْبُوبِ. فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَعِيبَ لَهُ قَوْلًا وَلَا عَمَلًا. ثُمَّ قَالَ: إِنِّي مُكَبِّرٌ ثَلَاثًا فَهَيِّئُوا ثُمَّ احْمِلُوا مَعَ الرَّابِعَةِ. فَلَمَّا كَبَّرَ أَوَّلَ تَكْبِيرَةٍ رَكَدَتْ خَيْلُهُمْ وَحَزَبَهُمْ مَلِيًّا. فَلَمَّا رَأَى الْمُثَنَّى خَلَلًا فِي بَعْضِ صُفُوفِهِ أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ رَجُلًا وَقَالَ: إِنَّ الْأَمِيرَ يُقْرِئُكُمُ السَّلَامَ وَيَقُولُ: لَا تَفْضَحُوا الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ. فَقَالُوا نَعَمْ: وَاعْتَدَلُوا وَجَعَلُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَرْوُونَهُ وَهُوَ يَمُدُّ لِحْيَتَهُ إِلَى بَرَّةٍ مِنْهُمْ فَأَعْنَوْا بِأَمْرٍ لَمْ يُعْنَ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ فَرَمَقُوهُ فَرَأَوْهُ يَضْحَكُ فَرَحًا وَالْقَوْمُ بَيْنَ عَجَلٍ وَمَا وَرَاءَهَا

فَلَمَّا طَالَ الْقِتَالُ وَاشْتَدَّ عَمَدَ الْمُثَنَّى إِلَى أَنَسِ بْنِ هِلَالٍ فَقَالَ: يَا أَنَسُ إِنَّكَ امْرُؤٌ عَرَبِيٌّ وَإِنْ لَمْ تَكُ عَلَى دِينِنَا. فَإِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ حَمَلْتُ عَلَى مِهْرَانَ فَاحْمِلْ مَعِي: وَقَالَ لِابْنَيْ ذِي السَّهْمَيْنِ مِثْلَ ذَلِكَ فَأَجَابَاهُ. فَحَمَلَ الْمُثَنَّى عَلَى مِهْرَانَ فَأَزَالَهُ حَتَّى دَخَلَ فِي مَيْمَنَتِهِ. ثُمَّ خَالَطَهُمْ فَاجْتَمَعَ الْقِلْبَانِ وَارْتَفَعَ الْغُبَارُ وَالْعَجَاجَاتُ نُقِلَ لَا يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْرُغُوا لِنَصْرِ أَمِيرِهِمْ لَا الْمُشْرِكُونَ وَلَا الْمُسْلِمُونَ. وَأَرَثَّ مَسْعُودٌ يَوْمَئِذٍ وَفُؤَادٌ بْنَ فُؤَادٍ

www.marefa.org

ٱلْمُسْلِمِينَ وَقَدْ كَانَ قَالَ لَهُمْ: إِذَا رَأَيْتُمُونَا أَصَبْنَا فَلَا تَدَعُوا مَا أَنْتُمْ فِيهِ فَإِنَّ أَحَدَ ٱلْجَيْشَيْنِ يَنْكَشِفُ ثُمَّ يَنْصَرِفُ وَأَغْنُوا عَنَّا مَنْ يَلِيكُمْ: وَأَوْجَعَ قَلْبُ ٱلْمُسْلِمِينَ فِي قَلْبِ ٱلْمُشْرِكِينَ وَقَتَلَ غُلَامٌ مِنَ ٱلْقَعْقَاعِيِّينَ نَصْرَانِيًّا مِهْرَانَ فَٱسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ. فَجَعَلَ ٱلْمُثَنَّى سَلَبَهُ لِصَاحِبِ خَيْلِهِ. وَكَذَلِكَ إِذَا كَانَ ٱلْمُشْرِكُ فِي خَيْلِ رَجُلٍ فَقَتَلَ وَسَلَبَ فَهُوَ لِلَّذِي هُوَ أَمِيرٌ عَلَى مَنْ قَتَلَهُ وَكَانَ لَهُمْ قَائِدَانِ أَحَدُهُمَا جَرِيرٌ وَٱلْآخَرُ ٱبْنُ ٱلْهَوْبَرِ فَأَفْقَدَهُمَا

كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عُبَيْدِ ٱللَّهِ بْنِ مَحْذَرِ بْنِ ثَعْلَبَةَ قَالَ: جَلَبَ فِئَةٌ مِنْ بَنِي تَغْلِبَ أَفْرَاسًا. فَلَمَّا ٱلْتَقَى ٱلزَّحْفَانِ يَوْمَ ٱلْبُوَيْبِ قَالُوا: لَا نُقَاتِلُ ٱلْعَرَبَ مَعَ ٱلْعَجَمِ فَأَصَابَ أَحَدُهُمْ مِهْرَانَ يَوْمَئِذٍ وَمَهَدَ عَلَى فَرَسٍ لَهُ وَرْدٍ مُجَفَّفٍ بِجِفَافٍ أَصْفَرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ هِلَالٌ وَعَلَى ذَنَبِهِ أَهِلَّةٌ فَٱسْتَوَى عَلَى فَرَسِهِ ثُمَّ أَنَّثَ فَقَالَ: أَنَا ٱلْغُلَامُ ٱلْقَعْقَاعِيُّ أَنَا قَتَلْتُ ٱلْمَرْزُبَانَ: فَأَتَاهُ جَرِيرٌ وَٱبْنُ ٱلْهَوْبَرِ فِي قَوْمِهِمَا فَأَخَذَا بِرِجْلِهِ فَأَنْزَلَاهُ. كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ ٱلْمَرْزُبَانِ أَنَّ جَرِيرًا وَٱلْمُنْذِرَ ٱشْتَرَكَا فِيهِ فَٱخْتَصَمَا فِي سِلَاحِهِ فَتَقَاضَيَا إِلَى ٱلْمُثَنَّى. فَجَعَلَ سِلَاحَهُ بَيْنَهُمَا وَٱلْمِنْطَقَةَ وَٱلسِّوَارَيْنِ بَيْنَهُمَا وَأَفْنَوْا قَلْبَ ٱلْمُشْرِكِينَ. كَتَبَ إِلَيَّ ٱلسَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ أَبِي رَوْقٍ قَالَ: وَٱللَّهِ إِنْ كُنَّا لَنَأْتِي ٱلْبُوَيْبَ فَنَرَى فِيمَا بَيْنَ مَوْضِعِ ٱلسُّكُونِ وَبَنِي سُلَيْمٍ عِظَامًا بِيضًا تَلُوحُ مِنْ هَامِيمَ وَأَوْصَالِهِمْ يُعْتَبَرُ بِهَا. قَالَ وَحَدَّثَنِي بَعْضُ مَنْ شَهِدَهَا أَنَّهُمْ كَانُوا يَجْزُرُونَهَا بِمِائَةِ أَلْفٍ فَقِيلَ مِنَ ٱلْعَجَمِ وَمَا عُفِيَ عَلَيْهَا حَتَّى دَفَنَهَا أَذْفَانُ ٱلسُّيُولِ

www.marefa.org

كَتَبَ إِلَيَّ السَّرِيُّ عَنْ شُعَيْبٍ عَنْ سَيْفٍ عَنْ عَطِيَّةَ بْنِ الْحَرِثِ قَالَ: لَمَّا أَهْلَكَ اللهُ مِهْرَانَ اسْتَمْكَنَ الْمُسْلِمُونَ مِنَ الْغَارَةِ عَلَى السَّوَادِ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دِجْلَةَ فَحَفَرُوهَا لَا يَخَافُونَ كَيْدًا وَلَا يَلْقَوْنَ فِيهِ مَانِعًا. وَانْتَفَضَتْ سَنَابِكُ الْعَجَمِ فَوَجَمَتْ إِلَيْهِمْ وَاعْتَصَمُوا بِسَابَاطَ وَسَرَّهُمْ أَنْ يَتْرُكُوا مَا وَرَاءَ دِجْلَةَ. فَكَانَتْ وَقْعَةُ الْبُوَيْبِ فِي رَمَضَانَ سَنَةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ قَتَلَ اللهُ مِهْرَانَ وَجَيْشَهُ وَأَفْعَمُوا جَنَبَتَيِ الْبُوَيْبِ عِظَامًا حَتَّى اسْتَوَى وَمَا عَفَّى عَلَيْهَا التُّرَابُ أَزْمَانَ الْفِتْنَةِ وَمَا يُثَارُ هُنَالِكَ شَيْءٌ إِلَّا وَقَعُوا مِنْهَا عَلَى مِئِينَ. وَهُوَ مَا بَيْنَ الْكُوفَةِ وَمَرْهَبَةَ وَبَنِي سُلَيْمٍ وَكَانَ مَغِيضًا لِلْفُرَاتِ أَزْمَانَ الْأَكَاسِرَةِ يَصُبُّ فِي الْجَوْفِ. وَقَالَ الْأَعْوَرُ الْعَبْدِيُّ الشَّيْبَانِيُّ

هَاجَتْ لِأَعْوَرَ دَارُ أَنْحَى إِحْنَانَا ... وَاسْتَبْدَلَتْ بَعْدَ عَبْدِ الْقَيْسِ خَتْنَانَا

وَقَدْ أَرَانَا بِهَا وَالشَّمْلُ مُجْتَمِعٌ ... إِذْ بِالْحَيَاةِ فَتَلْنَا جُنْدَ مِهْرَانَا

أَزْمَانَ سَارَ الْمُثَنَّى بِالْخُيُولِ لَهُمْ ... فَقَتَّلَ الزَّحْفَ مِنْ فُرْسٍ وَخَيَّلَانَا

مَا لِمِهْرَانَ وَالْجَيْشِ الَّذِي مَعَهُ ... حَتَّى أَبَادَهُمُ مُثَنًّى وَرُوحُدَانَا

www.marefa.org

نخبة

من كتاب الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية

ذكر خلافة هرون الرشيد[1]

بويع بالخلافة في سنة ستين ومئة. كان الرشيد من أفاضل الخلفاء وصلحائهم وعلمائهم وكرمائهم. كان يحج سنة ويغزو سنة. كذلك مدة خلافته إلا سنين قليلة. قالوا: وكان يصلي في كل يوم مئة ركعة. وحج ماشيا. ولم يحج خليفة ماشيا غيره. وكان إذا حج حج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم. وإذا لم يحج أحج فلانة رجل بالنفقة السابغة. والكسوة الفاخرة. وكان يتشبه في أفعاله بالمنصور إلا في بذل المال. فإنه لم ير خليفة أسمح منه بالمال. وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر. وكان يحب الشعر والشعراء ويميل إلى أهل الأدب والفقه. ويكره

---

[1] اما هرون الرشيد احد خلفاء العباسيين. فقد ولد في سنة ٧٦٥ في ري من بلاد وتوفي في سنة ٨٠٩ في طوس. وقد اشتهر هذا الخليفة بحروبه جيوش الملكة ايريني في اسيا الصغرى لما اقام مقام اخيه موسى الهادي على السنة الملوكية في سنة ٧٨٦. فشق على موسى فلاي اخيه هارون فقصد قتله. فلما رات والدتهما ان لا بد من قتل احد ولديها اختارت موت موسى على هارون الذي رفع شان دولة العباسيين الى اعلى ذرى العظمة والمجد. فمع انتصارات الشهيرة في اسيا وحاربه مرارًا ايريني وبكفوره الى ان اجبرها على اداء الجزية وانسحبت املاكه حتى المغرب. ونحالف مع كارلوس الكبير ملك فرنسا. وما امتاز به هذا الخامة حسن اعتنائه الى العلوم والصنائع فازهرت في ايام دولته. فحط العلماء والادباء عصا الترحال عند باب. غير انه كثيرًا ما ابدى من القساوة المكية لاسيما ضد البرامكة الذين كان اتخذ حاروا. ولؤ انعامه

www.marefa.org

ٱلْمُرَاءَ فِي ٱلدِّينِ. وَكَانَ يُحِبُّ ٱلْمَدِيحَ لَا سِيَّمَا مِنْ شَاعِرٍ فَصِيحٍ، وَيُجْزِلُ ٱلْعَطَاءَ عَلَيْهِ

قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: صَنَعَ ٱلرَّشِيدُ طَعَامًا وَزَخْرَفَ مَجَالِسَهُ وَأَحْضَرَ أَبَا ٱلْعَتَاهِيَةِ وَقَالَ لَهُ: صِفْ لَنَا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ نَعِيمِ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا. فَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ:

عِشْ مَا بَدَا لَكَ سَالِمًا ... فِي ظِلِّ شَاهِقَةِ ٱلْقُصُورِ

فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ: أَحْسَنْتَ ثُمَّ مَاذَا؟ فَقَالَ:

يُسْعَى عَلَيْكَ بِمَا ٱشْتَهَيْتَ ... لَدَى ٱلرَّوَاحِ أَوِ ٱلْبُكُورِ

فَقَالَ: حَسَنٌ ثُمَّ مَاذَا؟ فَقَالَ:

فَإِذَا ٱلنُّفُوسُ تَقَعْقَعَتْ ... فِي ظِلِّ حَشْرَجَةِ ٱلصُّدُورِ

فَهُنَالِكَ تَعْلَمُ مُوقِنًا ... مَا كُنْتَ إِلَّا فِي غُرُورِ

فَبَكَى ٱلرَّشِيدُ. فَقَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى: بَعَثَ إِلَيْكَ أَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِتُسَرَّ فَحَزَنْتَهُ؟ فَقَالَ ٱلرَّشِيدُ: دَعْهُ فَإِنَّهُ رَآنَا فِي عَمًى فَكَرِهَ أَنْ يَزِيدَنَا مِنْهُ

وَكَانَ ٱلرَّشِيدُ يَتَوَاضَعُ لِلْعُلَمَاءِ. قَالَ أَبُو مُعَوِيَةَ ٱلضَّرِيرُ: وَكَانَ مِنْ عُلَمَاءِ ٱلنَّاسِ. أَكَلْتُ مَعَ ٱلرَّشِيدِ يَوْمًا. فَصَبَّ عَلَى يَدَيَّ ٱلْمَاءَ رَجُلٌ فَقَالَ لِي: يَا أَبَا مُعَوِيَةَ. أَتَدْرِي مَنْ صَبَّ ٱلْمَاءَ عَلَى يَدِكَ؟ فَقُلْتُ لَا يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ. قَالَ أَنَا. فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنْتَ تَفْعَلُ هٰذَا إِجْلَالًا لِلْعِلْمِ. قَالَ نَعَمْ

فِي أَيَّامِهِ خَرَجَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ حَسَنِ بْنِ حَسَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ. شَرْحُ كَيْفِيَّةِ ٱلْحَالِ فِي ذٰلِكَ

www.marefa.org

كَانَ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ اللهِ قَدْ خَافَ مِمَّا جَرَى عَلَى أَخَوَيْهِ النَّفْسِ الزَّكِيَّةِ وَإِبْرَاهِيمَ قَتِيلِ بَاخَمْرِي. فَمَضَى إِلَى الدَّيْلَمِ. فَاعْتَقَدُوا فِيهِ اسْتِحْقَاقَ الْإِمَامَةِ وَبَايَعُوهُ وَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنَ الْأَمْصَارِ وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ. فَاهْتَمَّ الرَّشِيدُ لِذَلِكَ. وَنَدَبَ إِلَيْهِ الْفَضْلَ بْنَ يَحْيَى فِي خَمْسِينَ أَلْفًا وَوَلَّاهُ جُرْجَانَ وَطَبَرِسْتَانَ وَالرَّيَّ وَغَيْرَ ذَلِكَ. فَتَوَجَّهَ الْفَضْلُ بِالْجُنُودِ. فَلَطَفَ بِيَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللهِ وَحَذَّرَهُ وَخَوَّفَهُ وَرَغَّبَهُ. فَمَالَ يَحْيَى إِلَى الصُّلْحِ وَطَلَبَ أَمَانًا بِخَطِّ الرَّشِيدِ وَأَنْ يُشْهِدَ عَلَيْهِ فِيهِ الْقُضَاةَ وَالْفُقَهَاءَ وَجِلَّةَ بَنِي هَاشِمٍ. فَأَجَابَهُ الرَّشِيدُ إِلَى ذَلِكَ وَسَرَّ بِهِ وَكَتَبَ لَهُ أَمَانًا بِلَيْغًا بِخَطِّهِ. وَشَهِدَ عَلَيْهِ فِيهِ الْقُضَاةُ وَالْفُقَهَاءُ وَمَشَايِخُ بَنِي هَاشِمٍ وَسَيَّرَ الْأَمَانَ مَعَ هَدَايَا وَتُحَفٍ. فَقَدِمَ يَحْيَى مَعَ الْفَضْلِ. فَلَبَّاهُ الرَّشِيدُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ بِكُلِّ مَا أَحَبَّ. ثُمَّ حَبَسَهُ عِنْدَهُ وَاسْتَفْتَى الْفُقَهَاءَ فِي نَقْضِ الْأَمَانِ. فَمِنْهُمْ مَنْ أَفْتَى بِصِحَّتِهِ فَحَاجَّهُ. وَمِنْهُمْ مَنْ أَفْتَى بِبُطْلَانِهِ فَأَبْطَلَهُ. ثُمَّ قَتَلَهُ بَعْدَ ظُهُورِ آيَةٍ لَهُ عَظِيمَةٍ

شَرْحُ الْآيَةِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي قَضِيَّةِ يَحْيَى بْنِ عَبْدِ اللهِ

حَضَرَ رَجُلٌ مِنْ آلِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ عِنْدَ الرَّشِيدِ وَسَعَى بِيَحْيَى وَقَالَ: إِنَّهُ بَعْدَ الْأَمَانِ فَعَلَ وَصَنَعَ وَدَعَا النَّاسَ إِلَى نَفْسِهِ. فَأَحْضَرَهُ الرَّشِيدُ مِنْ مَحْبِسِهِ وَجَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الزُّبَيْرِيِّ. وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ فَأَنْكَرَ. فَوَاقَفَهُ الزُّبَيْرِيُّ فَقَالَ لَهُ يَحْيَى: إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فَاحْلِفْ: فَقَالَ الزُّبَيْرِيُّ: وَاللهِ الطَّالِبِ الْغَالِبِ وَأَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الْيَمِينَ: فَقَالَ لَهُ يَحْيَى: دَعْ هَذِهِ الْيَمِينَ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا عَجَّلَهَ الْعَبْدُ لَمْ يُعَجِّلْ عُقُوبَتَهُ. وَلَكِنِ احْلِفْ لِي بِيَمِينِ الْبَرَاءَةِ. وَفِي يَمِينٍ عُظْمَى صُورَتُهَا أَنْ يَقُولَ عَنْ نَفْسِهِ: بَرِيءٌ مِنْ حَوْلِ

www.marefa.org

ٱللهِ وَقُوَّتِهِ . وَدَخَلَ فِي حَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهَا إِنْ كَانَ كَذَا وَكَذَا : فَلَمَّا سَمِعَ ٱلزُّبَيْرِيُّ هٰذِهِ ٱلْيَمِينَ ٱرْتَاعَ لَهَا وَقَالَ : مَا هٰذِهِ ٱلْيَمِينُ ٱلْغَرِيبَةُ وَٱمْتَنَعَ مِنَ ٱلْحَلِفِ بِهَا : فَقَالَ لَهُ ٱلرَّشِيدُ : مَا مَعْنَى ٱمْتِنَاعِكَ . إِنْ كُنْتَ صَادِقًا فِيمَا تَقُولُ فَأَيُّ خَوْفٍ لَكَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْيَمِينِ : ٱحْلِفْ بِهَا . فَأَخْرَجَ مِنَ ٱلْمَجْلِسِ حَتَّى ضَرَبَ بِرِجْلِهِ وَمَاتَ . وَقِيلَ مَا ٱنْقَضَى ٱلنَّهَارُ حَتَّى مَاتَ . فَحَمَلُوهُ إِلَى ٱلْقَبْرِ وَحَطُّوهُ فِيهِ وَأَرَادُوا أَنْ يَطُمُّوا ٱلْقَبْرَ بِٱلتُّرَابِ . فَكَانُوا كُلَّمَا جَمَعُوا ٱلتُّرَابَ فِيهِ ذَهَبَ ٱلتُّرَابُ وَلَا يَنْطَمُّ ٱلْقَبْرُ فَعَلِمُوا أَنَّهَا آيَةٌ سَمَاوِيَّةٌ . فَسَقَفُوا ٱلْقَبْرَ وَرَاحُوا . وَإِلَى ذٰلِكَ أَشَارَ أَبُو فِرَاسِ بْنُ حَمْدَانَ فِي مِيمِيَّتِهِ بِقَوْلِهِ :

يَا جَاهِدًا فِي مَسَاوِيهِمْ يُكَتِّمُهَا ... غَدْرُ ٱلرَّشِيدِ بِيَحْيَى كَيْفَ بَتَّكُمُ

ذَاقَ ٱلزُّبَيْرِيُّ غِبَّ ٱلْخَتْرِ وَٱنْكَشَفَتْ ... عَنِ ٱبْنِ فَاطِمَةَ ٱلْأَقْوَالُ وَٱلتُّهَمُ

وَمَعَ ظُهُورِ مِثْلِ هٰذِهِ ٱلْآيَةِ ٱلْعَظِيمَةِ قُتِلَ يَحْيَى فِي ٱلْحَبْسِ شَرَّ قِتْلَةٍ

وَكَانَتْ دَوْلَةُ ٱلرَّشِيدِ مِنْ أَحْسَنِ ٱلدُّوَلِ وَأَكْثَرِهَا وَقَارًا وَرَوْنَقًا وَخَيْرًا وَأَوْسَعِهَا رُقْعَةَ مَمْلَكَةٍ . جَبَى ٱلرَّشِيدُ مُعْظَمَ ٱلدُّنْيَا . وَكَانَ أَحَدَ ٱلْأَجْوَادِ صَاحِبَ مِصْرَ . وَلَمْ يَنْسَحْ عَلَى بَابِ خَلِيفَةٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلشُّعَرَاءِ وَٱلْفُقَهَاءِ وَٱلْقُرَّاءِ وَٱلْقُضَاةِ وَٱلْكُتَّابِ وَٱلنُّدَمَاءِ وَٱلْمُغَنِّينَ مَا ٱجْتَمَعَ عَلَى بَابِ ٱلرَّشِيدِ . وَكَانَ يَصِلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ أَجْزَلَ صِلَةٍ وَيَرْفَعُهُ إِلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ . وَكَانَ فَاضِلًا شَاعِرًا رَاوِيَةً لِلْأَخْبَارِ وَالْآثَارِ وَالْأَشْعَارِ . صَحِيحَ ٱلذَّوْقِ وَٱلتَّمْيِيزِ مَهِيبًا عِنْدَ ٱلْخَاصَّةِ وَٱلْعَامَّةِ . قَبَضَ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ . وَأَحْضَرَهُ فِي قُبَّةٍ إِلَى بَغْدَادَ . فَحَبَسَهُ بِدَارِ ٱلسِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ . ثُمَّ قُتِلَ وَظَهَرَ أَنَّهُ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ

www.marefa.org

شَرْحُ كَيْفِيَّةِ الْحَالِ فِي ذَلِكَ. كَانَ بَعْضُ حُسَّادِ مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ مِنْ أَقَارِبِهِ قَدْ وَشَى بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ النَّاسَ يَحْمِلُونَ إِلَى مُوسَى خُمُسَ أَمْوَالِهِمْ وَيَعْتَقِدُونَ إِمَامَتَهُ وَإِنَّهُ عَلَى عَزْمِ الْخُرُوجِ عَلَيْكَ. وَأَكْثَرَ فِي الْقَوْلِ فَوَقَعَ ذَلِكَ عِنْدَ الرَّشِيدِ بِمَوْقِعٍ أَهَمَّهُ وَأَقْلَقَهُ. ثُمَّ أَعْطَى الْوَاشِيَ مَالًا أَحَالَهُ بِهِ عَلَى الْبِلَادِ. فَلَمْ يَسْتَمْتِعْ بِهِ وَمَا وَصَلَ الْمَالُ مِنَ الْبِلَادِ إِلَّا وَقَدْ مَرِضَ مَرَضَةً شَدِيدَةً وَمَاتَ فِيهَا. وَأَمَّا الرَّشِيدُ فَإِنَّهُ حَجَّ فِي تِلْكَ السَّنَةِ. فَلَمَّا وَرَدَ الْمَدِينَةَ قَبَضَ عَلَى مُوسَى بْنِ جَعْفَرٍ وَحَمَلَهُ فِي قُبَّةٍ إِلَى بَغْدَادَ. فَحَبَسَهُ عِنْدَ السِّنْدِيِّ بْنِ شَاهَكَ وَكَانَ الرَّشِيدُ بِالرَّقَّةِ. فَأَمَرَ بِقَتْلِهِ فَقُتِلَ قَتْلًا خَفِيًّا. ثُمَّ أَدْخَلُوا عَلَيْهِ جَمَاعَةً مِنَ الْعُدُولِ بِالْكَرْخِ لِيُشَاهِدُوهُ إِظْهَارًا أَنَّهُ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ. صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ. وَمَاتَ الرَّشِيدُ بِطُوسَ. وَكَانَ خَرَجَ إِلَى خُرَاسَانَ لِمُحَارَبَةِ رَافِعِ بْنِ اللَّيْثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ سَيَّارٍ. وَكَانَ هَذَا رَافِعٌ قَدْ خَرَجَ وَخَلَعَ الطَّاعَةَ وَتَغَلَّبَ عَلَى سَمَرْقَنْدَ وَقَتَلَ عَامِلَهَا وَمَلَكَهَا وَقَوِيَتْ شَوْكَتُهُ فَخَرَجَ الرَّشِيدُ بِنَفْسِهِ إِلَيْهِ. فَمَاتَ بِطُوسَ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَتِسْعِينَ وَمِئَةٍ

شَرْحُ حَالِ الْوِزَارَةِ فِي أَيَّامِهِ

لَمَّا بُوِيعَ بِالْخِلَافَةِ اسْتَوْزَرَ كَاتِبَهُ قَبْلَ الْخِلَافَةِ يَحْيَى بْنَ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ وَظَهَرَتْ دَوْلَةُ بَنِي بَرْمَكَ مُذْ حِينَئِذٍ

شَرْحُ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ الْبَرْمَكِيَّةِ وَذِكْرُ مَبْدَإِهَا وَمَآلِهَا. كَانُوا قَدِيمًا عَلَى دِينِ الْمَجُوسِ. ثُمَّ أَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ وَحَسُنَ إِسْلَامُهُمْ. وَهَذِهِ الدَّوْلَةُ الْبَرْمَكِيَّةُ كَانَتْ غُرَّةً فِي جَبْهَةِ الدَّهْرِ وَتَاجًا عَلَى مَفْرِقِ الْعَصْرِ. ضُرِبَتْ

www.marefa.org

بِمَكَارِمِهَا ٱلْأَمْثَالُ. وَشُدَّتْ إِلَيْهَا ٱلرِّحَالُ. وَنَبَطَتْ بِهَا ٱلْآمَالُ. وَذَلَّتْ لَهَا ٱلدُّنْيَا أَفْلَاذَ أَكْبَادِهَا. وَمَخَّتْهَا أَوْفَرَ إِسْعَادِهَا. فَكَانَ يَحْيَى وَبَنُوهُ كَالنُّجُومِ زَاهِرَةً وَٱلْبُحُورِ زَاخِرَةً وَٱلسُّيُولِ دَافِعَةً. وَٱلْغُيُوثِ مَاطِرَةً أَسْوَاقُ ٱلْآدَابِ عِنْدَهُمْ نَافِقَةٌ. وَمَرَاتِبُ ذَوِي ٱلْحُرُمَاتِ عِنْدَهُمْ عَالِيَةٌ. وَٱلدُّنْيَا فِي أَيَّامِهِمْ عَامِرَةٌ. وَأَبْهَةُ ٱلْمَمْلَكَةِ ظَاهِرَةٌ. وَهُمْ مَلْجَأُ ٱللَّهِيفِ وَمُعْتَصَمُ ٱلطَّرِيدِ. وَلَهُمْ يَقُولُ أَبُو نُوَاسٍ:

سَلَامٌ عَلَى ٱلدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمُ ... بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِ

ذِكْرُ وِزَارَةِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ لِلرَّشِيدِ. لَمَّا جَلَسَ ٱلرَّشِيدُ عَلَى سَرِيرِ ٱلْمَمْلَكَةِ ٱسْتَوْزَرَ يَحْيَى بْنَ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ. وَكَانَ كَاتِبَهُ وَنَائِبَهُ وَوَزِيرَهُ قَبْلَ ٱلْخِلَافَةِ. فَنَهَضَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بِأَعْبَاءِ ٱلدَّوْلَةِ أَتَمَّ نُهُوضٍ. وَسَدَّ ٱلثُّغُورَ. وَتَدَارَكَ ٱلْخَلَلَ. وَجَبَى ٱلْأَمْوَالَ. وَعَمَرَ ٱلْأَطْرَافَ. وَأَظْهَرَ رَوْنَقَ ٱلْخِلَافَةِ. وَتَصَدَّى لِمُهِمَّاتِ ٱلْمَمْلَكَةِ. وَكَانَ كَاتِبًا بَلِيغًا لَبِيبًا أَدِيبًا شَدِيدًا صَائِبَ ٱلرَّأْيِ حَسَنَ ٱلتَّدْبِيرِ. ضَابِطًا لِمَا تَحْتَ يَدِهِ. قَوِيًّا عَلَى ٱلْأُمُورِ. جَوَادًا يُبَارِي ٱلرِّيحَ كَرَمًا وَجُودًا. مُمْدَحًا بِكُلِّ لِسَانٍ. حَلِيمًا عَفِيفًا وَقُورًا مَهِيبًا وَلَهُ يَقُولُ ٱلْقَائِلُ:

لَا تَرَانِي مُصَافِحًا كَفَّ يَحْيَى ... إِنَّنِي إِنْ فَعَلْتُ ضَيَّعْتُ مَالِي

لَوْ يَمَسُّ ٱلْبَخِيلُ رَاحَةَ يَحْيَى ... لَسَخَتْ نَفْسُهُ بِبَذْلِ ٱلنَّوَالِ

وَمِنْ آرَاءِ يَحْيَى ٱلسَّدِيدَةِ مَا قَالَهُ لِلْهَادِي. وَقَدْ عَزَمَ عَلَى أَنْ يَخْلَعَ أَخَاهُ هَرُونَ مِنَ ٱلْخِلَافَةِ وَيُبَايِعَ لِٱبْنِهِ جَعْفَرِ بْنِ ٱلْهَادِي. وَكَانَ يَحْيَى كَاتِبَ ٱلرَّشِيدِ وَهُوَ يَرْجُو أَنْ يَتَوَلَّى هَرُونُ ٱلْخِلَافَةَ فَيَصِيرَ هُوَ وَزِيرَ ٱلدَّوْلَةِ.

www.marefa.org

فَحَلَا الْهَادِي بِيَحْيَى وَوَهَبَ لَهُ عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ. وَحَادَثَهُ فِي خَلْعِ هَرُونَ أَخِيهِ وَالْمُبَايَعَةِ لِجَعْفَرٍ ابْنِهِ. فَقَالَ لَهُ يَحْيَى: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنْ فَعَلْتَ حَمَلْتَ النَّاسَ عَلَى نَكْثِ الْأَيْمَانِ وَنَقْضِ الْعُهُودِ. وَجَرَّأْتَ النَّاسَ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ. وَلَوْ تَرَكْتَ أَخَاكَ هَرُونَ عَلَى وِلَايَةِ الْمَهْدِ ثُمَّ بَايَعْتَ لِجَعْفَرٍ بَعْدَهُ كَانَ ذَلِكَ أَوْكَدَ فِي يَمِينِهِ: فَتَرَكَهُ الْهَادِي ذَلِكَ مُدَّةً. ثُمَّ غَلَبَ عَلَيْهِ حُبُّ الْوَلَدِ. فَأَحْضَرَ يَحْيَى مَرَّةً ثَانِيَةً وَفَاوَضَهُ فِي ذَلِكَ. فَقَالَ لَهُ يَحْيَى: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. لَوْ حَدَثَ بِكَ حَادِثُ الْمَوْتِ وَقَدْ خَلَعْتَ أَخَاكَ وَبَايَعْتَ لِابْنِكَ جَعْفَرٍ وَهُوَ صَغِيرٌ دُونَ الْبُلُوغِ. أَفَتَرَى كَانَتْ خِلَافَتُهُ تَصِحُّ. وَكَانَ مَشَايِخُ بَنِي هَاشِمٍ يَرْضَوْنَ ذَلِكَ وَيُسَلِّمُونَ الْخِلَافَةَ إِلَيْهِ: قَالَ لَا. قَالَ يَحْيَى: فَدَعْ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى تَأْتِيَهُ عَفْوًا. وَلَوْ لَمْ يَكُنِ الْمَهْدِيُّ بَايَعَ لِهَرُونَ لَوَجَبَ أَنْ تُبَايِعَ أَنْتَ لَهُ لِئَلَّا تَخْرُجَ الْخِلَافَةُ مِنْ بَنِي أَبِيكَ: فَصَوَّبَ الْهَادِي رَأْيَهُ. وَكَانَ الرَّشِيدُ بَعْدَ ذَلِكَ يَرَى هَذَا مِنْ أَعْظَمِ أَيَادِي يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ عِنْدَهُ

وَمِنْ مَكَارِمِهِ. قِيلَ إِنَّ الرَّشِيدَ لَمَّا نَكَبَ الْبَرَامِكَةَ وَاسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ. حَرَّمَ عَلَى الشُّعَرَاءِ أَنْ يَرْثُوهُمْ وَأَمَرَ بِالْمُؤَاخَذَةِ عَلَى ذَلِكَ. فَاجْتَازَ بَعْضُ الْحَرَسِ بِبَعْضِ الْخَرِبَاتِ. فَرَأَى إِنْسَانًا وَاقِفًا وَفِي يَدِهِ رُقْعَةٌ فِيهَا شِعْرٌ يَتَضَمَّنُ رِثَاءَ الْبَرَامِكَةِ وَهُوَ يُنْشِدُهُ وَيَبْكِي. فَأَخَذَهُ الْحَرَسُ وَأَتَى بِهِ إِلَى الرَّشِيدِ وَقَصَّ عَلَيْهِ الصُّورَةَ. فَاسْتَحْضَرَهُ الرَّشِيدُ وَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ. فَاعْتَرَفَ بِهِ. فَقَالَ لَهُ الرَّشِيدُ: أَمَا سَمِعْتَ تَحْرِيمِي لِرِثَائِهِمْ. لَأَفْعَلَنَّ بِكَ وَلَأَصْنَعَنَّ. فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنْ أَذِنْتَ لِي فِي حِكَايَةِ حَالِي حَكَيْتُهَا

www.marefa.org

ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْتَ وَرَأْيُكَ. قَالَ قُلْ. قَالَ: إِنِّي كُنْتُ مِنْ أَصْغَرِ كُتَّابِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ وَلَمْ أَرَ قَبْلَهُ حَالًا. فَقَالَ لِي يَوْمًا: أُرِيدُ أَنْ تُضِيفَنِي فِي دَارِكَ يَوْمًا فَقُلْتُ: يَا مَوْلَانَا أَنَا دُونَ ذٰلِكَ وَدَارِي لَا تَصْلُحُ لِهٰذَا. قَالَ: لَا بُدَّ مِنْ ذٰلِكَ. قُلْتُ: فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَأَمْهِلْنِي مُدَّةً حَتَّى أُصْلِحَ شَأْنِي وَمَنْزِلِي. ثُمَّ بَعْدَ ذٰلِكَ أَنْتَ وَرَأْيُكَ. قَالَ: كَمْ أُمْهِلُكَ. قُلْتُ سَنَةً. قَالَ كَثِيرٌ. قُلْتُ فَشَهْرًا. قَالَ نَعَمْ. فَمَضَيْتُ وَشَرَعْتُ فِي إِصْلَاحِ الْمَنْزِلِ وَتَهْيِئَةِ أَسْبَابِ الدَّعْوَةِ. فَلَمَّا تَهَيَّأَتِ الْأَسْبَابُ أَعْلَمْتُ الْوَزِيرَ بِذٰلِكَ فَقَالَ: نَحْنُ غَدًا عِنْدَكَ. فَمَضَيْتُ وَتَهَيَّأْتُ فِي الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ. فَحَضَرَ الْوَزِيرُ فِي غَدٍ وَمَعَهُ أَبْنَاهُ جَعْفَرٌ وَالْفَضْلُ وَعِدَّةٌ يَسِيرَةٌ مِنْ خَوَاصِّ أَتْبَاعِهِ. فَنَزَلَ عَنْ دَابَّتِهِ وَنَزَلَ وَلَدَاهُ جَعْفَرٌ وَالْفَضْلُ وَمَنْ مَعَهُ وَقَالَ: يَا فُلَانُ أَنَا جَائِعٌ فَعَجِّلْ لِي بِشَيْءٍ. فَقَالَ لِي الْفَضْلُ ابْنُهُ: الْوَزِيرُ يُحِبُّ الْفَرَارِيجَ الْمَشْوِيَّةَ. فَعَجِّلْ مِنْهَا مَا حَضَرَ. فَدَخَلْتُ وَأَحْضَرْتُ شَيْئًا. فَأَكَلَ الْوَزِيرُ ثُمَّ قَامَ يَتَمَشَّى فِي الدَّارِ وَقَالَ: يَا فُلَانُ فَرَّجْنَا فِي دَارِكَ. فَقُلْتُ: يَا مَوْلَانَا هٰذِهِ دَارِي لَيْسَ لِي غَيْرُهَا. قَالَ بَلَى لَكَ غَيْرُهَا. قُلْتُ وَاللّٰهِ مَا أَمْلِكُ سِوَاهَا. فَقَالَ: هَاتُوا بِنَّاءً. فَلَمَّا حَضَرَ قَالَ لَهُ: افْتَحْ فِي هٰذَا الْحَائِطِ بَابًا. فَمَضَى لِيَفْتَحَ. فَقُلْتُ: يَا مَوْلَانَا كَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُفْتَحَ بَابٌ إِلَى بُيُوتِ الْجِيرَانِ وَاللّٰهُ أَوْصَى بِحِفْظِ الْجَارِ. قَالَ: لَا بَأْسَ فِي ذٰلِكَ ثُمَّ فَتَحَ الْبَابَ. فَقَامَ الْوَزِيرُ وَأَتْبَاعُهُ فَدَخَلُوا فِيهِ وَأَنَا مَعَهُمْ فَخَرَجَ مِنْهُ إِلَى بُسْتَانٍ حَسَنٍ كَثِيرِ الْأَشْجَارِ وَالْمِيَاهِ يَتَدَفَّقُ فِيهِ وَيَزِيدُ مِنَ الْمَقَاصِيرِ وَالْمَسَاكِنِ مَا يَرُوقُ كُلَّ نَاظِرٍ. وَفِيهِ مِنَ الْآلَاتِ وَالْفُرُشِ وَالْخَدَمِ وَالْجَوَارِي كُلُّ جَمِيلٍ بَدِيعٍ فَقَالَ: هٰذَا الْمَنْزِلُ

www.marefa.org

وَجَمِيعُ مَا فِيهِ لَكَ . فَقَبَّلْتُ يَدَهُ وَدَعَوْتُ لَهُ وَخَتَمْتُ الْقِصَّةَ . فَإِذَا هُوَ مِنْ يَوْمِ حَادَثَنِي فِي مَعْنَى الدَّعْوَةِ . قَدْ أَرْسَلَ وَاشْتَرَى الْأَمْلَاكَ الْمُجَاوِرَةَ لِي . وَعَمَّرَهَا دَارًا حَسَنَةً وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَأَنَا لَا أَعْلَمُ وَكُنْتُ أَرَى الْعِمَارَةَ وَأَحْسِبُهَا لِبَعْضِ الْجِيرَانِ . فَقَالَ لِابْنِهِ جَعْفَرٍ : يَا بُنَيَّ هَذَا مَنْزِلٌ وَعِيَالٌ . فَالْمَادَّةُ مِنْ أَيْنَ تَكُونُ لَهُ . قَالَ جَعْفَرٌ : قَدْ أَعْطَيْتُهُ الضَّيْعَةَ الْفُلَانِيَّةَ بِمَا فِيهَا وَمَا كَتَبْتُ لَهُ بِذَلِكَ كِتَابًا . فَالْتَفَتَ إِلَى ابْنِهِ الْفَضْلِ وَقَالَ لَهُ : يَا بُنَيَّ . مِنَ الْآنَ إِلَى أَنْ يَدْخُلَ دَخْلُ هَذِهِ الضَّيْعَةِ مَا الَّذِي يُنْفِقُ . فَقَالَ الْفَضْلُ : عَلَيَّ عَشَرَةُ آلَافِ دِينَارٍ أَحْمِلُهَا إِلَيْهِ . فَقَالَ : فَعَجِّلْ لَهُ مَا قُلْتَ . فَكَتَبَ لِي جَعْفَرٌ بِالضَّيْعَةِ . وَحَمَلَ الْفَضْلُ إِلَيَّ الْمَالَ فَأَثْرَيْتُ وَارْتَفَعَتْ حَالِي وَكَسَبْتُ بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهُ مَالًا عَظِيمًا أَنَا أَتَقَلَّبُ فِيهِ إِلَى الْيَوْمِ . فَوَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَجِدُ فُرْصَةً أَتَمَكَّنُ فِيهَا مِنَ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَالدُّعَاءِ لَهُمْ إِلَّا أَنْتَهِزُهَا مُكَافَأَةً لَهُمْ عَلَى إِحْسَانِهِمْ وَلَنْ أَقْدِرَ عَلَى مُكَافَأَتِهِ . فَإِنْ كُنْتَ قَابِلًا عَلَى ذَلِكَ . فَافْعَلْ مَا بَدَا لَكَ . فَرَقَّ الرَّشِيدُ لِذَلِكَ وَأَطْلَقَهُ وَأَذِنَ لِجَمِيعِ النَّاسِ فِي رِثَائِهِمْ

قِيلَ إِنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ حَجَّ وَمَعَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ بْنِ بَرْمَكَ . وَمَعَهُ وَلَدَاهُ الْفَضْلُ وَجَعْفَرٌ . فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ جَلَسَ الرَّشِيدُ وَمَعَهُ يَحْيَى . فَأَعْطَيَا النَّاسَ . وَجَلَسَ الْأَمِينُ وَمَعَهُ الْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى فَأَعْطَيَا النَّاسَ . وَجَلَسَ الْمَأْمُونُ وَمَعَهُ جَعْفَرٌ فَأَعْطَيَا النَّاسَ . فَأَعْطَوْا فِي تِلْكَ السَّنَةِ ثَلَاثَ أَعْطِيَاتٍ ضُرِبَتْ بِكَثْرَتِهَا الْأَمْثَالُ . وَكَانُوا يُسَمُّونَهُ عَامَ الْأَعْطِيَاتِ الثَّلَاثِ وَأَنْتَ النَّاسُ بِسَبَبِ ذَلِكَ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الشَّاعِرُ

www.marefa.org

أَتَانَا بَنُو الْآمَالِ مِنْ آلِ بَرْمَكٍ ... فَيَا طِيبَ أَخْبَارٍ وَيَا حُسْنَ مَنْظَرِ
لَهُمْ رِحْلَةٌ فِي كُلِّ عَامٍ إِلَى الْعِدَا ... وَأُخْرَى إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ الْمُسَتَّرِ
إِذَا نَزَلُوا بَطْحَاءَ مَكَّةَ أَشْرَقَتْ ... بِيَحْيَى وَبِالْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَجَعْفَرِ
فَنَظْلِمُ بَغْدَادٌ وَيَجْلُو لَنَا الدُّجَى ... بِمَكَّةَ مَا تَنْفَكُّ ثَلَاثَةُ أَقْمُرِ
فَمَا خُلِقَتْ إِلَّا لِجُودِ أَكُفِّهِمْ ... وَأَقْدَامُهُمْ إِلَّا لِأَعْوَادِ مِنْبَرِ
إِذَا رَاضَ يَحْيَى الْأَمْرَ ذَلَّتْ صِعَابُهُ ... وَنَاهِيكَ مِنْ رَاعٍ لَهُ وَمُدَبِّرِ

كَانَ يَحْيَى يَقُولُ: مَا خَاطَبَنِي أَحَدٌ إِلَّا هِبْتُهُ، حَتَّى يَتَكَلَّمَ. فَإِذَا تَكَلَّمَ كَانَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ، إِمَّا أَنْ تَزِيدَ هَيْبَتُهُ أَوْ تَضْمَحِلَّ. وَكَانَ يَقُولُ: الْمَوَاعِيدُ شِبَاكُ الْكِرَامِ يَصِيدُونَ بِهَا مَحَامِدَ الْأَحْرَارِ. كَانَ يَحْيَى إِذَا رَكِبَ يُعِدُّ صُرَرًا فِي كُلِّ صُرَّةٍ مِئَتَا دِرْهَمٍ يَدْفَعُهَا إِلَى الْمُعْتَرِضِينَ لَهُ

سِيرَةُ وَلَدِهِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى

كَانَ الْفَضْلُ مِنْ كِرَامِ الدُّنْيَا وَأَجْوَادِ أَهْلِ عَصْرِهِ. وَكَانَ قَدْ أَرْضَعَتْهُ أُمُّ هَرُونَ الرَّشِيدِ. وَأَرْضَعَتْ أُمُّهُ الرَّشِيدَ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ مَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ

كَفَى لَكَ فَخْرًا أَنَّ أَكْرَمَ حُرَّةٍ ... غَذَّتْكَ بِثَدْيٍ وَالْخَلِيفَةَ وَاحِدِ
لَقَدْ زِنْتَ يَحْيَى فِي الْمَشَاهِدِ كُلِّهَا ... كَمَا زَانَ يَحْيَى خَالِدًا فِي الْمَشَاهِدِ

وَلَّاهُ الرَّشِيدُ خُرَاسَانَ. فَخَرَجَ إِلَيْهِ أَبُو الْهَوْلِ الشَّاعِرُ مَادِحًا مُعْتَذِرًا مِنْ شِعْرٍ كَانَ هَجَاهُ بِهِ فَأَنْشَدَهُ

مَرَى نَحْوَهُ مِنْ غَضْبَةِ الْفَضْلِ عَارِضٌ ... لَهُ لُجَّةٌ فِيهَا الْبَوَارِقُ وَالرَّعْدُ
وَكَيْفَ يَنَامُ اللَّيْلَ مُلْقِ فِرَاشَهُ ... عَلَى مَدْرَجٍ يَعْتَادُهُ الْأَسَدُ الْوَرْدُ

www.marefa.org

وَمَا لِي إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ مِنَ ٱلْجُرْمِ مَا يُحْفَى عَلَى مِثْلِهِ ٱلْجَهْدُ
فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ : لَا أَحْتَمِلُ تَقْرِيعَكَ بَيْنَ رِضَاءِ وَإِحْسَانِي. وَهُمَا مَقْرُونَانِ فَإِنْ أَرَدْتَهُمَا مَعًا وَإِلَّا فَدَعْهُمَا مَعًا . ثُمَّ وَصَلَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ

حَدَّثَ إِسْحٰقُ بْنُ إِبْرٰهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيُّ قَالَ : كُنْتُ قَدْ رَبَّيْتُ جَارِيَةً وَثَقَّفْتُهَا وَعَلَّمْتُهَا حَتَّى بَرَعَتْ . ثُمَّ أَهْدَيْتُهَا إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى . فَقَالَ لِي يَا إِسْحٰقُ . إِنَّ رَسُولَ صَاحِبِ مِصْرَ قَدْ وَرَدَ إِلَيَّ يَسْأَلُنِي حَاجَةً أَفْتَرِحُهَا عَلَيْهِ . فَدَعْ هٰذِهِ ٱلْجَارِيَةَ عِنْدَكَ فَإِنِّي سَأَطْلُبُهَا وَأُعْلِمُهُ ٱلَّذِي أُرِيدُهَا . فَإِنَّهُ سَوْفَ يَحْضُرُ إِلَيْكَ وَيُسَاوِمُكَ فِيهَا . فَلَا تَأْخُذْ فِيهَا أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ : قَالَ إِسْحٰقُ : فَمَضَيْتُ بِٱلْجَارِيَةِ إِلَى مَنْزِلِي . فَجَاءَنِي رَسُولُ صَاحِبِ مِصْرَ وَسَأَلَنِي عَنِ ٱلْجَارِيَةِ فَأَخْرَجْتُهَا إِلَيْهِ . فَبَذَلَ فِيهَا عَشَرَةَ آلَافِ دِينَارٍ فَٱمْتَنَعْتُ . فَصَعِدَ إِلَى عِشْرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ فَٱمْتَنَعْتُ . فَصَعِدَ إِلَى ثَلَاثِينَ أَلْفًا فَمَا مَلَكْتُ نَفْسِي حَتَّى قُلْتُ لَهُ بِعْتُكَ . وَسَلَّمْتُ ٱلْجَارِيَةَ إِلَيْهِ وَقَبَضْتُ مِنْهُ ٱلْمَالَ . ثُمَّ إِنِّي أَتَيْتُ مِنَ ٱلْغَدِ إِلَى ٱلْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فَقَالَ : يَا إِسْحٰقُ بِكَمْ بِعْتَ ٱلْجَارِيَةَ . قُلْتُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لَا تَأْخُذْ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا . قُلْتُ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي وَٱللّٰهِ مَا مَلَكْتُ نَفْسِي مُنْذُ سَمِعْتُ لَفْظَةَ ثَلَاثِينَ . فَتَبَسَّمَ ثُمَّ قَالَ : إِنَّ رَسُولَ صَاحِبِ ٱلرُّومِ قَدْ سَأَلَنِي أَيْضًا حَاجَةً وَسَأَفْتَرِحُ عَلَيْهِ هٰذِهِ ٱلْجَارِيَةَ وَأَدُلُّهُ عَلَيْكَ فَخُذْ جَارِيَتَكَ وَٱنْصَرِفْ إِلَى مَنْزِلِكَ . فَإِذَا سَاوَمَكَ فِيهَا فَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ

www.marefa.org

فَأَخَذْتُ الْجَارِيَةَ وَانْصَرَفْتُ إِلَى مَنْزِلِي. فَأَتَانِي رَسُولُ صَاحِبِ الرُّومِ وَسَاوَمَنِي فِي الْجَارِيَةِ. فَطَلَبْتُ خَمْسِينَ أَلْفًا فَقَالَ: هَذَا كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَأْخُذُ مِنِّي ثَلَاثِينَ أَلْفًا: فَوَاللهِ مَا مَلَكْتُ نَفْسِي مُنْذُ سَمِعْتُ لَفْظَةَ ثَلَاثِينَ أَلْفًا حَتَّى قُلْتُ لَهُ . بِعْتُكَ. ثُمَّ قَبَضْتُ الْمَالَ مِنْهُ وَسَلَّمْتُ الْجَارِيَةَ إِلَيْهِ. وَمَضَيْتُ مِنَ الْغَدِ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ وَبِكَمْ بِعْتَ الْجَارِيَةَ يَا إِسْحٰقُ. قُلْتُ بِثَلَاثِينَ أَلْفًا. قَالَ سُبْحَانَ اللهِ مَا أَوْصَيْتُكَ أَنْ لَا تَأْخُذَ فِيهَا أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا. قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ وَاللهِ إِنِّي لَمَّا سَمِعْتُ قَوْلَهُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا اسْتَرْخَتْ جَمِيعُ أَعْضَائِي. فَضَحِكَ وَقَالَ: خُذْ جَارِيَتَكَ وَاذْهَبْ إِلَى مَنْزِلِكَ. فَفِي غَدٍ يَجِيءُ إِلَيْكَ رَسُولُ صَاحِبِ خُرَاسَانَ. فَقَوِّ نَفْسَكَ وَلَا تَأْخُذْ مِنْهُ أَقَلَّ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفًا. قَالَ إِسْحٰقُ: فَأَخَذْتُ الْجَارِيَةَ وَمَضَيْتُ إِلَى مَنْزِلِي. فَجَاءَنِي رَسُولُ صَاحِبِ خُرَاسَانَ وَسَاوَمَنِي فِيهَا. فَطَلَبْتُ خَمْسِينَ أَلْفًا فَقَالَ لِي: هَذَا كَثِيرٌ وَلَكِنْ تَأْخُذُ ثَلَاثِينَ أَلْفًا. فَقَوَّيْتُ نَفْسِي وَامْتَنَعْتُ. فَصَعِدَ مَعِي إِلَى أَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ. فَكَادَ عَقْلِي يَذْهَبُ مِنَ الْفَرَحِ. وَلَمْ أَتَمَالَكْ أَنْ أَقُولَ لَهُ بِعْتُكَ: فَأَحْضَرَ الْمَالَ وَأَقْبَضَنِيهِ وَسَلَّمْتُ الْجَارِيَةَ إِلَيْهِ. وَمَضَيْتُ مِنَ الْغَدِ إِلَى الْفَضْلِ فَقَالَ لِي: بِكَمْ بِعْتَ الْجَارِيَةَ: قُلْتُ: بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا. وَاللهِ لَمَا سَمِعْتُهَا مِنْهُ كَادَ عَقْلِي يَذْهَبُ. وَقَدْ حَصَلَ عِنْدِي جُعِلْتُ فِدَاكَ مِئَةُ أَلْفِ دِينَارٍ. وَلَمْ يَبْقَ لِي أَمَلٌ. فَأَحْسَنَ اللهُ جَزَاءَكَ. فَأَمَرَ بِالْجَارِيَةِ فَأُخْرِجَتْ إِلَيَّ وَقَالَ: يَا إِسْحٰقُ خُذْ جَارِيَتَكَ وَانْصَرِفْ. قَالَ إِسْحٰقُ: فَقُلْتُ هٰذِهِ الْجَارِيَةُ وَاللهِ أَعْظَمُ النَّاسِ بَرَكَةً فَأَعْتَقْتُهَا وَتَزَوَّجْتُهَا فَوَلَدَتْ

www.marefa.org

لِي أَوْلَادِي

قِيلَ إِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الْإِمَامَ ابْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ ابْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ الْعَبَّاسِ حَضَرَ يَوْمًا عِنْدَ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى وَمَعَهُ سَفَطٌ فِيهِ جَوْهَرٌ وَقَالَ لَهُ: إِنَّ حَاصِلِي قَدْ قَصُرَ عَمَّا أَحْتَاجُ إِلَيْهِ. وَقَدْ عَلَانِي دَيْنٌ مَبْلَغُهُ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَإِنِّي أَسْتَحْيِي أَنْ أُعْلِمَ أَحَدًا بِذَلِكَ وَآنَفُ أَنْ أَسْأَلَ أَحَدًا مِنَ التُّجَّارِ أَنْ يُقْرِضَنِي ذَلِكَ. وَإِنْ كَانَ مَعِي رَهْنٌ يَفِي بِالْقِيمَةِ. وَأَنْتَ أَبْقَاكَ اللهُ لَكَ تُجَّارٌ يُعَامِلُونَكَ. وَأَنَا أَسْأَلُكَ أَنْ تَقْتَرِضَ لِي مِنْ أَحَدِهِمْ هَذَا الْمَبْلَغَ وَتُعْطِيَهُ هَذَا الرَّهْنَ: فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ: السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ وَلَكِنَّ نُجْحَ هَذِهِ الْحَاجَةِ أَنْ تُقِيمَ عِنْدِي هَذَا الْيَوْمَ. فَأَقَامَ عِنْدَهُ. ثُمَّ إِنَّ الْفَضْلَ أَخَذَ السَّفَطَ مِنْهُ وَهُوَ مَخْتُومٌ بِخَتْمِهِ. وَأَرْسَلَ مَعَهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ وَنَفَذَ الدَّرَاهِمَ وَالسَّفَطَ إِلَى مَنْزِلِهِ وَأَخَذَ خَطَّ وَكِيلِهِ بِقَبْضِهِ. فَأَقَامَ مُحَمَّدٌ فِي دَارِ الْفَضْلِ إِلَى آخِرِ النَّهَارِ. ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى دَارِهِ فَوَجَدَ السَّفَطَ وَمَعَهُ أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ. فَسُرَّ بِذَلِكَ سُرُورًا عَظِيمًا. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ بَكَّرَ إِلَى الْفَضْلِ لِيَشْكُرَهُ عَلَى ذَلِكَ. فَوَجَدَهُ قَدْ بَكَّرَ إِلَى دَارِ الرَّشِيدِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَى دَارِ الرَّشِيدِ. فَلَمَّا عَلِمَ الْفَضْلُ بِهِ خَرَجَ مِنْ بَابٍ آخَرَ وَمَضَى إِلَى دَارِ أَبِيهِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ. فَحِينَ عَلِمَ بِهِ خَرَجَ بِبَابٍ آخَرَ وَمَضَى إِلَى مَنْزِلِهِ. فَمَضَى مُحَمَّدٌ إِلَيْهِ وَاجْتَمَعَ بِهِ وَشَكَرَهُ عَلَى فِعْلِهِ وَقَالَ: إِنِّي بَكَّرْتُ إِلَيْكَ لِأَشْكُرَكَ عَلَى إِحْسَانِكَ: فَقَالَ لَهُ الْفَضْلُ: إِنِّي فَكَّرْتُ فِي أَمْرِكَ فَرَأَيْتُ إِنَّ هَذِهِ الْأَلْفَ أَلْفٍ الَّتِي حَمَلْتُهَا أَمْسِ إِلَيْكَ تَقْضِي بِهَا دَيْنَكَ. ثُمَّ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَتَقْتَرِضُ. فَبَعْدَ قَلِيلٍ يَعْلُوكَ مِثْلُهَا. فَفَكَّرْتُ الْيَوْمَ إِلَى

www.marefa.org

أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَالَكَ وَأَخَذْتُ لَكَ مِنْهُ أَلْفَ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُخْرَى. فَلَمَّا حَضَرْتَ إِلَى بَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ خَرَجْتُ أَنَا بِبَابٍ آخَرَ وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ لَمَّا حَضَرْتَ إِلَى بَابِ أَبِي لِأَنِّي مَا كُنْتُ أُوثِرُ أَنْ أَلْقَاكَ حَتَّى يَحْمِلَ الْمَالُ إِلَى مَنْزِلِكَ وَقَدْ حُمِلَ: فَقَالَ لَهُ مُحَمَّدٌ: بِأَيِّ شَيْءٍ أُجَازِيكَ عَلَى هَذَا الْإِحْسَانِ مَا عِنْدِي شَيْءٌ أُجَازِيكَ بِهِ إِلَّا أَنِّي أَلْتَزِمُ بِالْأَيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ وَبِالطَّلَاقِ وَالْعَتَاقِ وَالْحَجِّ أَنِّي مَا أَقِفُ عَلَى بَابِ غَيْرِكَ وَلَا أَسْأَلُ سِوَاكَ: قَالُوا. وَحَلَفَ مُحَمَّدٌ أَيْمَانًا مُؤَكَّدَةً وَكَتَبَ بِهَا خَطَّهُ وَأَشْهَدَ بِهِ عَلَيْهِ أَنَّهُ لَا يَقِفُ بِبَابِ غَيْرِ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى. فَلَمَّا ذَهَبَتْ دَوْلَةُ الْبَرَامِكَةِ وَتَوَلَّى الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ الْوِزَارَةَ بَعْدَهُمْ احْتَاجَ مُحَمَّدٌ فَقَالُوا لَهُ: لَوْ رَكِبْتَ إِلَى الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ ... فَلَمْ يَفْعَلْ وَالْتَزَمَ بِالْيَمِينِ فَلَمْ يَرْكَبْ إِلَى أَحَدٍ وَلَمْ يَقِفْ عَلَى بَابِ أَحَدٍ حَتَّى مَاتَ

سِيرَةُ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى الْبَرْمَكِيِّ

كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى فَصِيحًا لَبِيبًا ذَكِيًّا فَطِنًا كَرِيمًا حَلِيمًا. وَكَانَ الرَّشِيدُ يَأْنَسُ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ أُنْسِهِ بِأَخِيهِ الْفَضْلِ لِسُهُولَةِ أَخْلَاقِ جَعْفَرٍ وَشَرَاسَةِ أَخْلَاقِ الْفَضْلِ. قَالَ الرَّشِيدُ يَوْمًا لِيَحْيَى: بِأَبِي مَا بَالُ النَّاسِ يُسَمُّونَ الْفَضْلَ الْوَزِيرَ الصَّغِيرَ وَلَا يُسَمُّونَ جَعْفَرًا بِذَلِكَ: فَقَالَ يَحْيَى لِأَنَّ الْفَضْلَ يَخْلُفُنِي. قَالَ: فَضُمَّ إِلَى جَعْفَرٍ أَعْمَالًا كَأَعْمَالِ الْفَضْلِ. فَقَالَ يَحْيَى: إِنَّ خِدْمَتَكَ وَمُنَادَمَتَكَ تَشْغَلَانِهِ عَنْ ذَلِكَ. فَجَعَلَ إِلَيْهِ أَمْرَ دَارِ الرَّشِيدِ، وَسُمِّيَ بِالْوَزِيرِ الصَّغِيرِ أَيْضًا

قَالَ الرَّشِيدُ يَوْمًا لِيَحْيَى: قَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْقُلَ دِيوَانَ الْخَاتَمِ مِنَ الْفَضْلِ

www.marefa.org

إلى جعفر. وقد استجبت من مكاتبته في هذا المعنى فاكتب أنت إليه.
فكتب يحيى إلى الفضل: قد أمر أمير المؤمنين أعلى الله أمره أن تحول الحمام من بيتك إلى شمالك. فأجابه الفضل: قد سمعت لما أمر به أمير المؤمنين في أخي وما انتقلت عني نعمة صارت إليه ولا غربت عني رتبة طلعت عليه. فقال جعفر: لله در أخي ما أكيس نفسه وأظهر دلائل الفضل عليه وأقوى منة العقل عنده وأوسع في البلاغة ذرعه

قيل إن جعفر بن يحيى البرمكي. جلس يوما للشرب وأحب الخلوة. فأحضر ندماءه الذين يأنس بهم. وجلس معهم وقد هيئ المجلس ولبسوا الثياب المصبغة وكانوا إذا جلسوا في مجلس الشراب واللهو. لبسوا الثياب الحمر والصفر والخضر. ثم إن جعفر بن يحيى تقدم إلى الحاجب أن لا يأذن لأحد من خلق الله تعالى سوى رجل من الندماء كان قد تأخر عنهم اسمه عبد الملك بن صالح. ثم جلسوا يشربون. ودارت الكاسات. وخفقت العيدان. وكان رجل من أقارب الخليفة ينال له عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس. وكان شديد الوقار والدين والحشمة. وكان الرشيد قد التمس منه أن يناديمه ويشرب معه ويبذل له على ذلك أموالا جليلة فلم يفعل. فاتفق أن هذا عبد الملك بن صالح حضر إلى باب جعفر بن يحيى ليخاطبه في حوائج له. فظن الحاجب أنه هو عبد الملك بن صالح الذي تقدم جعفر بن يحيى بالإذن له وأن لا يدخل غيره. فأذن الحاجب له. فدخل عبد الملك بن صالح العباسي على جعفر بن يحيى. فلما رآه جعفر كاد عقله

www.marefa.org

يَذْهَبُ مِنَ الْحَبَّةِ وَقَطَنَ أَنَّ الْقَضِيَّةَ قَدِ اشْتَبَهَتْ عَلَى الْحَاجِبِ بِطَرِيقِ
اشْتِبَاهِ الِاسْمِ. وَقَطَنَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ صَالِحٍ أَيْضًا لِلْقَضِيَّةِ وَظَهَرَ لَهُ
الْخَجَلُ فِي وَجْهِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى. فَانْبَسَطَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَقَالَ: لَا بَأْسَ عَلَيْكُمْ
أَحْضِرُوا لَنَا مِنْ هَذِهِ الثِّيَابِ الْمَصْبُغَةِ شَيْئًا. فَأُحْضِرَ لَهُ قَمِيصٌ مَصْبُوغٌ
فَلَبِسَهُ وَجَلَسَ يُمَاسِطُ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى وَيُمَازِحُهُ وَقَالَ: اسْقُونَا مِنْ شَرَابِكُمْ
فَسَقَوْهُ رِطْلًا وَقَالَ: ارْفُقُوا بِنَا فَلَيْسَ لَنَا عَادَةٌ بِهَذَا. ثُمَّ بَاسَطَهُمْ وَمَازَحَهُمْ
وَمَا زَالَ حَتَّى انْبَسَطَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى وَزَالَ انْقِبَاضُهُ وَحَيَاؤُهُ. فَفَرِحَ جَعْفَرٌ
بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا وَقَالَ لَهُ: مَا حَاجَتُكَ. قَالَ حَيْثُ أَضْحَكَكَ اللَّهُ فِي
ثَلَاثِ حَوَائِجَ. أُرِيدُ أَنْ تُخَاطِبَ الْخَلِيفَةَ فِيهَا. أَوَّلُهَا أَنَّ عَلَيَّ دَيْنًا مَبْلَغُهُ
أَلْفُ أَلْفِ دِرْهَمٍ أُرِيدُ قَضَاءَهُ. ثَانِيهَا أُرِيدُ وِلَايَةً لِأَنِّي بِشَرَفٍ بِهَا
قَدْرُهُ. وَثَالِثُهَا أُرِيدُ أَنْ تُزَوِّجَ وَلَدِي بِابْنَةِ الْخَلِيفَةِ فَإِنَّهَا بِنْتُ عَمِّهِ وَهُوَ
كُفْءٌ لَهَا. فَقَالَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى: قَدْ قَضَى اللَّهُ هَذِهِ الْحَوَائِجَ الثَّلَاثَ. أَمَّا
الْمَالُ فَفِي هَذِهِ السَّاعَةِ يُحْمَلُ إِلَى مَنْزِلِكَ. وَأَمَّا الْوِلَايَةُ فَقَدْ وَلَّيْتُكَ أَبْنَاءَ
مِصْرَ. وَأَمَّا التَّزْوِيجُ فَقَدْ زَوَّجْتُهُ فُلَانَةَ ابْنَةَ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
صَدَاقِ مَبْلَغُهُ كَذَا وَكَذَا. فَانْصَرِفْ فِي أَمَانِ اللَّهِ. فَرَاحَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى
مَنْزِلِهِ. فَرَأَى الْمَالَ قَدْ سَبَقَهُ. وَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ حَضَرَ جَعْفَرٌ عِنْدَ
الرَّشِيدِ وَعَرَّفَهُ مَا جَرَى وَأَنَّهُ قَدْ وَلَّاهُ مِصْرَ وَزَوَّجَهُ ابْنَتَهُ. فَعَجِبَ الرَّشِيدُ مِنْ
ذَلِكَ وَأَمْضَى الْعَقْدَ وَالْوِلَايَةَ. فَخَرَجَ جَعْفَرٌ مِنْ دَارِ الرَّشِيدِ حَتَّى كَتَبَ
لَهُ التَّقْلِيدَ بِمِصْرَ وَأَحْضَرَ الْقُضَاةَ وَالشُّهُودَ وَعَقَدَ الْعَقْدَ

وَقِيلَ إِنَّ جَعْفَرَ بْنَ يَحْيَى كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِ مِصْرَ عَدَاوَةٌ وَوَحْشَةٌ

www.marefa.org

الدنيا . أمارة تدل على انحراف قولهم

حدث بخنيشوع الطبيب قال: دخلت يوما على الرشيد وهو جالس في قصر الخلد من مدينة السلم. وكان البرامكة يسكنون بحذائه من الجانب الآخر وبينهم وبينه عرض دجلة . قال: فنظر الرشيد فرأى غير ذاك المعهود وازدحام الناس على باب يحيى بن خالد فقال: جزى الله يحيى خيرا تصدى للأمور وأراحني من الكد ووفر أوقاتي على اللذة. ثم دخلت إليه بعد أوقات. وقد شرع يتغير عليهم. فنظر فرأى الخبول كما رآها تلك المرة. فقال أسلبك يحيى بالأمور دوني. فالخلافة على الحقيقة له وليس لي منها إلا اسمها. قال: فعلمت أنه سينكبهم ثم نكبهم عقيب ذلك

شرح السبب في نكبة البرامكة وكيفية الحال في ذلك

اختلف أصحاب السير والتواريخ في ذلك . فقيل كان سبب ذلك أن الرشيد كلف جعفر بن يحيى قتل رجل من آل أبي طالب. فخرج جعفر من ذلك . وأطلق الطالبي وسعى إلى الرشيد بجعفر فقال له: ما فعل الطالبي؟ قال: هو في الحبس: قال الرشيد: بحياتي. فغضب جعفر فقال: لا وحياتك ولكن أطلقته لأني علمت أنه ليس عندك مكروه. فقال له الرشيد: نعم ما فعلت. فلما قام جعفر قال الرشيد: قتلني الله إن لم أقتلك ثم نكبهم

وقيل إن أعداء البرامكة مثل الفضل بن الربيع . ما زالوا يسعون بهم إلى الرشيد ويذكرون له استبدادهم بالملك واحتجانهم للأموال

www.marefa.org

حَتَّى أَوْغَرُوا صَدْرَهُ فَأَوْقَعَ بِهِمْ

وَقِيلَ إِنَّ جَعْفَرًا وَالْفَضْلَ أَبَنَّ يَحْيَى ظَهَرَ مِنْهُمَا مِنَ الْإِدْلَالِ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ نُفُوسُ الْمُلُوكِ. فَنَكَبَهُمْ لِذَلِكَ

وَقِيلَ إِنَّ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ رَأَى وَهُوَ بِمَكَّةَ يَطُوفُ حَوْلَ الْبَيْتِ وَيَقُولُ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ رِضَاكَ فِي أَنْ تَسْلُبَنِي أَهْلِي وَمَالِي وَوَلَدِي. فَاسْلُبْنِي إِلَّا الْفَضْلَ وَلَدِي. ثُمَّ وَلَّى فَلَمَّا مَشَى قَلِيلًا عَادَ وَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّهُ سَمْحٌ بِسُؤْلِي أَنْ يَسْتَثْنِيَ عَلَيْكَ اللَّهُمَّ وَالْفَضْلَ. فَنَكَبَهُمُ الرَّشِيدُ بَعْدَ قَلِيلٍ وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ

شَرْحُ مَقْتَلِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى وَالْقَبْضِ عَلَى أَهْلِهِ

كَانَ الرَّشِيدُ قَدْ حَجَّ. فَلَمَّا عَادَ مِنَ الْحَجِّ سَارَ مِنَ الْحِيرَةِ إِلَى الْأَنْبَارِ فِي السُّفُنِ وَجَعَلَ يَشْرَبُ وَرَكِبَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى الصَّيْدِ وَجَعَلَ يَشْرَبُ تَارَةً وَيَلْهُو أُخْرَى وَتُحَفُ الرَّشِيدِ وَهَدَايَاهُ تَأْتِيهِ وَعِنْدَهُ بُخْتِيشُوعُ الطَّبِيبُ وَأَبُو زَكَّارٍ الْأَعْمَى يُغَنِّيهِ. فَلَمَّا أَظَلَّ الْمَسَاءُ دَعَا الرَّشِيدُ مَسْرُورًا الْخَادِمَ. وَكَانَ مُفْضًا لِجَعْفَرٍ وَقَالَ: اذْهَبْ فَجِئْنِي بِرَأْسِ جَعْفَرٍ وَلَا تُرَاجِعْنِي. فَوَافَاهُ مَسْرُورٌ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَهَجَمَ عَلَيْهِ وَأَبُو زَكَّارٍ يُغَنِّيهِ

فَلَا تَبْعُدْ فَكُلُّ فَتًى سَيَأْتِي ... عَلَيْهِ الْمَوْتُ بَطْرُقُ أَوْ يُغَادِي

فَلَمَّا دَخَلَ مَسْرُورٌ قَالَ لَهُ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى: لَقَدْ سَرَرْتَنِي بِمَجِيئِكَ وَسُؤْتَنِي بِدُخُولِكَ عَلَيَّ بِغَيْرِ إِذْنٍ. فَقَالَ الَّذِي جِئْتُ بِهِ أَعْظَمُ أَجِبْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مَا يُرِيدُ بِكَ. فَوَقَعَ عَلَى رِجْلَيْهِ فَقَبَّلَهُمَا وَقَالَ لَهُ: عَاوِدْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الشَّرَابَ قَدْ حَمَلَهُ عَلَى ذَلِكَ وَقَالَ: دَعْنِي أَدْخُلْ

www.marefa.org

دَارِي فَأُوصِي. فَقَالَ: الدُّخُولُ لَا سَبِيلَ إِلَيْهِ. وَأَمَّا الْوَصِيَّةُ فَأَوْصِ بِمَا بَدَا لَكَ فَأَوْصَى. ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مَنْزِلِ الرَّشِيدِ وَعَدَلَ بِهِ إِلَى قُبَّةٍ وَضَرَبَ عُنُقَهُ وَأَتَى بِرَأْسِهِ عَلَى تُرْسٍ إِلَى الرَّشِيدِ وَبِيَدَرِهِ فِي نَطْعٍ. وَوَجَمَ الرَّشِيدُ فَقَبَضَ عَلَى أَبِيهِ وَإِخْوَتِهِ وَأَهْلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَحَبَسَهُمْ بِالرَّقَّةِ وَاسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُمْ.

وَمِنْ طَرِيفِ مَا وَقَعَ فِي ذَلِكَ مَا رَوَاهُ الْعِمْرَانِيُّ الْمُؤَرِّخُ قَالَ: حَدَّثَ فُلَانٌ قَالَ: دَخَلْتُ الدِّيوَانَ فَنَظَرْتُ فِي بَعْضِ تَذَاكِرِ الثِّيَابِ فَرَأَيْتُ فِيهَا أَرْبَعَ مِئَةِ أَلْفِ دِينَارٍ ثَمَنُ خِلْعَةٍ لِجَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى الْوَزِيرِ. ثُمَّ دَخَلْتُ بَعْدَ أَيَّامٍ فَرَأَيْتُ تَحْتَ ذَلِكَ عَشَرَةَ قَرَارِيطَ ثَمَنَ قُطْنٍ وَبَوَارِي لِإِحْرَاقِ جُثَّةِ جَعْفَرِ بْنِ يَحْيَى فَعَجِبْتُ مِنْ ذَلِكَ. ثُمَّ اسْتَوْزَرَ الرَّشِيدُ بَعْدَ الْبَرَامِكَةِ الْفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ وَكَانَ حَاجِبَهُ

وِزَارَةُ أَبِي الْعَبَّاسِ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ

فَكَانَ حَاجِبًا لِلْمَنْصُورِ وَالْمَهْدِيِّ وَالْهَادِي وَالرَّشِيدِ. فَلَمَّا نَكَبَ الرَّشِيدُ الْبَرَامِكَةَ اسْتَوْزَرَهُ بَعْدَهُمْ. كَانَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ شَهْمًا خَبِيرًا بِأَحْوَالِ الْمُلُوكِ وَأَدَابِهِمْ. وَلَمَّا وَلِيَ الْوِزَارَةَ تَهَوَّسَ بِالْأَدَبِ وَجَمَعَ إِلَيْهِ أَهْلَ الْعِلْمِ فَحَصَّلَ مِنْهُ مَا أَرَادَ فِي مُدَّةٍ يَسِيرَةٍ. وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ مِنْ شُعَرَائِهِ الْمُنْقَطِعِينَ إِلَيْهِ فَمِنْ شِعْرِهِ فِي آلِ الرَّبِيعِ

عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا احْتَدَمَ الْوَغَى وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

وَمَا زَالَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ عَلَى وِزَارَتِهِ إِلَى أَنْ مَاتَ الرَّشِيدُ بِطُوسَ. فَجَمَعَ الْفَضْلُ الْعَسْكَرَ وَمَا فِيهِ وَرَجَعَ إِلَى بَغْدَادَ. انْتَهَى ذِكْرُ خِلَافَةِ هَارُونَ الرَّشِيدِ

www.marefa.org

ذِكْرُ خِلَافَةِ أَبِي أَحْمَدَ عَبْدِ اللهِ
الْمُسْتَعْصِمِ بِاللهِ

بُوِيعَ لَهُ بِالْخِلَافَةِ فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ وَمِيَتِهِ هُوَ آخِرُ الْخُلَفَاءِ[1]. كَانَ الْمُسْتَعْصِمُ رَجُلًا خَيِّرًا مُتَدَيِّنًا لَيِّنَ الْجَانِبِ سَهْلَ الْعَرِيكَةِ عَفِيفَ اللِّسَانِ وَالْفَرْجِ. حَمَلَ الْكِتَابَ وَكَتَبَ خَطًّا مَلِيحًا وَكَانَ سَهْلَ الْأَخْلَاقِ وَكَانَ خَفِيفَ الْوَطْأَةِ. إِلَّا أَنَّهُ كَانَ مُسْتَضْعَفَ الرَّأْيِ ضَعِيفَ الْبَطْشِ قَلِيلَ الْخِبْرَةِ بِأُمُورِ الْمَمْلَكَةِ. مَطْمُوعًا فِيهِ غَيْرَ مَهِيبٍ فِي الثُّغُورِ وَلَا مُطَّلِعٍ عَلَى حَقَائِقِ الْأُمُورِ. وَكَانَ زَمَانُهُ يَنْقَضِي أَكْثَرُهُ بِسَمَاعِ الْأَغَانِيِّ وَالتَّفَرُّجِ عَلَى الْمَسَاخِرَةِ. وَفِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ يَجْلِسُ بِخِزَانَةِ الْكُتُبِ جُلُوسًا لَيْسَ فِيهِ كَبِيرُ فَائِدَةٍ. وَكَانَ أَصْحَابُهُ مُسْتَوْلِينَ عَلَيْهِ وَكُلُّهُمْ جُهَّالٌ مِنْ أَرْذَالِ الْعَوَامِّ. إِلَّا وَزِيرَهُ مُؤَيَّدَ الدِّينِ مُحَمَّدَ بْنَ الْعَلْقَمِيِّ. فَإِنَّهُ كَانَ مِنْ أَعْيَانِ النَّاسِ وَعُقَلَاءِ الرِّجَالِ. وَكَانَ مَكْفُوفَ الْيَدِ مَرْذُولَ الْقَوْلِ يَتَرَقَّبُ الْعَزْلَ وَالْقَبْضَ

---

1 الخلفاء هم الذين خلفوا محمد بن عبد الله في الاسلام وتوليها الكثير من بعده من العرب وكانوا في بدء امر السياسة والدين معاً. وهم اولاً خلفاء المشرق وكانت دار خلافتهم مكة الى وفاة الامام علي بن ابي طالب، ثم الشام في دولة بني امية. ثم بغداد في دولة بني العباس. وكانت مدتهم جميعاً ٦٢٤ سنة وذلك من سنة ٦٢٦ للميلاد الى سنة ١٢٥٨ ٠

ثانياً خلفاء الاندلس واول من ولي الخلافة منهم عبد الرحمن الاموي من ملوك الشام وذلك سنة ٧٥٧ وكانت مدتهم ٢٧٤ سنة الى من التاريخ المذكور الى سنة ١٠٣١ ٠

ثالثاً خلفاء مصر وهم الفاطميون واول من ولي الخلافة منهم عبيد الله من سلالة فاطمة بنت محمد وذلك سنة ٩٠٩ واستمرت خلافتهم ٢٦٢ سنة حتى اضمحلت سنة ١١٧١ على يد الملك صلاح الدين الايوبي ٠

وكان تقليد الخلافة في صدر الاسلام بالمبايعة الى ان جاء معوية بن ابي سفيان الاموي في آخر القرن الاول فجعل الخلافة في صلبه واستمر الحال على ذلك الى سنة ٩٢٥ حيث خلعهم امير الامراء عن امر السياسة، ونقلت الخلافة حظ ركة من العرب الى ظهور السلطان سليم العثماني فاستلم الخلافة من المتوكل آخر خلفاء بني العباس وذلك سنة ١٥١٦ وكانت مدة جميعهم ٨٨٠ سنة (مولي)

www.marefa.org

صَبَاحَ مَسَاءَ. وَكَانَتْ عَادَةُ الْخُلَفَاءِ أَكْثَرِهِمْ أَنْ يَحْبِسُوا أَوْلَادَهُمْ وَأَقَارِبَهُمْ وَبِذَلِكَ جَرَتْ سُنَّتُهُمْ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ الْمُسْتَنْصِرِ. فَلَمَّا وَلِيَ الْمُسْتَعْصِمُ أَطْلَقَ أَوْلَادَهُ الثَّلَاثَةَ وَلَمْ يَحْبِسْهُمْ وَهُمُ الْأَمِيرُ الْكَبِيرُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ وَالْعَامَّةُ تُسَمِّيهِ أَبَا بَكْرٍ لَيْسَ بِصَحِيحٍ وَإِنَّمَا سَمَّوْهُ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمَّا ذَهَبَ الْكَرْخُ لَسِبَ الْأَمْرُ فِي ذَلِكَ إِلَيْهِ. وَقِيلَ إِنَّهُ هُوَ الَّذِي أَشَارَ بِذَلِكَ وَالْأَمِيرُ الْأَوْسَطُ وَهُوَ أَبُو الْفَضَائِلِ عَبْدُ الرَّحْمَانِ كَانَ شَهْمًا خَرَجَ إِلَى بَيْنِ يَدَيِ السُّلْطَانِ هُولَاكُو وَوَقَعَ كَلَامُهُ بِمَوْضِعِ الِاسْتِحْسَانِ فِي الْحَضْرَةِ السُّلْطَانِيَّةِ وَالْأَمِيرُ الْأَصْغَرُ أَبُو الْمَنَاقِبِ

حَدَّثَنِي صَفِيُّ الدِّينِ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ بْنُ فَاخِرٍ الْأَرْمَوِيُّ وَكَانَ قَدْ صَارَ فِي آخِرِ أَيَّامِ الْمُسْتَعْصِمِ مُقَرَّبًا عِنْدَهُ وَمِنْ خَوَاصِّهِ. وَكَانَ قَدِ اتَّخَذَ فِي آخِرِ أَيَّامِهِ خِزَانَةَ كُتُبٍ وَنَقَلَ إِلَيْهَا مِنْ نَفَائِسِ الْكُتُبِ وَسَلَّمَ مَفَاتِيحَهَا إِلَى عَبْدِ الْمُؤْمِنِ. فَصَارَ عَبْدُ الْمُؤْمِنِ يَجْلِسُ بِبَابِ الْخِزَانَةِ يَنْسَخُ لَهُ مَا يُرِيدُ. وَإِذَا خَطَرَ لِلْخَلِيفَةِ الْجُلُوسُ فِي خِزَانَةِ الْكُتُبِ جَاءَ إِلَيْهَا وَعَدَلَ عَنِ الْخِزَانَةِ الْأُولَى الَّتِي كَانَتْ مُسَلَّمَةً إِلَى الشَّيْخِ صَدْرِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ النَّيَّارِ. قَالَ. أَعْنِي عَبْدَ الْمُؤْمِنِ: كُنْتُ مَرَّةً جَالِسًا فِي حُجْرَةٍ صَغِيرَةٍ وَأَنَا أَنْسَخُ وَهُنَاكَ مَرْتَبَةٌ بِرَسْمِ الْخَلِيفَةِ إِذَا جَاءَ إِلَى هُنَاكَ جَلَسَ عَلَيْهَا. وَقَدْ بُسِطَتْ عَلَيْهَا مِلْحَفَةٌ لِتَرُدَّ عَنْهَا الْغُبَارَ. فَجَاءَ خَوَنْدِمٌ صَغِيرٌ وَنَامَ قَرِيبًا مِنَ الْمَرْتَبَةِ الْمَذْكُورَةِ وَاسْتَغْرَقَ فِي النَّوْمِ فَتَقَلَّبَ حَتَّى تَلَفَّفَ فِي تِلْكَ الْمِلْحَفَةِ الْمَبْسُوطَةِ عَلَى الْمَرْتَبَةِ ثُمَّ تَقَلَّبَ حَتَّى صَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى الْمُسْنَدِ. قَالَ وَأَنَا مَشْغُولٌ بِالنَّسْخِ فَأَحْسَسْتُ بِوَطْءٍ فِي الدِّهْلِيزِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا هُوَ الْخَلِيفَةُ

www.marefa.org

وَهُوَ يَسْتَدْعِينِي بِالْإِشَارَةِ وَيُخَوِّفُ وَطْأَهُ. فَقُمْتُ إِلَيْهِ مُذْعِنًا وَقَبَّلْتُ الْأَرْضَ فَقَالَ لِي: هٰذَا الْخَوَنْدِمُ الَّذِي قَدْ نَامَ حَتَّى تَلَفَّفَ فِي هٰذِهِ الْمِلْحَفَةِ وَصَارَتْ رِجْلَاهُ عَلَى الْمُسْنَدِ مَتَى هَجَمْتُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ وَيَعْلَمَ أَنِّي قَدْ شَاهَدْتُهُ عَلَى هٰذِهِ الْحَالِ تَنْفَطِرُ مَرَارَتُهُ مِنَ الْخَوْفِ. فَأَيْقِظْهُ أَنْتَ بِرِفْقٍ فَإِنِّي سَأَخْرُجُ إِلَى الْبُسْتَانِ ثُمَّ أَعُودُ. قَالَ وَخَرَجَ الْخَلِيفَةُ فَدَخَلْتُ إِلَى الْخَوَنْدِمِ وَأَيْقَظْتُهُ فَانْتَبَهَ ثُمَّ أَصْلَحْنَا الْمَرْتَبَةَ ثُمَّ دَخَلَ الْخَلِيفَةُ

وَحَدَّثَنِي بَعْضُ أَهْلِ بَغْدَادَ حَدَّثَنِي أَنَّ الشَّيْخَ صَدْرَ الدِّينِ بْنَ النَّيَّارِ شَيْخَ الْخَلِيفَةِ قَالَ: دَخَلْتُ مَرَّةً إِلَى خِزَانَةِ الْكُتُبِ عَلَى عَادَتِي وَفِي كُمِّي مِنْدِيلٌ فِيهِ رِقَاعٌ كَثِيرَةٌ لِجَمَاعَةٍ مِنْ أَرْبَابِ الْحَوَائِجِ فَطَرَحْتُ الْمِنْدِيلَ وَفِيهِ الرِّقَاعُ فِي مَوْضِعٍ ثُمَّ قُمْتُ لِبَعْضِ شَأْنِي. فَلَمَّا عُدْتُ إِلَى الْخِزَانَةِ بَعْدَ سَاعَةٍ حَلَلْتُ الرِّقَاعَ مِنَ الْمِنْدِيلِ حَتَّى أَنَا مِلُهَا وَأُقَدِّمَ مِنْهَا الْمُهِمَّ فَرَأَيْتُهَا جَمِيعَهَا وَعَلَيْهَا تَوْقِيعُ الْخَلِيفَةِ بِالْإِجَابَةِ إِلَى جَمِيعِ مَا فِيهَا. فَعَلِمْتُ أَنَّ الْخَلِيفَةَ قَدْ جَاءَ إِلَى الْخِزَانَةِ عِنْدَ قِيَامِي فَرَأَى الْمِنْدِيلَ وَفِيهِ الرِّقَاعُ فَفَتَحَهَا وَوَقَّعَ عَلَى جَمِيعِهَا

وَالْمُسْتَعْصِمُ هُوَ آخِرُ خُلَفَاءِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ وَلَمْ يَجْرِ فِي أَيَّامِ الْمُسْتَعْصِمِ شَيْءٌ يُؤَثَّرُ سِوَى نَهْبِ الْكَرْخِ وَنَفْسُ الْأَثَرِ ذٰلِكَ. وَفِي آخِرِ أَيَّامِهِ قَوِيَتِ الْأَرَاجِيفُ بِوُصُولِ عَسْكَرِ الْمُغُولِ صُحْبَةَ السُّلْطَانِ هُولَاكُو فَلَمْ يُحَرِّكْ ذٰلِكَ مِنْهُ عَزْمًا وَلَا نَبَّهَ مِنْهُ هِمَّةً وَلَا أَخَذَتْ عِنْدَهُمَا. وَكَانَ كُلَّمَا سُمِعَ عَنِ السُّلْطَانِ مِنَ الِاحْتِيَاطِ وَالِاسْتِعْدَادِ شَيْءٌ ظَهَرَ مِنَ الْخَلِيفَةِ نَقِيضُهُ مِنَ التَّفْرِيطِ وَالْإِهْمَالِ. وَلَمْ يَكُنْ يَتَصَوَّرُ حَقِيقَةَ الْحَالِ فِي ذٰلِكَ

www.marefa.org

وَلَا يَعْرِفُ هٰذِهِ الدَّوْلَةَ يَسَّرَ اللهُ إِحْسَانَهَا وَأَعْلَى شَأْنَهَا حَقَّ الْمَعْرِفَةِ. وَكَانَ وَزِيرُهُ مُؤَيَّدُ الدِّينِ بْنُ الْعَلْقَمِيِّ يَعْرِفُ حَقِيقَةَ الْحَالِ فِي ذٰلِكَ وَيُكَاتِبُهُ بِالتَّحْذِيرِ وَالتَّنْبِيهِ وَيُشِيرُ عَلَيْهِ بِالتَّحَفُّظِ وَالِاسْتِعْدَادِ وَهُوَ لَا يَزْدَادُ إِلَّا غُفُولًا. وَكَانَ خَوَاصُّهُ يُوهِمُونَهُ أَنَّهُ لَيْسَ فِي هٰذَا كَبِيرُ خَطَرٍ وَلَا هُنَاكَ مَحْذُورٌ وَأَنَّ الْوَزِيرَ إِنَّمَا يُعَظِّمُ هٰذَا لِيُنْفِقَ سُوقَهُ وَلِيَبْرُزَ إِلَيْهِ الْأَمْوَالُ لِيُجَنِّدَ بِهَا الْعَسَاكِرَ فَيَقْتَطِعَ مِنْهَا لِنَفْسِهِ. وَمَا زَالَتْ غَفْلَةُ الْخَلِيفَةِ تَنْمِي وَيَقْظَةُ الْجَانِبِ الْآخَرِ تَتَضَاعَفُ حَتَّى وَصَلَ الْعَسْكَرُ السُّلْطَانِيُّ إِلَى هَمَذَانَ وَأَقَامَ بِهَا مُدَيْدَةً. ثُمَّ تَوَاتَرَتِ الرُّسُلُ السُّلْطَانِيَّةُ إِلَى الدِّيوَانِ الْمُسْتَعْصِمِيِّ فَوَقَعَ التَّعْيِينُ مِنْ دِيوَانِ الْخَلِيفَةِ عَلَى وَلَدِ أُسْتَاذِ الدَّارِ وَهُوَ شَرَفُ الدِّينِ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْجُوَيْرِيِّ فَبُعِثَ رَسُولًا إِلَى خِدْمَةِ الدَّرْكَاهِ السُّلْطَانِيَّةِ بِهَمَذَانَ. فَلَمَّا وَصَلَ وَسُمِعَ جَوَابُهُ عُلِمَ أَنَّهُ جَوَابُ مُغَالَطَةٍ وَمُدَافَعَةٍ

فَحِينَئِذٍ وَقَعَ الشُّرُوعُ فِي قَصْدِ بَغْدَادَ وَبَثِّ الْعَسَاكِرِ إِلَيْهَا. فَتَوَجَّهَ عَسْكَرٌ كَثِيفٌ مِنَ الْمُغُولِ وَالْمُقَدَّمُ عَلَيْهِمْ بَاجُو إِلَى تِكْرِيتَ لِيَعْبُرُوا مِنْ هُنَاكَ إِلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ وَيَقْصِدُوا بَغْدَادَ مِنْ غَرْبِيِّهَا وَيَقْصِدَهَا الْعَسْكَرُ السُّلْطَانِيُّ مِنْ شَرْقِيِّهَا. فَلَمَّا عَبَرَ عَسْكَرُ بَاجُو مِنْ تِكْرِيتَ وَانْحَدَرَ إِلَى أَعْمَالِ بَغْدَادَ أَجْفَلَ النَّاسُ مِنْ دُجَيْلٍ وَالْإِسْحَاقِيِّ وَنَهْرِ مَلِكٍ وَنَهْرِ عِيسَى وَدَخَلُوا إِلَى الْمَدِينَةِ بِنِسَائِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ حَتَّى كَانَ الرَّجُلُ أَوِ الْمَرْأَةُ يَقْذِفُ بِنَفْسِهِ فِي الْمَاءِ وَكَانَ الْمَلَّاحُ إِذَا عَبَرَ أَحَدًا فِي سَفِينَةٍ مِنْ جَانِبٍ إِلَى جَانِبٍ يَأْخُذُ أُجْرَتَهُ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ طِرَازًا مِنْ زَرْكَشٍ أَوْ عِدَّةً مِنَ الدَّنَانِيرِ. فَلَمَّا وَصَلَ الْعَسْكَرُ السُّلْطَانِيُّ إِلَى دُجَيْلٍ وَهُوَ يَزِيدُ عَلَى

www.marefa.org

ثَلَاثِينَ أَلْفَ فَارِسٍ خَرَجَ إِلَيْهِ عَسْكَرُ الْخَلِيفَةِ صُحْبَةَ مُقَدَّمِ الْجُيُوشِ مُجَاهِدِ الدِّينِ إِيلْكَ الدَّوِيدَارِ وَكَانَ عَسْكَرًا فِي غَايَةِ الْقِلَّةِ. فَالْتَقَوْا بِالْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ مِنْ بَغْدَادَ قَرِيبًا مِنَ الْبَلَدِ فَكَانَتِ الْغَلَبَةُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ لِعَسْكَرِ الْخَلِيفَةِ. ثُمَّ كَانَتِ الْكَرَّةُ لِلْعَسْكَرِ السُّلْطَانِيِّ فَأَبَادُوهُمْ قَتْلًا وَأَسْرًا. وَأَعَانَهُمْ عَلَى ذَلِكَ نَهْرٌ فَحَوْهُ فِي طُولِ اللَّيْلِ فَكَثُرَتِ الْوُحُولُ فِي طَرِيقِ الْمُنْهَزِمِينَ فَلَمْ يَنْجُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَمَى نَفْسَهُ فِي الْمَاءِ أَوْ مَنْ دَخَلَ الْبَرِّيَّةَ وَمَضَى عَلَى وَجْهِهِ إِلَى الشَّامِ. وَنَجَا الدَّوِيدَارُ فِي جُمْلَةٍ مِنْ عَسْكَرِهِ وَوَصَلَ إِلَى بَغْدَادَ وَسَاقَ بَاجُو حَتَّى دَخَلَ الْبَلَدَ مِنْ جَانِبِهِ الْغَرْبِيِّ وَوَقَفَ بِعَسَاكِرِهِ مُحَاذِيَ الْقَاجِ وَجَاسَتْ عَسَاكِرُهُ خِلَالَ الدِّيَارِ وَأَقَامَ مُحَاذِيَ الْقَاجِ أَيَّامًا

أَمَّا حَالُ الْعَسْكَرِ السُّلْطَانِيِّ فَإِنَّهُ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ رَابِعِ مُحَرَّمٍ مِنْ سَنَةِ سِتٍّ وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ثَارَتْ غَبَرَةٌ عَظِيمَةٌ شَرْقِيَّ بَغْدَادَ عَلَى دَرْبِ يَعْقُوبَ بِحَيْثُ عَمَّتِ الْبَلَدَ فَانْزَعَجَ النَّاسُ مِنْ ذَلِكَ وَصَعِدُوا إِلَى أَعَالِي السُّطُوحِ وَالْمَنَابِرِ يَتَفَرَّجُونَ. فَانْكَشَفَتِ الْغَبَرَةُ عَنْ عَسَاكِرِ السُّلْطَانِ وَخُيُولِهِ وَفِيلَتِهِ وَكَرَاعِهِ وَقَدْ طَبَّقَ وَجْهَ الْأَرْضِ وَأَحَاطَ بِبَغْدَادَ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا. ثُمَّ شَرَعُوا فِي اسْتِعْمَالِ أَسْبَابِ الْحِصَارِ وَشَرَعَ الْعَسْكَرُ الْخَلِيفِيُّ فِي الْمُدَافَعَةِ وَالْمُقَاوَمَةِ إِلَى يَوْمِ تَاسِعَ عَشَرِ مُحَرَّمٍ. فَلَمْ يَشْعُرِ النَّاسُ إِلَّا وَرَايَاتُ الْمَغُولِ ظَاهِرَةٌ عَلَى سُورِ بَغْدَادَ مِنْ بُرْجٍ يُسَمَّى بُرْجَ الْعَجَمِيِّ مِنْ نَاحِيَةِ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ بَغْدَادَ يُقَالُ لَهُ بَابُ كَلْوَاذَى. وَكَانَ هَذَا الْبُرْجُ أَقْصَرَ أَبْرَاجِ السُّورِ. وَتَقَدَّمَ الْعَسْكَرُ السُّلْطَانِيُّ هُجُومًا وَدُخُولًا فَجَرَى مِنَ الْقَتْلِ الذَّرِيعِ وَالنَّهْبِ الْعَظِيمِ وَالتَّخْرِيبِ الْبَلِيغِ مَا يَعْظُمُ مَبْلَغُهُ جُمْلَةً. فَأَمَّا الظَّنُّ

www.marefa.org

بِتَفَاصِيلِهِ وَكَانَ مَا كَانَ مِمَّا لَسْتُ أَذْكُرُهُ فَظَنَّ ظَنًّا وَلَا تَسْأَلْ عَنِ الْخَبَرِ.
وَأَمَرَ السُّلْطَانُ بِخُرُوجِ الْخَلِيفَةِ وَوَلَدِهِ وَنِسَائِهِ إِلَيْهِ. فَخَرَجُوا فَحَضَرَ الْخَلِيفَةُ
بَيْنَ يَدَيِ الدِّرْكَاهِ. فَيُقَالُ إِنَّهُ عُوتِبَ وَوُبِّخَ بِمَا مَعْنَاهُ نِسْبَةُ الْعَجْزِ وَالتَّفْرِيطِ
وَالْفُضُولِ إِلَيْهِ. ثُمَّ أُوصِلَ إِلَى الْيَاسَا[1] وَوَلَدَاهُ الْأَكْبَرُ وَالْأَوْسَطُ. وَأَمَّا
بَنَاتُهُ فَأُسِرْنَ. ثُمَّ اسْتُشْهِدَ الْمُسْتَعْصِمُ فِي رَابِعِ صَفَرَ سَنَةَ سِتٍّ وَخَمْسِينَ
وَسِتِّمِائَةٍ

إِنْتَهَى ذِكْرُ خِلَافَةِ الْمُسْتَعْصِمِ بِاللهِ

---

[1] الياسا هي قانون الجنايات في دولة المغول

www.marefa.org

مِنْ كِتَابِ

ٱلْمَوَاعِظِ وَٱلِاعْتِبَارِ فِي ذِكْرِ ٱلْخِطَطِ وَٱلْآثَارِ

لِتَقِيِّ ٱلدِّينِ ٱلْمَقْرِيزِيِّ

ذِكْرُ خِلَافَةِ ٱلْحَاكِمِ بِأَمْرِ ٱللهِ[1]

ٱلْحَاكِمُ بِأَمْرِ ٱللهِ أَبُو عَلِيٍّ مَنْصُورُ بْنُ ٱلْعَزِيزِ نِزَارُ بْنُ ٱلْمُعِزِّ لِدِينِ ٱللهِ أَبِي تَمِيمٍ مَعَدٌّ وُلِدَ بِٱلْقَصْرِ مِنَ ٱلْقَاهِرَةِ ٱلْمُعِزِّيَّةِ لَيْلَةَ ٱلْخَمِيسِ ٱلثَّالِثِ وَٱلْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ فِي ٱلسَّاعَةِ ٱلتَّاسِعَةِ وَٱلطَّالِعُ مِنْ بُرْجِ ٱلسَّرَطَانِ سَبْعٌ وَعِشْرُونَ دَرَجَةً. وَسُلِّمَ عَلَيْهِ بِٱلْخِلَافَةِ فِي مَدِينَةِ بِلْبَيْسَ بَعْدَ ٱلظُّهْرِ مِنْ يَوْمِ ٱلثَّلَاثَاءِ ثَامِنِ وَعِشْرِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةَ سِتٍّ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَسَارَ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ فِي يَوْمِ ٱلْأَرْبِعَاءِ بِسَائِرِ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ وَٱلْعَزِيزُ فِي قُبَّةٍ عَلَى نَاقَةٍ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَعَلَى ٱلْحَاكِمِ دِرَاعَةٌ مُصْمَتٌ وَعِمَامَةٌ فِيهَا ٱلْجَوْهَرُ وَبِيَدِهِ رُمْحٌ وَقَدْ تَقَلَّدَ ٱلسَّيْفَ وَلَمْ يُفْقَدْ مِنْ جَمِيعِ مَا كَانَ مَعَ ٱلْعَسَاكِرِ شَيْءٌ وَدَخَلَ ٱلْقَصْرَ قَبْلَ صَلَاةِ ٱلْمَغْرِبِ. وَأَخَذَ فِي جِهَازِ أَبِيهِ ٱلْعَزِيزِ بِٱللهِ وَدَفْنِهِ. ثُمَّ بَكَّرَ سَائِرُ أَهْلِ ٱلدَّوْلَةِ إِلَى ٱلْقَصْرِ يَوْمَ ٱلْخَمِيسِ وَقَدْ نُصِبَ لِلْحَاكِمِ سَرِيرٌ مِنْ ذَهَبٍ عَلَيْهِ مَرْتَبَةٌ مُذَهَّبَةٌ فِي ٱلْإِيوَانِ ٱلْكَبِيرِ. وَخَرَجَ مِنْ قَصْرِهِ رَاكِبًا وَعَلَيْهِ مُعْظَمُ ٱلْجَوْهَرِ وَٱلنَّاسُ

---

[1] الحاكم بامر الله هو احد الخلفاء الفاطميين بمصر ولي العهد بعد ابيه سنة ٣٦٦ وكان شرسا جائرا سفاك دماء واضطهد اليهود والنصارى وامر بقلع الكرم. وكانت ولادته سنة ٣٧٥ قتل بعيد متى من المسلمين. وكان يدعي انه من سلالة علي ابن ابي طالب وبدعوته سمي امير المؤمنين والقائم مقام الله وعدل عن دين محمد واقام دينا جديدا وهو دين الدروز المقيمون الآن في سورية ومصر والاصحاء يزعمون انه نقل الى السماء (برلي)

www.marefa.org

وقوف في صحن الإيوان. فقبلوا له الأرض ومشوا بين يديه حتى جلس على السرير. فوقف من رسمه الوقوف وجلس من له عادة أن يجلس وسلم الجميع عليه بالإمامة واللقب الذي أخبر له وهو الحاكم بأمر الله وكان منه يومئذ لإحدى عشرة سنة وخمسة أشهر وستة أيام

فجعل أبا محمد الحسن بن عمار الكتامي واسطة ولقبه بأمين الدولة وأسقط مكوسا كانت بالساحل ورد إلى الحسن بن جوهر القائد البريد والإنشاء. فكان يخلفه ابن سورين وأقر عيسى بن نسطورس على ديوان الخاص وقلد سليمان بن جعفر بن فلاح الشام. فخرج بنجوز كين بدمشق وسار منها لمدافعة سليمان بن جعفر بن فلاح. فبلغ الرملة وانضم إليه ابن الجراح الطائي في كثير من العرب ووافع ابن فلاح فانهزم وقرئ أسيرا وحمل إلى القاهرة فأكرم. واختلف أهل الدولة على ابن عمار ووقعت حروب آلت إلى صرفه عن الوساطة وله في النظر أحد عشر شهرا غير خمسة أيام. فلزم داره وأطلقت له رسوم وجرايات. وأقيم الطواشي برجوان الصقلبي مكانه في الوساطة لثلاث بقين من رمضان سنة سبع وثمانين وثلثمائة. فجعل كاتبه فهد بن إبراهيم يوقع عنه ولقبه بالرئيس وصرف سليمان بن فلاح عن الشام بيحتي بن الصمصامة. وقلد فخل بن إسماعيل الكتامي مدينة صور وقلد بانس الخادم برقة وميسورا الخادم طرابلس وريحانا الخادم غزة وعسقلان. فوافع جيش الروم على قاميرة وقتل منهم خمسة آلاف رجل وغزا إلى أن دخل مرعش. وقلد وظيفة قضاء القضاة أبا عبد الله الحسين بن

www.marefa.org

عَلِيِّ بْنِ ٱلنُّعْمَانِ فِي صَفَرِ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ بَعْدَ مَوْتِ قَاضِي ٱلْقُضَاةِ مُحَمَّدِ بْنِ ٱلنُّعْمَانِ. وَقُتِلَ ٱلْأُسْتَاذُ بَرْجَوَانُ لِأَرْبَعٍ بَقِينَ مِنْ رَبِيعٍ ٱلْآخِرِ سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ وَلَهُ فِي ٱلنَّظَرِ سَنَتَانِ وَثَمَانِيَةُ أَشْهُرٍ غَيْرَ يَوْمٍ وَاحِدٍ وَرَدَّ ٱلنَّظَرَ فِي أُمُورِ ٱلنَّاسِ وَتَدْبِيرِ ٱلْمَمْلَكَةِ وَٱلتَّوْقِيعَاتِ إِلَى ٱلْحُسَيْنِ بْنِ جَوْهَرٍ وَلُقِّبَ بِفَائِدِ ٱلْقُوَّادِ فَخَلَفَهُ ٱلرَّئِيسُ فَهْدٌ. وَٱتَّخَذَ ٱلْحَاكِمُ مَجْلِسًا فِي ٱللَّيْلِ يَحْضُرُ فِيهِ عِدَّةٌ مِنْ أَعْيَانِ ٱلدَّوْلَةِ ثُمَّ أَبْطَلَهُ وَمَاتَ جَيْشُ بْنُ ٱلصَّمْصَامَةِ فِي رَبِيعٍ ٱلْآخِرِ سَنَةَ تِسْعِينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ. فَوَصَلَ ٱبْنُهُ بِتَرِكَتِهِ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ وَمَعَهُ دَرْجٌ بِخَطِّ أَبِيهِ فِيهِ وَصِيَّتُهُ وَنَبَّتَ بِمَا خَلَّفَهُ مُفَصَّلًا. وَلَمَّا ذٰلِكَ جَمِيعَهُ لِأَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْحَاكِمِ بِأَمْرِ ٱللّٰهِ لَا يَسْتَحِقُّ أَحَدٌ مِنْ أَوْلَادِهِ مِنْهُ دِرْهَمًا. وَكَانَ مَبْلَغُ ذٰلِكَ جَمِيعِهِ نَحْوَ ٱلْمِائَتَيْنِ أَلْفِ دِينَارٍ مَا بَيْنَ عَيْنٍ وَمَتَاعٍ وَثِيَابٍ. قَدْ أُوقِفَ جَمِيعُ ذٰلِكَ تَحْتَ ٱلْقَصْرِ فَأَخَذَ ٱلْحَاكِمُ ٱلدَّرْجَ وَنَظَرَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ إِلَى أَوْلَادِ جَيْشٍ وَخَلَعَ عَلَيْهِمْ وَقَالَ لَهُمْ بِمَحْضَرٍ وُجُوهِ ٱلدَّوْلَةِ: قَدْ وَقَفْتُ عَلَى وَصِيَّةِ أَبِيكُمْ رَحِمَهُ ٱللّٰهُ وَمَا وَصَّى بِهِ مِنْ عَيْنٍ وَمَتَاعٍ فَخُذُوهُ هَنِيئًا مُبَارَكًا لَكُمْ فِيهِ فَٱنْصَرَفُوا بِجَمِيعِ ٱلتَّرِكَةِ .....

وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ كَافَّةً مِنْ مُخَاطَبَتِهِ أَحَدٌ وَمُكَاتَبَتِهِ بِسَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا إِلَّا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَحَدَّهُ. وَأَبَاحَ دَمَ مَنْ خَالَفَ ذٰلِكَ. وَفِي شَوَّالٍ قُتِلَ ٱبْنُ عَمَّارٍ وَفِي سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَاصَلَ ٱلْحَاكِمُ ٱلرُّكُوبَ فِي ٱللَّيْلِ كُلَّ لَيْلَةٍ. وَكَانَ يَشُقُّ ٱلشَّوَارِعَ وَٱلْأَزِقَّةَ وَبَالَغَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْوَقِيدِ وَٱلزِّينَةِ وَأَنْفَقُوا ٱلْأَمْوَالَ ٱلْكَثِيرَةَ عَلَى ٱلْمَآكِلِ وَٱلْمَشَارِبِ وَٱلْغِنَاءِ وَٱللَّهْوِ وَكَثُرَ تَفَرُّجُهُمْ عَلَى ذٰلِكَ حَتَّى خَرَجُوا فِيهِ عَنِ ٱلْحَدِّ فَمَنَعَ ٱلنِّسَاءَ مِنَ ٱلْخُرُوجِ فِي ٱللَّيْلِ.

www.marefa.org

ثُمَّ مَنَعَ الرِّجَالَ مِنَ الْجُلُوسِ فِي الْحَوَانِيتِ .....

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَتِسْعِينَ أَمَرَ النَّصَارَى وَالْيَهُودَ بِشَدِّ الزَّنَانِيرِ وَلُبْسِ الْغِيَارِ. وَمَنَعَ النَّاسَ مِنْ أَكْلِ الْمُلُوخِيَا وَالْجِرْجِيرِ وَالْمَوْرِ كُلِيَّةِ وَالدُّلْبِسِ وَذَبْحِ الْأَبْقَارِ السَّلِيمَةِ مِنَ الْعَاهَةِ إِلَّا فِي أَيَّامِ الْأَضْحِيَةِ. وَمَنَعَ مِنْ بَيْعِ الْفَقَاعِ وَعَمَلِهِ الْبَتَّةَ وَأَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ الْحَمَّامَ إِلَّا بِمِئْزَرٍ وَأَنْ لَا تَكْشِفَ امْرَأَةٌ وَجْهَهَا فِي طَرِيقٍ وَلَا خَلْفَ جَنَازَةٍ وَلَا تَتَبَرَّجَ وَلَا يُبَاعَ شَيْءٌ مِنَ السَّمَكِ بِغَيْرِ فِشْرٍ وَلَا يَصْطَادُهُ أَحَدٌ مِنَ الصَّيَّادِينَ. وَتَتَبَّعَ النَّاسَ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَتَشَدَّدَ فِيهِ وَضَرَبَ جَمَاعَةً بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ مَا أُمِرُوا بِهِ وَنُهُوا عَنْهُ مِمَّا ذُكِرَ. وَخَرَجَتِ الْعَسَاكِرُ لِقِتَالِ بَنِي قُرَّةَ مِنْ أَهْلِ الْبَحِيرَةِ. وَكَتَبَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسَاجِدِ وَعَلَى الْجَامِعِ بِمِصْرَ وَعَلَى أَبْوَابِ الْحَوَانِيتِ وَالْحُجَرِ وَالْمَنَابِرِ سَبَّ السَّلَفِ[1] وَلَعْنَهُمْ وَأَكْرَهَ النَّاسَ عَلَى نَقْشِ ذَلِكَ وَكِتَابَتِهِ بِالْأَصْبَاغِ فِي سَائِرِ الْمَوَاضِعِ. وَأَقْبَلَ النَّاسُ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِي فَدَخَلُوا فِي الدَّعْوَةِ وَجُعِلَ لَهُمْ يَوْمَانِ فِي الْأُسْبُوعِ وَكَثُرَ الِازْدِحَامُ عَلَى ذَلِكَ وَمَاتَ فِيهِ جَمَاعَةٌ

وَمَنَعَ النَّاسَ مِنَ الْخُرُوجِ بَعْدَ الْمَغْرِبِ فِي الطُّرُقَاتِ وَأَنْ لَا يَظْهَرَ أَحَدٌ بِهَا لِبَيْعٍ وَلَا شِرَاءٍ. فَخَلَتِ الطُّرُقُ مِنَ الْمَارَّةِ وَكَسِرَتْ أَوَانِي الْخُمُورِ وَأُرِيقَتْ مِنْ سَائِرِ الْأَمَاكِنِ. وَاشْتَدَّ خَوْفُ النَّاسِ بِأَسْرِهِمْ وَقَوِيَتِ الشَّنَاعَاتُ وَزَادَ الِاضْطِرَابُ فَاجْتَمَعَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ وَغَيْرِهِمْ تَحْتَ الْقَصْرِ وَضَجُّوا يَسْأَلُونَ

---

[1] اسم الملف يُطلق على ما ذهب البوائل على عائشة زوجة محمد وأبي بكر وعمر وعثمان وطلحة وابن الزبير ومعاوية وعمرو بن العاص

www.marefa.org

الغزو فكتبت عدة أمانات لجميع الطوائف من أهل الدولة وغيرهم من الباعة والرعية. وأمر بقتل الكلاب فقتل منها ما لا يحصى حتى فقدت. وفتحت دار الحكمة بالقاهرة وحمل إليها الكتب ودخل إليها الناس واشتد الطلب على الركابية المستخدمين في الركاب وقتل منهم كثيرا. ثم عفا عنهم وكتب لهم أمانات ومنع الناس كافة من الدخول من باب القاهرة وهم ركاب. ومنع المكارين أن يدخلوا بحميرهم إلى القاهرة ومنع الناس من المشي ملاصق القصر. وقتل قاضي القضاة حسين بن النعمان وأحرق بالنار. وقتل عدد من الناس كبير ضربت أعناقهم

وفي سنة ستة وتسعين خرج أبو ركوة يدعو إلى نفسه وادعى أنه من بني أمية. فقام بأمره بنو فزم لكثرة ما أوقع بهم الحاكم وبايعوه واستجاب له لواته ومزاته وزناته وأخذ برقة وهزم جيوش الحاكم غير مرة وغنم ما معهم. فخرج لقتاله القائد فضل بن صالح في ربيع الأول وواقعه فانهزم منه فضل واشتد الاضطراب بمصر وتزايدت الأسعار. واشتد الاستعداد لمحاربة أبي ركوة ونزلت العساكر بالجيزة. وسار أبو ركوة فواقعه القائد فضل وقتل عدة ممن معه. فعظم الأمر واشتد الخوف وخرج الناس فباتوا في الشوارع خوفا من هجوم عساكر أبي ركوة. واستمرت الحروب فانهزم أبو ركوة في ثالث ذي الحجة على الفيوم. وتبعه القائد فضل بعد أن بعث إلى القاهرة ستة آلاف رأس ومائة أسير إلى أن قبض عليه في بلاد النوبة. وأحضر إلى القاهرة فقتل بها وخلع على القائد فضل وسيرت البشائر بقتله في الأعمال

www.marefa.org

وَفِي سَنَةِ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَثِمِائَةٍ أَمَرَ بِحَسْبِ السَّلَفِ فَفُعِلَ سَائِرُ مَا كُتِبَ مِنْ ذَلِكَ وَغَلَتِ الْأَسْعَارُ لِنَقْصِ النِّيلِ. فَإِنَّهُ بَلَغَ سِتَّةَ عَشَرَ أُصْبُعًا مِنْ سَبْعَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا ثُمَّ نَقَصَ وَمَاتَ بَعْضُ النَّاسِ فِي ذِي الْحِجَّةِ وَاشْتَدَّ الْغَلَاءُ فِي ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَوَلِيَ عَلِيُّ ابْنُ فَلَاحٍ دِمَشْقَ. وَقُبِضَ جَمِيعُ مَا هُوَ مَحْبُوسٌ عَلَى الْكَنَائِسِ. وَجُعِلَ فِي الدِّيوَانِ وَأُحْرِقَ عِدَّةُ صُلْبَانٍ عَلَى بَابِ الْجَامِعِ بِمِصْرَ وَكُتِبَ إِلَى سَائِرِ الْأَعْمَالِ بِذَلِكَ. وَفِي سَادِسَ عَشَرَ رَجَبٍ قُرِّرَ مَالِكُ بْنُ سَعِيدٍ الْفَارِقِيُّ فِي وَظِيفَةِ قَضَاءِ الْقُضَاةِ وَتَسَلَّمَ كُتُبَ الدَّعْوَةِ الَّتِي تُقْرَأُ بِالْقَصْرِ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ وَصُرِفَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ النُّعْمَانِ عَنْ ذَلِكَ .....

وَتَوَقَّفَتْ زِيَادَةُ النِّيلِ وَاسْتَسْقَى النَّاسُ مَرَّتَيْنِ. وَأُمِرَ بِإِبْطَالِ عِدَّةِ مُكُوسٍ وَتَعَذَّرَ وُجُودُ الْخُبْزِ لِغَلَائِهِ وَقِلَّتِهِ. وَفُتِحَ الْخَلِيجُ فِي رَابِعِ تُوتِ وَأَلْقَاهُ عَلَى خَمْسَ عَشْرَةَ ذِرَاعًا فَاشْتَدَّ الْغَلَاءُ. وَفِي تَاسِعِ مُحَرَّمٍ وَهُوَ نِصْفُ تُوتٍ نَقَصَ مَاءُ النِّيلِ وَلَمْ يُوفِ سِتَّ عَشْرَةَ ذِرَاعًا. فَمَنَعَ النَّاسَ كَافَّةً مِنَ التَّظَاهُرِ بِالْفَسَادِ وَمِنْ رُكُوبِ الْبَحْرِ لِلتَّفَرُّجِ. وَمَنَعَ مِنْ بَيْعِ الْمُسْكِرَاتِ وَمَنَعَ كَافَّةً مِنَ الْخُرُوجِ قَبْلَ الْفَجْرِ وَبَعْدَ الْعِشَاءِ إِلَى الطُّرُقَاتِ. وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى الْكَافَّةِ لِشِدَّةِ مَا دَاخَلَهُمْ مِنَ الْخَوْفِ مَعَ شِدَّةِ الْغَلَاءِ وَتَزَايُدِ الْأَمْرَاضِ فِي النَّاسِ وَالْمَوْتِ .....

وَتَزَايَدَتِ الْأَمْرَاضُ وَكَثُرَ الْمَوْتُ وَعَزَّ الْأَدْوِيَةُ وَأُعِدَّتِ الْمُكُوسُ الَّتِي رُفِعَتْ وَهُدِمَتْ كَنَائِسُ كَانَتْ بِطَرِيقِ الْمُقَسِ. وَهُدِمَتْ كَنِيسَةُ بِحَارَةِ الرُّومِ مِنَ الْقَاهِرَةِ وَنُهِبَ مَا فِيهَا وَقُتِلَ كَبِيرٌ مِنَ الْخُدَّامِ وَالْكُتَّابِ

www.marefa.org

وَمِنَ الصَّقَالِبَةِ بَعْدَ مَا قُطِعَتْ أَيْدِي بَعْضِهِمْ مِنَ الْكُتَّابِ بِالسَّاطُورِ عَلَى خَشَبَةٍ بِوَسَطِ الذِّرَاعِ وَقُتِلَ الْقَائِدُ فَضْلُ بْنُ صَالِحٍ فِي ذِي الْقَعْدَةِ.
وَفِي حَادِي عَشَرَ صَفَرٍ صُرِفَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيُّ وَقُرِّرَ مَكَانَهُ أَبْنُ عَبْدُونَ النَّصْرَانِيُّ الْكَاتِبُ وَلُقِّبَ بِالْكَافِي. فَوُقِّعَ عَنِ الْحَاكِمِ وَنَظَرَ.
وَكُتِبَ بِهَدْمِ كَنِيسَةِ الْقِيَامَةِ وَجَدَّدَ دِيوَانًا يُقَالُ لَهُ الدِّيوَانُ الْمُنْدَرِسُ بِرَسْمِ مَنْ يَقْبِضُ مَالَهُ مِنَ الْمُتَوَلِّينَ وَغَيْرِهِمْ. وَكَثُرَتِ الْأَمْرَاضُ وَعَزَّتِ الْأَدْوِيَةُ وَشُهِرَ جَمَاعَةٌ وُجِدَ عِنْدَهُمْ قُفَّاعٌ وَمُلُوخِيَا وَدِلِنْسٌ وَنُرْمُسٌ وَضُرِبُوا وَهُدِمَ دَيْرُ الْقَصْرِ وَاشْتَدَّ الْأَمْرُ عَلَى النَّصَارَى وَالْيَهُودِ فِي إِلْزَامِهِمْ لُبْسَ الْغِيَارِ. وَكُتِبَ بِإِبْطَالِ أَخْذِ الْخُمْسِ وَالْفَجَاوَى وَالْفِطْرَةِ وَقَرَّ الْحُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ وَأَوْلَادُهُ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ النُّعْمَانِ. وَقَرَّ أَبُو الْقَاسِمِ الْحُسَيْنُ بْنُ الْمَغْرِبِيِّ. وَكُتِبَتْ عِدَّةُ أَمَانَاتٍ لِعِدَّةِ طَوَائِفَ مِنْ شِدَّةِ خَوْفِهِمْ وَقُطِعَتْ قِرَاءَةُ مَجَالِسِ الْحِكْمَةِ بِالْقَصْرِ. وَوَقَعَ التَّشْدِيدُ فِي الْمَنْعِ مِنَ الْمُسْكِرَاتِ وَقُتِلَ كَثِيرٌ مِنَ الْكُتَّابِ وَالْخُدَّامِ وَالْفَرَّاشِينَ وَقُتِلَ صَالِحُ بْنُ عَلِيٍّ الرُّوذْبَارِيُّ فِي شَوَّالٍ

وَفِي رَابِعِ الْمُحَرَّمِ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِمِائَةٍ صُرِفَ الْكَافِي بْنُ عَبْدُونَ عَنِ النَّظَرِ وَالتَّوْقِيعِ وَقُرِّرَ بَدَلَهُ أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ الْقَشُورِيُّ الْكَاتِبُ فِي الْوِسَاطَةِ وَالسِّفَارَةِ. وَحَضَرَ حُسَيْنُ بْنُ جَوْهَرٍ وَعَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ النُّعْمَانِ إِلَى الْقَاهِرَةِ فَأُكْرِمَ ثُمَّ صُرِفَ ابْنُ الْقَشُورِيِّ بَعْدَ عَشَرَةِ أَيَّامٍ مِنِ اسْتِقْرَارِهِ وَضُرِبَ عُنُقُهُ. وَقُرِّرَ بَدَلَهُ زَرْعَةُ بْنُ عِيسَى بْنِ نَسْطُورَسَ الْكَاتِبُ النَّصْرَانِيُّ وَلُقِّبَ بِالشَّافِي. وَمُنِعَ النَّاسُ مِنْ رُكُوبِ الْمَرَاكِبِ فِي الْخَلِيجِ وَبُدِّدَتْ

www.marefa.org

أبواب الدور التي على الخليج والطاقات، وأضيف إلى قاضي القضاة مالك بن سعيد النظر في المظالم، وأعيدت مجالس الحكمة وأخذ مال النجوى وقتل ابن عبدون وقبض ماله، وضرب جماعة وشهروا من أجل بيعهم الملوخيا والسمك الذي به لا فقر له وبسبب بيع النبيذ، وقتل الحسين بن جوهر وعبد العزيز بن النعمان في جمادى الآخرة في سنة إحدى وأربعمائة وأحيط بأموالهما وأبطلت عدة مكوس، ومنع الناس من الغناء واللهو ومن بيع المغنيات ومن الاجتماع بالصحراء، وفي هذه السنة خلع حسان بن مفرج بن دغفل بن الجراح طاعة الحاكم وأقام أبا الفتوح حسن بن جعفر الحسني أمير مكة خليفة وبايعوه ودعا الناس إلى مبايعته وقاتل عساكر الحاكم

وفي سنة اثنتين وأربعمائة منع من بيع الزبيب وكتب بالمنع من حمله وألقي في بحر النيل منه شيء كثير وأحرق منه كثير، ومنع النساء من زيارة القبور فلم ير في الأعياد بالمقابر امرأة واحدة، ومنع من الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج ومنع من بيع العنب إلا أربعة أرطال فما دونها، ومنع من عصيره وطرح كثير منه ودبس في الطرقات وغرق كثير منه في النيل، ومنع من حمله وقطعت كروم الجيزة كلها وسير إلى الجهات بذلك

وفي سنة ثلث وأربعمائة غلا السعر وازدحم الناس على الخبز وفي ثاني ربيع الأول منها هلك عيسى بن نسطورس، فأمر النصارى بلبس السواد وتعليق الصلبان الخشب في أعناقهم وأن يكون الصليب ذراعا في

www.marefa.org

مِنْهَا وَزِنَتُهُ خَمْسَةُ أَرْطَالٍ وَأَنْ يَكُونَ مَكْشُوفًا بِحَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ. وَمَنَعُوا
مِنْ رُكُوبِ الْخَيْلِ وَأَنْ يَكُونَ رُكُوبُهُمُ الْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ بِالسُّرُوجِ الْخَشَبِ
وَالسُّيُورِ السُّودِ بِغَيْرِ حَلْيٍ وَأَنْ يَشُدُّوا الزَّنَانِيرَ وَلَا يَسْتَخْدِمُوا مُسْلِمًا وَلَا
يَشْتَرُوا عَبْدًا وَلَا أَمَةً وَتُتَّبَعُ آثَارُهُمْ فِي ذَلِكَ فَأَسْلَمَ مِنْهُمْ عِدَّةٌ. وَقُرِئَ
حُسَيْنُ بْنُ طَاهِرٍ الْوَزَّانُ فِي الْوَسَاطَةِ وَالْتَّوْقِيعِ عَنِ الْحَاكِمِ فِي تَاسِعِ
وَعِشْرِي رَبِيعٍ الْأَوَّلِ مِنْهَا وَلُقِّبَ بِأَمِينِ الْأُمَنَاءِ. وَنَقَشَ الْحَاكِمُ عَلَى خَاتَمِهِ
بِنَصْرِ اللَّهِ الْعَظِيمِ الْوَلِيِّ يَنْتَصِرُ الْإِمَامُ أَبُو عَلِيٍّ. وَضُرِبَ جَمَاعَةٌ بِسَبَبِ
اللَّعِبِ بِالشِّطْرَنْجِ وَهُدِمَتِ الْكَنَائِسُ وَأُخِذَ جَمِيعُ مَا فِيهَا وَمَا لَهَا مِنَ
الرِّبَاعِ. وَكُتِبَ بِذَلِكَ إِلَى الْأَعْمَالِ فَهُدِمَتْ بِهَا وَفِيهَا لَحِقَ أَبُو الْفُتُوحِ
بِمَكَّةَ وَدَعَا لِلْحَاكِمِ وَضَرَبَ السِّكَّةَ بِاسْمِهِ. وَأَمَرَ الْحَاكِمُ أَنْ لَا يُقَبِّلَ أَحَدٌ لَهُ
الْأَرْضَ وَلَا يُقَبِّلَ رِكَابَهُ وَلَا يَهُمَّ عِنْدَ السَّلَامِ عَلَيْهِ فِي الْمَوَاكِبِ. فَإِنَّ
الْإِيمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ لَحْظٌ مِنْ صَنِيعِ الرُّومِ. وَأَنْ لَا يُزَادَ عَلَى تَوْظِيمِ
السَّلَامِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ. وَلَا يُصَلِّيَ عَلَيْهِ أَحَدٌ فِي
مُكَاتَبَتِهِ وَلَا مُخَاطَبَتِهِ وَيُقْتَصَرُ فِي مُكَاتَبَتِهِ عَلَى سَلَامُ اللَّهِ وَتَحِيَّاتُهُ وَنَوَامِي
بَرَكَاتِهِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَيُدْعَى لَهُ بِمَا يَلِيقُ مِنَ الدُّعَاءِ فَقَطْ لَا غَيْرُ.
فَلَمْ يَقُلِ الْخُطَبَاءُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ سِوَى اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ الْمُصْطَفَى وَسَلِّمْ
عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ الْمُرْتَضَى. اللَّهُمَّ وَسَلِّمْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ابْنِ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ. اللَّهُمَّ اجْعَلْ أَفْضَلَ سَلَامِكَ عَلَى عَبْدِكَ وَخَلِيفَتِكَ. وَمَنَعَ
مِنْ ضَرْبِ الطُّبُولِ وَالْأَبْوَاقِ حَوْلَ الْقَصْرِ. فَصَارُوا يَطُوفُونَ بِغَيْرِ طَبْلٍ
وَلَا بُوقٍ وَكَثُرَتْ إِنْعَامَاتُ الْحَاكِمِ. فَتَوَقَّفَ أَمِينُ الْأُمَنَاءِ حُسَيْنُ بْنُ

www.marefa.org

طَاهِرِ ٱلْوَزَّانُ فِي إِمْضَائِهَا فَكَتَبَ إِلَيْهِ ٱلْحَاكِمُ بِخَطِّهِ بَعْدَ ٱلْبَسْمَلَةِ

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ كَمَا هُوَ أَهْلُهُ

أَصْبَحْتُ لَا أَرْجُو وَلَا أَتَّقِي ... إِلَّا إِلٰهِي وَلَهُ ٱلْفَضْلُ

جَدِّي نَبِيِّي وَإِمَامِي أَبِي ... وَدِينِيَ ٱلْإِخْلَاصُ وَٱلْعَدْلُ

ٱلْمَالُ مَالُ ٱللّٰهِ وَٱلْخَلْقُ عِبَادُ ٱللّٰهِ وَنَحْنُ أُمَنَاؤُهُ فِي ٱلْأَرْضِ أَطْلِقْ أَرْزَاقَ ٱلنَّاسِ وَلَا تَقْطَعْهَا وَٱلسَّلَامُ. وَرَكِبَ ٱلْحَاكِمُ فِي يَوْمِ عِيدِ ٱلْفِطْرِ إِلَى ٱلْمُصَلَّى بِغَيْرِ زِينَةٍ وَلَا جَنَائِبَ وَلَا أُبَّهَةٍ سِوَى عَشَرَةِ أَفْرَاسٍ تُقَادُ بِسُرُوجٍ وَلُجُمٍ مُحَلَّاةٍ بِفِضَّةٍ خَفِيفَةٍ وَبُنُودٍ سَابِجَةٍ وَمِظَلَّةٍ بَيْضَاءَ بِغَيْرِ ذَهَبٍ وَعَلَيْهِ بَيَاضٌ بِغَيْرِ طِرَازٍ وَلَا ذَهَبٍ وَلَا جَوْهَرٍ فِي عِمَامَتِهِ وَلَمْ يُفْرَشِ ٱلْمِنْبَرُ. وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنْ سَبِّ ٱلسَّلَفِ وَضَرَبَ فِي ذٰلِكَ وَشَهَّرَ وَصَلَّى صَلَاةَ عِيدِ ٱلنَّحْرِ كَمَا صَلَّى صَلَاةَ ٱلْفِطْرِ مِنْ غَيْرِ أُبَّهَةٍ وَنَحَرَ عَنْهُ عَبْدُ ٱلرَّحِيمِ بْنُ إِلْيَاسَ بْنِ أَحْمَدَ ٱلْمَهْلَبِيُّ وَأَكْثَرَ ٱلْحَاكِمُ مِنَ ٱلرُّكُوبِ إِلَى ٱلصَّحْرَاءِ بِحِذَاءٍ فِي رِجْلَيْهِ وَقُوطَةٍ عَلَى رَأْسِهِ

وَفِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ أَلْزَمَ ٱلْيَهُودَ أَنْ يَكُونَ فِي أَعْنَاقِهِمْ جَرَسٌ إِذَا دَخَلُوا إِلَى ٱلْحَمَّامِ وَأَنْ يَكُونَ فِي عُنُقِ ٱلنَّصَارَى صُلْبَانٌ وَمَنَعَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْكَلَامِ فِي ٱلنُّجُومِ وَأَفْنَى ٱلْمُنَجِّمُونَ مِنَ ٱلطُّرُقَاتِ وَطُلِبُوا فَتَغَيَّبُوا وَنَفَوْا. وَكَثُرَتْ هِبَاتُ ٱلْحَاكِمِ وَصَدَقَاتُهُ وَعِتْقُهُ. وَأَمَرَ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَى بِٱلْخُرُوجِ مِنْ مِصْرَ إِلَى بِلَادِ ٱلرُّومِ وَغَيْرِهَا. وَأَقَامَ عَبْدُ ٱلرَّحِيمِ بْنُ إِلْيَاسَ وَلِيَّ ٱلْعَهْدِ وَأَمَرَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلسَّلَامِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عَلَى ٱبْنِ عَمِّ أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَوَلِيِّ عَهْدِ ٱلْمُسْلِمِينَ. وَصَارَ يَجْلِسُ بِمَكَانٍ فِي ٱلنَّصْرِ. وَصَارَ

www.marefa.org

ٱلْحَاكِمُ يَرْكَبُ بِذِرَاعَةِ صُوفٍ بَيْضَاءَ وَبِنَعْلٍ بِفُوطَةٍ وَفِي رِجْلِهِ حِذَاءٌ عَرَبِيٌّ بِفَبَالَيْنِ وَعَبْدُ ٱلرَّحِيمِ يَتَوَلَّى ٱلنَّظَرَ فِي أُمُورِ ٱلدَّوْلَةِ كُلِّهَا. وَأَفْرَطَ ٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْعَطَاءِ وَرَدَّ مَا كَانَ أَخَذَ مِنَ ٱلضِّيَاعِ وَٱلْأَمْلَاكِ لِأَرْبَابِهَا

وَفِي رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ أَمَرَ بِقَطْعِ يَدَيْ أَبِي ٱلْقَسِمِ ٱلْجَوْجَرَائِيِّ. وَكَانَ يَكْتُبُ لِلْقَائِدِ عَيْنٍ. ثُمَّ قُطِعَتْ يَدُ عَيْنٍ فَصَارَ مَنْطُوعَ ٱلْيَدَيْنِ وَبَعَثَ إِلَيْهِ ٱلْحَاكِمُ بَعْدَ قَطْعِ يَدَيْهِ بِآلَافٍ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلثِّيَابِ. ثُمَّ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمَرَ بِقَطْعِ لِسَانِهِ فَقُطِعَ وَأَبْطَلَ عِدَّةَ مُكُوسٍ وَقَتَلَ ٱلْكِلَابَ كُلَّهَا وَأَكْثَرَ مِنَ ٱلرُّكُوبِ فِي ٱللَّيْلِ وَمَنَعَ ٱلنِّسَاءَ مِنَ ٱلْمَشْيِ فِي ٱلطُّرُقَاتِ. فَلَمْ تُرَ ٱمْرَأَةٌ فِي طَرِيقٍ أَلْبَتَّةَ وَأَغْلَقْتَ حَمَّامَاتِهِنَّ وَمَنَعَ ٱلْأَسَاكِفَةَ مِنْ عَمَلِ خِفَافِهِنَّ وَتَعَطَّلَتْ حَوَائِجُهُنَّ وَٱشْتَدَّتِ ٱلْإِشَاعَةُ بِوُقُوعِ ٱلسَّبِّ فِي ٱلنَّاسِ فَتَهَارَبُوا وَغُلِّقَتِ ٱلْأَسْوَاقُ فَلَمْ يُبَعْ شَيْءٌ وَدُعِيَ لِعَبْدِ ٱلرَّحِيمِ بْنِ إِلْيَاسَ عَلَى ٱلْمَنَابِرِ وَضُرِبَتِ ٱلسِّكَّةُ بِٱسْمِهِ بِوِلَايَةِ ٱلْعَهْدِ

وَفِي سَنَةِ خَمْسٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ قُتِلَ مَالِكُ بْنُ سَعِيدٍ ٱلْفَارِقِيُّ فِي رَبِيعٍ ٱلْآخِرِ وَكَانَتْ مُدَّةُ نَظَرِهِ فِي قَضَاءِ ٱلْقُضَاةِ سِتَّ سِنِينَ وَتِسْعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشَرَةَ أَيَّامٍ وَبَلَغَ إِقْطَاعُهُ فِي ٱلسَّنَةِ خَمْسَةَ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ. وَتَزَايَدَ رُكُوبُ ٱلْحَاكِمِ حَتَّى كَانَ يَرْكَبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ عِدَّةَ مَرَارٍ. وَٱشْتَرَى ٱلْحَمِيرَ وَرَكِبَهَا بَدَلَ ٱلْخَيْلِ وَفِي جُمَادَى ٱلْآخِرَةِ مِنْهَا قَتَلَ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ طَاهِرٍ ٱلْوَزَّانَ. فَكَانَتْ مُدَّةُ نَظَرِهِ فِي ٱلْوَسَاطَةِ سَنَتَيْنِ وَشَهْرَيْنِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا. فَأَمَرَ أَصْحَابَ ٱلدَّوَاوِينِ بِلُزُومِ دَوَاوِينِهِمْ وَصَارَ ٱلْحَاكِمُ يَرْكَبُ حِمَارًا بِشَاشِيَةٍ مُكْشُوفَةٍ بِغَيْرِ عِمَامَةٍ. ثُمَّ أَقَامَ عَبْدَ ٱلرَّحِيمِ بْنَ أَبِي ٱلسَّيِّدِ ٱلْكَاتِبَ وَأَخَاهُ

www.marefa.org

أَبَا عَبْدِ اللهِ الْحُسَيْنَ فِي الْوَسَاطَةِ وَالسِّفَارَةِ وَأَقَرَّ فِي وَظِيفَةِ قَضَاءِ الْقُضَاةِ أَحْمَدَ بْنَ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي الْعَوَّامِ. وَخَرَجَ الْحَاكِمُ عَنِ الْحَدِّ فِي الْعَطَاءِ حَتَّى أَقْطَعَ نَوَاتِيَّةَ الْمَرَاكِبِ وَالْمَشَاعِلِيَّةَ وَبَنِي فَرُّخَ فِيمَا أَقْطَعَ الْإِسْكَنْدَرِيَّةَ وَالْجِيزَةَ وَنَوَاحِيَهَا. ثُمَّ قَتَلَ ابْنَيْ أَبِي السَّيِّدِ. وَكَانَتْ مُدَّةُ نَظَرِهِمَا اثْنَيْنِ وَسِتِّينَ يَوْمًا وَقَلَّدَ الْوَسَاطَةَ فَضْلَ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ الْفُرَاتِ. ثُمَّ قَتَلَهُ فِي الْيَوْمِ الْخَامِسِ مِنْ وِلَايَتِهِ وَغَلَبَ بَنُو فَرُّخَ عَلَى الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا. وَأَكْثَرَ الْحَاكِمُ مِنَ الْكَوْكَبِ فِي يَوْمٍ سِتَّ مَرَّاتٍ مَرَّةً عَلَى فَرَسٍ. وَمَرَّةً عَلَى حِمَارٍ وَمَرَّةً فِي مِحَفَّةٍ تُحْمَلُ عَلَى الْأَعْنَاقِ وَمَرَّةً فِي عَشَارِيٍّ عَلَى النِّيلِ بِغَيْرِ عِمَامَةٍ. وَأَكْثَرَ مِنْ إِقْطَاعِ الْجُنْدِ وَالْعَبِيدِ الْإِقْطَاعَاتِ. وَأَقَامَ ذَا الرِّئَاسَتَيْنِ قُطْبَ الدَّوْلَةِ أَبَا الْحَسَنِ عَلِيَّ بْنَ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحٍ فِي الْوَسَاطَةِ وَالسِّفَارَةِ وَوَلَّى عَبْدَ الرَّحِيمِ بْنَ إِلْيَاسَ دِمَشْقَ. فَسَارَ إِلَيْهَا فِي جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فَأَقَامَ فِيهَا شَهْرَيْنِ. ثُمَّ هَجَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ فَقَتَلُوا جَمَاعَةً مِمَّنْ عِنْدَهُ وَأَخَذُوهُ فِي صُنْدُوقٍ وَحَمَلُوهُ إِلَى مِصْرَ ثُمَّ أُعِيدَ إِلَى دِمَشْقَ فَأَقَامَ بِهَا إِلَى لَيْلَةِ عِيدِ الْفِطْرِ وَأُخْرِجَ مِنْهَا

وَلَمَّا كَانَ لِلَيْلَتَيْنِ بَقِيَتَا مِنْ شَوَّالِ سَنَةِ إِحْدَى عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ فُقِدَ الْحَاكِمُ وَقِيلَ أَنَّ أُخْتَهُ قَتَلَتْهُ وَلَيْسَ بِصَحِيحٍ. وَكَانَ عُمْرُهُ سِتًّا وَثَلَاثِينَ سَنَةً وَسَبْعَةَ أَشْهُرٍ وَكَانَتْ مُدَّةُ خِلَافَتِهِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً وَشَهْرًا. وَكَانَ جَوَادًا سَفَّاكًا قَتَلَ عَدَدًا لَا يُحْصَوْنَ. وَكَانَتْ سِيرَتُهُ مِنْ أَعْجَبِ السِّيَرِ وَخُطِبَ لَهُ عَلَى مَنَابِرِ مِصْرَ وَالشَّامِ وَإِفْرِيقِيَّةَ وَالْحِجَازِ. وَكَانَ يَشْتَغِلُ بِعُلُومِ الْأَوَائِلِ وَيَنْظُرُ فِي النُّجُومِ وَعَمِلَ رَمَدًا وَاتَّخَذَ بَيْتًا فِي الْمُقَطَّمِ يَنْقَطِعُ

www.marefa.org

فِيهِ عَنِ الْأَمْرِ لِذَلِكَ وَيُقَالُ إِنَّهُ كَانَ يَعْتَرِيهِ جَفَافٌ فِي جِمَاعِهِ فَلِذَلِكَ كَثُرَ تَنَاقُضُهُ وَمَا أَحْسَنَ مَا قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ كَانَتْ أَفْعَالُهُ لَا تَعْلَلُ وَأَحْلَامُ وَسَاوِسَ لَا تُؤَوَّلُ

وَقَالَ الْمُسَبِّحِيُّ فِي مُحَرَّمِ سَنَةِ خَمْسَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِمِائَةٍ قُبِضَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ بَنِي حُسَيْنٍ ثَارَ بِالصَّعِيدِ الْأَعْلَى فَأَقَرَّ أَنَّهُ قَتَلَ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ فِي جُمْلَةِ أَرْبَعَةِ أَنْفُسٍ تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَأَظْهَرَ قِطْعَةً مِنْ جِلْدَةِ رَأْسِ الْحَاكِمِ وَقِطْعَةً مِنَ الْفُوطَةِ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِ. فَقِيلَ لَهُ لِمَ قَتَلْتَهُ: فَقَالَ غَيْرَةً لِلَّهِ وَلِلْإِسْلَامِ: فَقِيلَ كَيْفَ قَتَلْتَهُ. فَأَخْرَجَ سِكِّينًا ضَرَبَ بِهَا فُؤَادَهُ وَقَتَلَ نَفْسَهُ وَقَالَ هَكَذَا قَتَلْتُهُ. وَقَطَعَ رَأْسَهُ وَأَنْفَذَهُ إِلَى الْحَضْرَةِ مَعَ مَا وُجِدَ مَعَهُ. وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ فِي خَبَرِ قَتْلِ الْحَاكِمِ لَا مَا يَحْكِيهِ الْمُشَارِقَةُ فِي كُتُبِهِمْ مِنْ أَنَّ أُخْتَهُ قَتَلَتْهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

مِنْ ذِكْرِ الْحَارَاتِ

عِمَارَةُ تَتَعَلَّقُ بِفُتُوحَاتِ هَفْتِكِينَ وَانْكِسَارَاتِهِ

حَارَةُ الدَّيْلَمِ عُرِفَتْ بِذَلِكَ لِنُزُولِ الدَّيْلَمِ الْوَاصِلِينَ مَعَ هَفْتِكِينَ التُّرْكِيِّ حِينَ قَدِمَ وَمَعَهُ أَوْلَادُ مَوْلَاهُ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ الْبُوَيْهِيِّ وَجَمَاعَةٌ مِنَ الدَّيْلَمِ وَالْأَتْرَاكِ فِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ وَسَكَنُوا بِهَا فَعُرِفَتْ بِهِمْ هَفْتِكِينُ وَيُقَالُ لَهُ الْفَتِكِينُ التُّرْكِيُّ التُّرَابِيُّ غُلَامُ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ أَحْمَدَ بْنِ بُوَيْهِ تَرَقَّى فِي الْخَدَمِ حَتَّى غَلَبَ فِي بَغْدَادَ عَلَى عَزِّ الدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ بْنِ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ. وَكَانَ فِيهِ شَجَاعَةٌ وَثَبَاتٌ فِي الْحَرْبِ. فَلَمَّا سَارَتِ الْأَتْرَاكُ مِنْ بَغْدَادَ لِحَرْبِ الدَّيْلَمِ جَرَى بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَظِيمٌ اشْتَهَرَ فِيهِ هَفْتِكِينُ إِلَّا أَنَّ

www.marefa.org

أصحابه انهزموا عنه وصار في طائفة قليلة فولّى بمن معه من الأتراك وهم نحو الأربعمائة. فسار على الرحبة وأخذ منها على البرّ إلى أن قرب من جوسية إحدى قرى الشام. وقد وقع في قلوب العربان منه مهابة. فخرج إليه ظالم بن مرثود العقيلي من بعلبك وبعث إلى أبي محمود إبرهيم بن جعفر أمير دمشق من قبل الخليفة المعز لدين الله يعلمه بقدوم هفتكين من بغداد لإقامة الخطبة العباسية وخوفه منه. فأنفذ إليه عسكرا وسار إلى ناحية جوسية يريد هفتكين. وسار بشارة الخاصيّ من قبل أبي المعالي بن حمدان عونا لهفتكين فردّ ظالم إلى بعلبك من غير حرب.

وسار بشارة بهفتكين إلى حمص فحمل إليه أبو المعالي وتلقّاه وأكرمه وكان قد ثار بدمشق جماعة من أهل الدعارة والفساد وحاربوا عمّال السلطان ولّدت أمرهم وكان كبيرهم يعرف بابن المأورد. فلمّا بلغهم خبر هفتكين بعثوا إليه من دمشق إلى حمص يستدعونه ووعدوه بالقيام معه على عساكر المعز وإخراجهم من دمشق ليلي عليهم فوقع ذلك منه بالموافقة. وسار حتّى نزل ثنية العقاب لأيام بقيت من شعبان سنة أربع وستين وثلثمائة. فبلغ عسكر المعز خبر الفرنج وأنهم قد قصدوا طرابلس فساروا بأجمعهم إلى لقاء العدوّ. ونزل هفتكين على دمشق من غير حرب فأقام أيّاما. ثمّ سار يريد محاربة ظالم ففرّ منه ودخل هفتكين بعلبك فطرقه العدوّ من الروم والفرنج وانتهبوا بعلبك وأحرقوا وذلك في شهر رمضان. وانتشروا في أعمال بعلبك والبقاع

www.marefa.org

يَقْتُلُونَ وَيَأْسِرُونَ وَيُحْرِقُونَ وَقَصَدُوا دِمَشْقَ وَقَدِ ٱلْتَقَى بِهَا هَنْتَكِينُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ أَهْلُ دِمَشْقَ وَسَأَلُوهُمُ ٱلْكَفَّ عَنِ ٱلْبَلَدِ وَٱلْتَزَمُوا بِمَالٍ. فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ هَنْتَكِينُ وَأَهْدَى إِلَيْهِمْ وَتَكَلَّمَ مَعَهُمْ فِي أَنَّهُ لَا يَسْتَطِيعُ جِبَايَةَ ٱلْمَالِ لِقُوَّةِ ٱبْنِ ٱلْمَاوَرْدِ وَأَصْحَابِهِ وَأَغْرَى مَلِكَ ٱلرُّومِ فَقَبَضَ عَلَيْهِ وَقَيَّدَهُ وَعَادَ فَجَبَى ٱلْمَالَ مِنْ دِمَشْقَ بِٱلْعُنْفِ وَحَمَلَ إِلَى مَلِكِ ٱلرُّومِ ثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ وَرَحَلَ إِلَى بَيْرُوتَ ثُمَّ إِلَى طَرَابُلُسَ

فَتَمَكَّنَ هَنْتَكِينُ مِنْ دِمَشْقَ وَأَقَامَ بِهَا ٱلدَّعْوَةَ لِأَبِي بَكْرٍ عَبْدِ ٱلْكَرِيمِ ٱلطَّائِعِ بْنِ ٱلْمُطِيعِ ٱلْعَبَّاسِيِّ وَسَيَّرَ إِلَى ٱلْعَرَبِ ٱلسَّرَايَا فَظَفِرَتْ وَعَادَتْ إِلَيْهِ بِمَنْ أَسَرَتْهُ مِنْ رِجَالِ ٱلْعَرَبِ وَقَتَلَهُمْ صَبْرًا. وَكَانَ مَخُوفًا مِنَ ٱلْمُعِزِّ. فَكَاتَبَ ٱلْقَرَامِطَةَ يَسْتَدْعِيهِمْ مِنَ ٱلْأَحْسَاءِ لِلْقُدُومِ عَلَيْهِ لِمُحَارَبَةِ عَسَاكِرِ ٱلْمُعِزِّ وَمَا زَالَ بِهِمْ حَتَّى وَافَوْا دِمَشْقَ فِي سَنَةِ خَمْسٍ وَسِتِّينَ وَنَزَلُوا عَلَى ظَاهِرِهَا وَمَعَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ أَصْحَابِ هَنْتَكِينَ كَانُوا قَدْ تَشَتَّتُوا فِي ٱلْبِلَادِ فَنَوَى بِهِمْ وَلَقِيَ ٱلْقَرَامِطَةَ وَحَمَلَ إِلَيْهِمْ وَسُرُّوا بِهِمْ. فَأَقَامُوا عَلَى دِمَشْقَ أَيَّامًا ثُمَّ رَحَلُوا نَحْوَ ٱلرَّمْلَةِ وَبِهَا أَبُو مَحْمُودٍ فَلَحِقَ بِيَافَا وَنَزَلَ ٱلْقَرَامِطَةُ ٱلرَّمْلَةَ وَنَصَبُوا ٱلْقِتَالَ عَلَى يَافَا حَتَّى كَلَّ ٱلْفَرِيقَانِ وَسَئِمُوا جَمِيعًا مِنْ طُولِ ٱلْحَرْبِ وَسَارَ هَنْتَكِينُ عَلَى ٱلسَّاحِلِ وَنَزَلَ صَيْدَا وَبِهَا ظَالِمُ بْنُ مَرْهُوبٍ ٱلْعُقَيْلِيُّ وَٱبْنُ ٱلشَّيْخِ مِنْ قِبَلِ ٱلْمُعِزِّ. فَقَاتَلَهُمْ قِتَالًا شَدِيدًا أُهْزِمَ مِنْهُ ظَالِمٌ إِلَى صُورَ وَقُتِلَ بَيْنَ ٱلْفَرِيقَيْنِ نَحْوُ أَرْبَعَةِ آلَافِ رَجُلٍ. فَقَطَعَ أَيْدِيَ ٱلْقَتْلَى مِنْ عَسَاكِرِ ٱلْمُعِزِّ وَسَيَّرَهَا إِلَى دِمَشْقَ فَطِيفَ بِهَا. ثُمَّ سَارَ عَنْ صَيْدَا يُرِيدُ عَكَّا وَبِهَا عَسْكَرُ ٱلْمُعِزِّ

www.marefa.org

وَكَانَ قَدْ مَاتَ الْمُعِزُّ فِي رَبِيعٍ الْآخِرِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ الْعَزِيزُ بِاللَّهِ وَسَيَّرَ جَوْهَرًا الْقَائِدَ فِي عَسْكَرٍ عَظِيمٍ إِلَى قِتَالِ هَفْتِكِينَ وَالْقَرَامِطَةِ. فَبَلَغَ ذَلِكَ الْقَرَامِطَةَ وَهُمْ عَلَى الرَّمْلَةِ وَوَصَلَ الْخَبَرُ بِمَسِيرِهِ إِلَى هَفْتِكِينَ وَهُوَ عَلَى عَكَّا فَخَافَ الْقَرَامِطَةُ وَقَرُّوا عَنْهَا فَنَزَلَهَا جَوْهَرٌ وَسَارَ مِنَ الْقَرَامِطَةِ إِلَى الْأَحْسَاءِ الَّتِي بِلَادُهُمْ جَاعَةٌ وَتَأَخَّرَ عِدَّةٌ. وَسَارَ هَفْتِكِينُ مِنْ عَكَّا إِلَى طَبَرِيَّةَ وَقَدْ عَلِمَ بِمَسِيرِ الْقَرَامِطَةِ وَتَأَخُّرِ بَعْضِهِمْ فَاجْتَمَعَ بِهِمْ فِي طَبَرِيَّةَ وَاسْتَعَدَّ لِلِقَاءِ جَوْهَرٍ وَجَمَعَ الْأَقْوَاتَ مِنْ بِلَادِ حَوْرَانَ وَالْبُثَنِيَّةِ وَأَدْخَلَهَا إِلَى دِمَشْقَ وَسَارَ إِلَيْهَا فَتَحَصَّنَ بِهَا. وَنَزَلَ جَوْهَرٌ عَلَى ظَاهِرِ دِمَشْقَ لِثَمَانٍ بَقِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ وَبَنَى عَلَى مُعَسْكَرِهِ سُورًا وَحَفَرَ خَنْدَقًا عَظِيمًا وَجَعَلَ لَهُ أَبْوَابًا وَجَمَعَ هَفْتِكِينُ النَّاسَ لِلْقِتَالِ. وَكَانَ قَدْ تَعَيَّنَ بَعْدَ ابْنِ الْمَاوَرْدِ رَجُلٌ يُعْرَفُ بِغُلَامِ الشَّرَابِيِّ وَصَارَ فِي عِدَّةٍ وَافِرَةٍ مِنَ الدُّعَّارِ فَأَعَانَهُ هَفْتِكِينُ وَقَوَّاهُ وَأَمَدَّهُ بِالسِّلَاحِ وَغَيْرِهِ. وَوَقَعَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ جَوْهَرٍ حُرُوبٌ عَظِيمَةٌ طَوِيلَةٌ إِلَى يَوْمِ الْحَادِي عَشَرَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ الْأَوَّلِ سَنَةَ سِتٍّ وَسِتِّينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ

فَاخْتَلَّ أَمْرُ هَفْتِكِينَ وَهَمَّ بِالْفِرَارِ. ثُمَّ إِنَّهُ اسْتَظْهَرَ وَوَرَدَتِ الْأَخْبَارُ بِقُدُومِ الْحَسَنِ بْنِ أَحْمَدَ الْقَرْمَطِيِّ إِلَى دِمَشْقَ وَطَلَبَ جَوْهَرٌ الصُّلْحَ عَلَى أَنْ يَرْحَلَ عَنْ دِمَشْقَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتْبَعَهُ أَحَدٌ. وَذَلِكَ أَنَّهُ رَأَى أَمْوَالَهُ قَدْ قَلَّتْ وَهَلَكَ كَثِيرٌ مِمَّا كَانَ فِي عَسْكَرِهِ حَتَّى صَارَ أَكْثَرُ عَسْكَرِهِ رَجَّالَةً وَأَعْوَزَهُمُ الْعَلَفُ وَخَشِيَ قُدُومَ الْقَرَامِطَةِ. فَأَجَابَهُ هَفْتِكِينُ وَقَدْ عَظُمَ فَرَحُهُ وَاشْتَدَّ سُرُورُهُ. فَرَحَلَ فِي ثَالِثِ جُمَادَى الْأُولَى وَجَدَّ فِي السَّيْرِ وَقَدْ

www.marefa.org

قَرُبَ ٱلْقَرْمَطِيُّ فَأَنَاخَ بِطَبَرِيَّةَ. فَبَلَغَ ذٰلِكَ ٱلْقَرْمَطِيَّ فَقَصَدَهُ وَقَدْ سَارَ عَنْهَا إِلَى ٱلرَّمْلَةِ. فَبَعَثَ إِلَيْهِ بِسَرِيَّةٍ كَانَتْ لَهَا مَعَ جَوْهَرٍ وَقْعَةٌ قُتِلَ فِيهَا جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْعَرَبِ وَأَدْرَكَهُ ٱلْقَرْمَطِيُّ وَسَارَ فِي أَثَرِ هَفْتِكِينَ. فَمَاتَ ٱلْحَسَنُ بْنُ أَحْمَدَ ٱلْقَرْمَطِيُّ بِٱلرَّمْلَةِ وَقَامَ مِنْ بَعْدِهِ بِأَمْرِ ٱلْقَرَامِطَةِ ٱبْنُ عَمِّهِ جَعْفَرٌ. فَفَسَدَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ هَفْتِكِينَ وَرَجَعَ عَنِ ٱلرَّمْلَةِ إِلَى ٱلْأَحْسَا وَنَاصَبَ هَفْتِكِينَ ٱلْقِتَالَ وَأَلَحَّ فِيهِ عَلَى جَوْهَرٍ حَتَّى ٱنْهَزَمَ مِنْهُ وَصَارَ إِلَى عَسْقَلَانَ. وَقَدْ غَنِمَ هَفْتِكِينُ مِمَّا كَانَ مَعَهُ شَيْئًا يَجِلُّ عَنِ ٱلْوَصْفِ وَنَزَلَ عَلَى ٱلْبَلَدِ مُحَاصِرًا لَهُ. وَبَلَغَ ذٰلِكَ ٱلْعَزِيزَ فَٱسْتَعَدَّ لِلْمَسِيرِ إِلَى بِلَادِ ٱلشَّامِ.

فَلَمَّا طَالَ ٱلْأَمْرُ عَلَى جَوْهَرٍ رَاسَلَ هَفْتِكِينَ حَتَّى تَقَرَّرَ ٱلصُّلْحُ عَلَى مَالٍ يَحْمِلُهُ إِلَيْهِ وَأَنْ يَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ سَيْفِ هَفْتِكِينَ. فَعَلَّقَ سَيْفَهُ عَلَى بَابِ عَسْقَلَانَ وَخَرَجَ جَوْهَرٌ وَمَنْ مَعَهُ مِنْ تَحْتِهِ وَسَارُوا إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ فَوَجَدَ ٱلْعَزِيزَ قَدْ بَرَزَ يُرِيدُ ٱلسَّيْرَ فَسَارَ مَعَهُ. وَكَانَ مُدَّةُ قِتَالِ هَفْتِكِينَ لِجَوْهَرٍ عَلَى ظَاهِرِ ٱلرَّمْلَةِ وَفِي عَسْقَلَانَ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا. وَسَارَ ٱلْعَزِيزُ بِٱللهِ حَتَّى نَزَلَ ٱلرَّمْلَةَ. وَكَانَ هَفْتِكِينُ بِطَبَرِيَّةَ فَسَارَ إِلَى لِقَاءِ ٱلْعَزِيزِ وَمَعَهُ أَبُو إِسْحٰقَ وَأَبُو طَاهِرٍ أَخَوَا عِزِّ ٱلدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ بُوَيْهِ وَأَبُو كَالِيجَارَ مَرْزُبَانُ بْنُ عِزِّ ٱلدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ بْنِ مُعِزِّ ٱلدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ وَحَارَبُوهُ. فَلَمْ تَكُنْ غَيْرَ سَاعَةٍ حَتَّى هَزَمَتْ عَسَاكِرُ ٱلْعَزِيزِ عَسَاكِرَ هَفْتِكِينَ وَمَلَكُوهُ فِي يَوْمِ ٱلْخَمِيسِ لِسَبْعٍ بَقِينَ مِنَ ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ. وَٱسْتَأْمَنَ أَبُو إِسْحٰقَ وَمَرْزُبَانُ بْنُ بَخْتِيَارَ وَقُتِلَ أَبُو طَاهِرٍ أَخُو عِزِّ ٱلدَّوْلَةِ بَخْتِيَارَ وَأُخِذَ أَكْثَرُ أَصْحَابِهِ أَسْرَى وَطُلِبَ هَفْتِكِينُ فِي ٱلْقَتْلَى فَلَمْ يُوجَدْ وَكَانَ

www.marefa.org

قَدْ فَرَّ وَفَتَ الْهَزِيمَةِ عَلَى فَرَسٍ بِمُفْرَدِهِ فَأَخَذَهُ بَعْضُ الْعَرَبِ أَسِيرًا وَقَدِمَ بِهِ عَلَى مُفَرِّجِ بْنِ دَغْفَلِ بْنِ الْجَرَّاحِ الطَّائِيِّ وَعِمَامَتُهُ فِي عُنُقِهِ. فَبَعَثَ بِهِ إِلَى الْعَزِيزِ فَأَمَرَ بِهِ فَشُهِّرَ فِي الْعَسْكَرِ وَطِيفَ بِهِ فَأَخَذَ النَّاسُ يَلْطِمُونَهُ وَيَهْزَؤُونَ بِهِ حَتَّى رَأَى فِي نَفْسِهِ الْعِبَرَ

ثُمَّ سَارَ الْعَزِيزُ بِهَفْتِكِينَ وَالْأَسْرَى إِلَى الْقَاهِرَةِ فَاصْطَنَعَهُ وَمَنْ مَعَهُ وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ غَايَةَ الْإِحْسَانِ وَأَنْزَلَهُ فِي دَارٍ وَوَاصَلَهُ بِالْعَطَاءِ وَالْخِلَعِ حَتَّى قَالَ: لَقَدِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رُكُوبِي مَعَ مَوْلَانَا الْعَزِيزِ بِاللَّهِ وَنَظَرِي إِلَيْهِ بِمَا غَمَرَنِي بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَإِحْسَانِهِ. فَلَمَّا بَلَغَ ذَلِكَ الْعَزِيزَ قَالَ لِعَمِّهِ حَيْدَرَةَ: يَا عَمِّ وَاللَّهِ إِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَرَى النِّعَمَ عَلَى النَّاسِ ظَاهِرَةً وَأَرَى عَلَيْهِمُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَالْجَوْهَرَ وَلُبْسَ الْخَيْلِ وَاللِّبَاسَ وَالضِّيَاعَ وَالْعِقَارَ وَلَا يَكُونَ ذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ عِنْدِي. وَبَلَغَ الْعَزِيزَ أَنَّ النَّاسَ مِنَ الْعَامَّةِ يَقُولُونَ مَا هَذَا الْفَرْجِيُّ فَأَمَرَ بِهِ وَشُهِّرَ فِي أَجْمَلِ حَالٍ. وَلَمَّا رَجَعَ مِنْ تَطْوَافِهِ وَهَبَ لَهُ مَالًا جَزِيلًا وَخَلَعَ عَلَيْهِ وَأَمَرَ سَائِرَ الْأَوْلِيَاءِ أَنْ يَدْعُوهُ إِلَى دُورِهِمْ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ عَمِلَ لَهُ دَعْوَةً وَقَدِمَ إِلَيْهِ وَقَادَ بَيْنَ يَدَيْهِ الْخُيُولَ. ثُمَّ إِنَّ الْعَزِيزَ قَالَ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ: كَيْفَ رَأَيْتَ دَعْوَةَ أَصْحَابِنَا. فَقَالَ: يَا مَوْلَانَا حَسَنَةٌ فِي الْغَايَةِ وَمَا فِيهِمْ إِلَّا مَنْ أَنْعَمَ وَأَكْرَمَ: فَصَارَ يَرْكَبُ لِلصَّيْدِ وَالتَّفَرُّجِ وَجَمَعَ إِلَيْهِ الْعَزِيزُ بِاللَّهِ أَصْحَابَهُ مِنَ الْأَتْرَاكِ وَالدَّيْلَمِ وَأَعْجَبَهُ وَاخْتَصَّ بِهِ. وَمَا زَالَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ تُوُفِّيَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِمِائَةٍ فَأَنْهَمَ الْعَزِيزُ وَزِيرَهُ يَعْقُوبَ بْنَ كِلِّسٍ أَنَّهُ سَمَّهُ لِأَنَّ هَفْتِكِينَ كَانَ يَتَرَفَّعُ عَلَيْهِ فَاعْتَقَلَهُ مُدَّةً ثُمَّ أَخْرَجَهُ

www.marefa.org

حَارَةُ ٱلْأَتْرَاكِ. هٰذِهِ ٱلْحَارَةُ تُجَاهَ ٱلْجَامِعِ ٱلْأَزْهَرِ وَتُعْرَفُ ٱلْيَوْمَ بِدَرْبِ ٱلْأَتْرَاكِ. وَكَانَ نَافِذًا إِلَى حَارَةِ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلْوَرَّاقُونَ ٱلْقُدَمَاءُ تَارَةً يُفْرِدُونَهَا مِنَ ٱلدَّيْلَمِ وَتَارَةً يُضِيفُونَهَا إِلَيْهَا وَيَجْعَلُونَهَا مِنْ حُفُوفِهَا فَيَقُولُونَ حَارَةَ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلْأَتْرَاكِ. وَتَارَةً يَقُولُونَ حَارَتَيِ ٱلدَّيْلَمِ وَٱلْأَتْرَاكِ. وَقِيلَ لَهَا حَارَةُ ٱلْأَتْرَاكِ لِأَنَّ هَتْكِينَ لَمَّا غَلَبَ بِبَغْدَادَ سَارَ مَعَهُ مِنْ جِنْسِهِ أَرْبَعُمِائَةٍ مِنَ ٱلْأَتْرَاكِ وَتَلَاحَقَ بِهِ عِنْدَ وُرُودِ ٱلْفَرَامِطَةِ عَلَيْهِ بِدِمَشْقَ عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَلَمَّا جَمَعَ لِحَرْبِ ٱلْعَزِيزِ بِٱللهِ كَانَ أَصْحَابُهُ مَا بَيْنَ تُرْكٍ وَدَيْلَمٍ. فَلَمَّا قُبِضَ عَلَيْهِ ٱلْعَزِيزُ وَدَخَلَ إِلَى ٱلْقَاهِرَةِ بِهِ فِي ٱلثَّانِي وَٱلْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعٍ ٱلْأَوَّلِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَسِتِّينَ وَثَلٰثِمِائَةٍ كَمَا تَقَدَّمَ نَزَلَ ٱلدَّيْلَمُ مَعَ أَصْحَابِهِمْ فِي مَوْضِعِ حَارَةِ ٱلدَّيْلَمِ وَنَزَلَ هَتْكِينُ بِأَتْرَاكِهِ فِي هٰذَا ٱلْمَكَانِ. فَصَارَ يُعْرَفُ بِحَارَةِ ٱلْأَتْرَاكِ وَكَانَتْ مُخْتَلِطَةً بِحَارَةِ ٱلدَّيْلَمِ لِأَنَّهُمَا أَهْلُ دَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ إِلَّا أَنَّ كُلَّ جِنْسٍ عَلَى حِدَةٍ لِتَخَالُفِهِمَا فِي ٱلْجِنْسِيَّةِ ثُمَّ قِيلَ بَعْدَ ذٰلِكَ دَرْبُ ٱلْأَتْرَاكِ

www.marefa.org

نبذة

مِنْ سِيرَةِ السُّلْطَانِ الْمَالِكِ النَّاصِرِ صَلَاحِ الدِّينِ [1]

لِبَهَاءِ الدِّينِ الشَّدَّادِيِّ

ذِكْرُ مَسِيرِ الْإِفْرَنْجِ الصَّلِيبِيِّينَ مِنْ عَكَّا إِلَى عَسْقَلَانَ وَانْتِقَالِهِمْ إِلَى طَرَفِ الْبَحْرِ مِنْ جَانِبِ الْغَرْبِ

وَلَمَّا كَانَ التَّاسِعُ وَالْعِشْرُونَ مِنْ رَجَبٍ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِ مِئَةٍ، رَكِبَ الْإِفْرَنْجُ بِأَسْرِهِمْ. وَقَلَعُوا خِيَامَهُمْ. وَحَمَلُوهَا عَلَى عَوَاتِقِهِمْ. وَسَارُوا حَتَّى قَطَعُوا النَّهْرَ إِلَى الْجَانِبِ الْغَرْبِيِّ. وَضَرَبُوا الْخِيَامَ عَلَى طَرِيقِ عَسْقَلَانَ. وَأَظْهَرُوا الْعَزْمَ عَلَى الْمَسِيرِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ. وَأَمَرَ الْأَنْكَتَارُ (يُرِيدُ بِهِ رِيكَرْدُوسَ مَلِكَ الْأَنْكِلِيزِ) بَاقِيَ النَّاسِ أَنْ يَدْخُلُوا إِلَى الْبَلَدِ. وَكَانُوا قَدْ سَدُّوا ثُغْرَهُ وَثُلْمَهُ. وَأَصْلَحُوا مَا اسْتَهْدَمَ مِنْهُ. وَكَانَ مُقَدَّمُ

---

[1] اما صلاح الدين فهو اول ملوك الايوبيين في مصر ولد في تكريت ما بين النهرين وكان والدًا ايوب الكردي فاشتهر منذ تبوئه بحماية المسيحيين فذهب الى مصر حيث تقلد بخدمة نور الدين في سنة ١١٦٤ فاصبح وزيرًا لاخر الفاطميين، وبعد وفاة نور الدين انتهز فرصة حداثة ولده صلاح اسماعيل. فاقام نفسه وصيًا عليه واستولى على سورية سنة ١١٧٥. ثم استقل في مصر واتخذ لملكه جانبًا عظيمًا من بين النهرين. فحاربه المسيحيون فاستظهروا عليه في رملة (١١٧٨) لكنه استظهر في باناس وطبريه على قوى دي لوزينان ملك القدس واستأسره (١١٧٨) وفيها استولى على القدس وقبض على زمام ملكها فكان سقوط مملكة القدس بيده لحرب الصليبيين الثالثة. فاضطر صلاح الدين ان يقاسي مشقات عظيمة اولًا فاخذ منه عكا وقيصرية وباناس لكنه ظهر على بسالة المسيحيين لاسيما ريكردوس قلب الاسد ظفر وساد. وتوفي سنة ١١٩٣ وله اربع بدعى مالك عادل و١٧ ولدًا تقاسموا ملكه. فحاز صلاح الدين الاعتبار حتى لدى المسيحيين ايضًا لحسن سياسته ونشاطه وكرمه وشجاعته (بوبلي)

www.marefa.org

ٱلْعَسْكَرِ ٱلْخَارِجِ ٱلسَّائِرِ ٱلْأَنْكَادُ. وَجَمْعٌ عَظِيمٌ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلْحَيَالَةِ.
وَلَمَّا كَانَ مُسْتَهَلُّ شَعْبَانَ ٱشْتَعَلَتْ نِيرَانُ ٱلْعَدُوِّ فِي مُعْرَقِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ
وَعَادَتْهُمْ أَنَّهُمْ إِذَا أَرَادُوا ٱلرَّحِيلَ أَشْعَلُوا نِيرَانَهُمْ. وَأَخْبَرَ ٱلْبَرَكُ بِحَرَكَتِهِمْ
فَأَمَرَ ٱلسُّلْطَانُ بِٱلثَّقَلِ أَنْ يُرْفَعَ حَتَّى يَبْقَى ٱلنَّاسُ عَلَى ظَهْرٍ. فَفَعَلَ ٱلنَّاسُ
ذٰلِكَ. وَهَلَكَ مِنَ ٱلنَّاسِ قُمَاشٌ كَثِيرٌ. وَحَوَائِجُ كَثِيرَةٌ مِنَ ٱلسُّوقَةِ لَمْ
يَكُنْ مَعَهُمْ خَيْلٌ وَلَا ظَهْرٌ يَحْمِلُ جَمِيعَ مَا عِنْدَهُمْ. لِأَنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ كَانَ
يُحَصِّلُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي ٱلشَّهْرِ. وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلسُّوقَةِ عِنْدَهُ مَا يَتَفَقَّدُ مِنْ
مَنْزِلٍ إِلَى مَنْزِلٍ فِي مِرَارٍ مُتَعَدِّدَةٍ. لٰكِنَّ هٰذَا ٱلْمَنْزِلَ لَمْ يَكُنْ أَنْ يَتَخَلَّفَ
فِيهِ أَحَدٌ لِقُرْبِهِ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ ٱلَّذِينَ بِعَكَّا وَٱلْخَوْفِ مِنْهُمْ

وَلَمَّا أَنْ عَلَا ٱلنَّهَارُ. شَرَعَ ٱلْعَدُوُّ فِي ٱلسَّيْرِ عَلَى جَانِبِ ٱلْبَحْرِ. وَتَفَرَّقُوا
قِطَعًا كَثِيرَةً. كُلُّ قِطْعَةٍ تَحْمِي عَنْ نَفْسِهَا. وَقَوِيَ ٱلسُّلْطَانُ (أَيْ صَلَاحُ
ٱلدِّينِ) ٱلْبَرَكَ. وَأَنْفَذَ مُعْظَمَ ٱلْعَسَاكِرِ فِي قُبَالَتِهِمْ. فَهَمُّوا وَقَاتَلُوهُمْ قِتَالًا
شَدِيدًا. وَأَنْفَذَ وَلَدَهُ ٱلْمَلِكَ ٱلْأَفْضَلَ يُخْبِرُ أَنَّهُ قَطَعَ طَائِفَةً مِنْهُمْ عَنِ
ٱلْمُوَافَقَةِ. وَلَقَدْ لَزِمَنَاهُمْ بِٱلْقِتَالِ. وَلَوْ قَوِينَا لَأَخَذْنَاهُمْ. فَسَيَّرَ ٱلسُّلْطَانُ
خَلْقًا عَظِيمًا مِنَ ٱلْعَسْكَرِ. وَسَارَ هُوَ بِنَفْسِهِ وَأَنَا بِخِدْمَتِهِ. حَتَّى أَتَى أَوَائِلَ
ٱلرَّمْلِ. فَلَقِيَنَا ٱلْمَلِكُ ٱلْعَادِلُ أَخُوهُ: إِنَّ تِلْكَ ٱلطَّائِفَةَ قَدِ ٱلْتَحَمَتْ بِٱلطَّائِفَةِ
ٱلْأُولَى. وَمُعْظَمُ ٱلْقَوْمِ قَدْ عَبَرُوا نَهْرَ حَيْفَا وَقَدْ نَزَلُوا. وَٱلْبَاقُونَ قَدْ لَحِقُوا
بِهِمْ. وَلَيْسَ لِلْمَسِيرِ وَرَاءَهُمْ حَاصِلٌ إِلَّا إِتْعَابُ ٱلْعَسْكَرِ وَضَيَاعُ ٱلنَّشَّابِ
لَا غَيْرُ

فَتَرَاجَعَ ٱلسُّلْطَانُ عَنِ ٱلْقَوْمِ لَمَّا تَحَقَّقَ ذٰلِكَ وَأَمَرَ طَائِفَةً مِنَ ٱلْعَسْكَرِ

www.marefa.org

أَنْ يَسِيرَ وَرَاءَ ٱلنَّقْلِ يَلْحَقُ ضَعِيفَهُمْ بِقَوِيِّهِمْ، وَيَكُفُّ عَنْهُمْ مَنْ يَلْحَقُ بِهِمْ مِنَ ٱلْعَدُوِّ وَٱلطَّلَّاعَةِ وَسَارَ هُوَ حَتَّى وَصَلَ إِلَى ٱلْفَيُّومِ عَصْرَ ذٰلِكَ ٱلنَّهَارِ فَنَزَلَ وَضُرِبَ لَهُ ٱلدِّهْلِيزُ وَشِقَّةٌ دَائِرَةٌ حَوْلَهُ لَا غَيْرُ. وَٱسْتَحْضَرَ ٱلْجَمَاعَةَ وَأَكَلُوا شَيْئًا وَٱسْتَشَارَهُمْ فِي مَا يَفْعَلُ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلثَّانِي: ٱتَّفَقَ رَأْيُ جَمَاعَةٍ عَلَى أَنَّهُمْ يَرْحَلُونَ بُكْرَةَ غَدٍ. هٰذَا وَقَدْ رُتِّبَ حَوْلَ ٱلْإِفْرَنْجِ يَرْكَبَا يَبِيتُونَ حَوْلَهُ وَيَرْقُبُونَ أَمْرَهُ. وَلَمَّا كَانَ صَبَاحُ ثَانِي شَعْبَانَ رَحَلَ ٱلسُّلْطَانُ ٱلنَّقْلَ وَأَقَامَ هُوَ يَتَرَصَّدُ أَخْبَارَ ٱلْعَدُوِّ فَلَمْ يَصِلْ مِنْهُمْ شَيْءٌ إِلَى أَنْ عَلَا ٱلنَّهَارُ. فَسَارَ فِي أَثَرِ ٱلنَّقْلِ حَتَّى أَتَى قَرْيَةً يُقَالُ لَهَا قَرْيَةُ ٱلصَّبَّاغِينَ. فَجَلَسَ يَتَرَقَّبُ أَخْبَارَ ٱلْعَدُوِّ وَكَانَ قَدْ خَلَّفَ جُرْدِيكَ قَرِيبَ ٱلْعَدُوِّ فَلَمْ يَصِلْهُ خَبَرٌ أَصْلًا. فَسَارَ حَتَّى أَتَى ٱلنَّقْلَ فِي مَنْزِلَةٍ يُقَالُ لَهَا عُيُونُ ٱلْأَسَاوِدِ وَلَمَّا بَلَغَنَا ٱلْمَنْزِلَةَ رَأَى خِيَامًا فَسَأَلَ عَنْهَا فَقِيلَ إِنَّهَا خِيَمُ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ. فَعَدَلَ لِيَنْزِلَ عِنْدَهُ فَأَقَامَ عِنْدَهُ سَاعَةً. ثُمَّ أَتَى خَيْمَتَهُ. وَقُدِّمَ ٱلْخُبْزُ فِي هٰذِهِ ٱلْمَنْزِلَةِ بِٱلْكُلْبَةِ وَغَلَا ٱلشَّعِيرُ حَتَّى بَلَغَ دِرْهَمًا وَبَلَغَ ٱلْبَقْسِمَاطُ ٱلرَّطْلُ دِرْهَمَيْنِ. ثُمَّ أَقَامَ ٱلسُّلْطَانُ حَتَّى عَبَرَ وَقْتُ ٱلظُّهْرِ. وَرَكِبَ وَسَارَ إِلَى مَوْضِعٍ يُسَمَّى ٱلْمَلَّاحَةَ تَكُونُ مَنْزِلًا لِلْعَدُوِّ إِذَا رَحَلَ مِنْ حَيْثُنَا. وَكَانَ قَدْ سَبَقَ لِيَتَفَقَّدَ ٱلْمَكَانَ هَلْ يَصْلُحُ لِلْمَصَافِّ أَمْ لَا. وَيَتَفَقَّدَ أَرَاضِيَ فِيسَارِيَةَ بِأَسْرِهَا إِلَى ٱلشَّعْرَاءِ. وَعَادَ إِلَى ٱلْمَنْزِلِ بَعْدَ دُخُولِ وَقْتِ ٱلْعِشَاءِ ٱلْآخِرَةِ. وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ ٱلتَّعَبُ. وَسَأَلْتُهُ عَمَّا بَلَغَهُ مِنْ خَبَرِ ٱلْعَدُوِّ فَقَالَ: وَصَلَ إِلَيْنَا مَنْ أَخْبَرَنَا أَنَّهُ مَا رَحَلَ مِنْ حَيْثُنَا إِلَى عَصْرِ يَوْمِنَا هٰذَا بَعْدِ ثَانِي شَعْبَانَ وَهَا نَحْنُ مُقِيمُونَ مُرْتَقِبُونَ أَخْبَارَهُمْ

www.marefa.org

وَيَكُونُ الْعَمَلُ بِمُقْتَضَاهَا. وَبَاتَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا بِتِلْكَ الزَّلَزَلَةِ يَنْتَظِرُ الْعَدُوَّ وَنَادَى الْجَاوِيشُ بِالْعَسْكَرِ لِلْعَرْضِ. فَرُكِّبَ النَّاسُ عَلَى تَرْتِيبِ الْمَصَافِّ وَأُهْبَتِهِ. وَلَمَّا عَلَا النَّهَارُ نَزَلَ السُّلْطَانُ فِي خَيْمَتِهِ وَأَخَذَ نَصِيبًا مِنَ الرَّاحَةِ بَعْدَ الْعَنَاءِ وَمُثُولِ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأُمَرَاءِ إِلَى خِدْمَتِهِ وَأَخْذِ رَأْيِهِمْ فِي مَا يَصْنَعُونَ. ثُمَّ صَلَّى الظُّهْرَ وَجَلَسَ يُطْلِقُ أَثْمَانَ الْخُيُولِ الْمَجْرُوحَةِ وَغَيْرِهَا إِلَى الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ مِنْ مِئَةِ دِينَارٍ إِلَى مِئَةٍ وَخَمْسِينَ دِينَارًا وَزَائِدًا وَنَاقِصًا. فَمَا رَأَيْتُ أَفْسَحَ صَدْرًا مِنْهُ وَلَا أَبْسَطَ وَجْهًا فِي الْعَطَاءِ وَأَنْفَقَ الرَّأْيِ عَلَى رَحِيلِ الثِّقَلِ فِي عَصْرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ إِلَى مَنْزِلِ بَانَا

الْمَنْزِلُ الثَّالِثُ: وَأَقَامَ هُوَ جَرِيدَةً بِالْمَنْزِلِ إِلَى الصَّبَاحِ رَابِعَ الشَّهْرِ. وَرَكِبَ وَسَارَ فِي رَأْسِ النَّهْرِ الْجَارِي إِلَى قِبْلِيَّةٍ وَنَزَلَ هُنَاكَ. وَبَلَغَ الْمِقْيَاسُ الرَّطْلَ أَرْبَعَةَ دَرَاهِمَ. وَالشَّعِيرُ الرُّبْعَ دِرْهَمَيْنِ وَنِصْفٍ. وَالْخُبْزُ لَمْ يُوجَدْ أَصْلًا. وَنَزَلَ فِي خَيْمَتِهِ وَأَكَلَ خُبْزًا وَصَلَّى الظُّهْرَ. وَرَكِبَ إِلَى طَرِيقِ الْعَدُوِّ لِتَجْدِيدِ إِرْشَادِهِ فِي ضَرْبِ الْمَصَافِّ. وَلَمْ يَعُدْ إِلَى أَنْ دَخَلَ وَقْتُ الْعَصْرِ فَجَلَسَ سَاعَةً وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ الرَّاحَةِ. ثُمَّ عَادَ وَرَكِبَ وَأَمَرَ النَّاسَ بِالرَّحِيلِ وَرَمَى خَيْمَتَهُ وَرَمَى النَّاسُ خِيَامَهُمْ فِي أَوَاخِرِ النَّهَارِ

الْمَنْزِلُ الرَّابِعُ: وَكَانَ الرَّحِيلُ إِلَى رَابِيَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ تِلْكَ الرَّابِيَةِ. وَفِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ أَتَى بِاثْنَيْنِ مِنَ الْإِفْرَنْجِ قَدْ تَخَطَّفَهُمُ الْبَرَكُ. فَأَمَرَ بِضَرْبِ رِقَابِهِمَا فَقُتِلَا. وَتَكَاثَرَ النَّاسُ عَلَيْهِمَا بِالسُّيُوفِ تَشَفِّيًا. ثُمَّ بَاتَ هُنَاكَ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا بِالْمَنْزِلِ لِأَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ عَنِ الْعَدُوِّ رَحِيلٌ وَأَنْفَذَ إِلَى الثِّقَلِ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ مَا طَرَأَ عَلَى النَّاسِ مِنَ الضِّيقِ فِي الْمَأْكَلِ وَالتَّضَوُّرِ. وَرَكِبَ

www.marefa.org

فِي وَقْتِ عَادَتِهِ إِلَى جِهَةِ الْعَدُوِّ. وَأَشْرَفَ عَلَى قِيسَارِيَةَ. وَعَادَ إِلَى الْقَتْلِ قَرِيبَ الظُّهْرِ. وَقَدْ وَصَلَ الْخَبَرُ أَنَّ الْعَدُوَّ لَمْ يَرْحَلْ بَعْدُ مِنَ الْمَلَّاحَةِ. وَأُحْضِرَ عِنْدَهُ اثْنَانِ أَيْضًا قَدْ أُخِذَا مِنْ أَطْرَافِ الْعَدُوِّ وَقُتِلَا شَرَّ قِتْلَةٍ. وَكَانَ فِي حِدَّةِ الضِّيقَةِ لِمَا جَرَى عَلَى أَسْرَى عَكَّا. ثُمَّ أَخَذَ جُزْءًا مِنَ الرَّاحَةِ وَجَلَسَ بَعْدَ صَلَاةِ الظُّهْرِ. وَحَضَرْتُ عِنْدَهُ وَقَدْ أُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْعَدُوِّ فَارِسٌ مَذْكُورٌ هَيْئَتُهُ تُخْبِرُ عَنْ أَنَّهُ مُتَقَدِّمٌ فِيهِمْ. فَأُحْضِرَ تُرْجُمَانٌ وَبَحَثَ عَنْ أَحْوَالِ الْقَوْمِ. وَسَأَلَهُ كَيْفَ يُسَوَّى الطَّعَامُ عِنْدَكُمْ فَقَالَ: أَوَّلَ يَوْمٍ رَحَلْنَا مِنْ عَكَّا كَانَ الْإِنْسَانُ يَشْبَعُ بِسِتَّةِ قَرَاطِيسَ فَلَمْ يَزَلِ السِّعْرُ يَغْلُو حَتَّى صَارَ يَشْبَعُ بِثَمَانِيَةِ قَرَاطِيسَ. وَسَأَلَ عَنْ سَبَبِ تَأَخُّرِهِمْ فِي الْمَنَازِلِ فَقَالَ: لِانْتِظَارِ وُصُولِ الْمَرَاكِبِ بِالرِّجَالِ وَالْمِيرَةِ. فَسَأَلَ عَنِ الْقَتْلَى وَالْجَرْحَى فِي يَوْمِ رَحِيلِهِمْ فَقَالَ: كَثِيرٌ. فَسَأَلَ عَنِ الْخَيْلِ الَّتِي هَلَكَتْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ فَقَالَ: مِقْدَارُ أَرْبَعِ مِئَةِ فَرَسٍ. فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ. وَنَهَى عَنِ الْتِمْثِيلِ بِهِ. فَسَأَلَ التُّرْجُمَانَ عَمَّا قَالَ السُّلْطَانُ فَأَخْبَرَهُ بِمَا قَالَ. فَتَغَيَّرَ تَغَيُّرًا عَظِيمًا وَقَالَ: أَنَا أُخَلِّصُ لَكُمْ أَسِيرًا مِنْ عَكَّا. فَقَالَ رَحِمَهُ اللهُ بَلْ أَسِيرًا. فَقَالَ: لَا أَقْدِرُ عَلَى خَلَاصِ أَمِيرٍ. فَشَنَّعَ الطَّمَعَ فِيهِ وَحُسْنَ خِلْقَتِهِ. فَإِنِّي مَا رَأَيْتُ أَتَمَّ خِلْقَةً مِنْهُ مَعَ تَرَفٍ فِي الْأَطْرَافِ وَرَفَاهِيَةٍ. فَأَمَرَ أَنْ يُتْرَكَ الْآنَ وَيُؤَخَّرَ أَمْرُهُ. فَصَدَّقَهُ وَعَانَهُ عَلَى مَا بِنَا مِنْهُمْ مِنَ الْغَدْرِ وَقَتْلِ الْأَسْرَى. فَاعْتَرَفَ بِأَنَّهُ قَبِيحٌ وَأَنَّهُ لَمْ يُحَرِّ إِلَّا بِرِضَى الْمَلِكِ وَحْدَهُ. وَرَكِبَ السُّلْطَانُ بَعْدَ صَلَاةِ الْعَصْرِ عَلَى عَادَتِهِ. وَبَعْدَ أَنْ نَزَلَ أَمَرَ بِقَتْلِ الْفَارِسِ الْمَذْكُورِ. وَأُتِيَ بَعْدَهُ بِاثْنَيْنِ فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا. وَبَاتَ

www.marefa.org

فِي ذٰلِكَ ٱلْمَنْزِلِ وَذُكِرَ لَهُ فِي ٱلسَّحَرِ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ قَدْ تَحَرَّكَ نَحْوَ فِيسَارِيَةَ، وَقَارَبَ أَوَائِلَ ٱلْبَلَدِ. فَرَأَى أَنْ يَتَأَخَّرَ مِنْ طَرِيقِ ٱلْعَدُوِّ مَنْزِلًا آخَرَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلْخَامِسُ: فَرَحَلَ وَرَحَلَ ٱلنَّاسُ إِلَى قَرِيبِ ٱلتَّلِّ ٱلَّذِي كُنَّا عَلَيْهِ فَنَزَلَ ٱلنَّاسُ وَضُرِبَتِ ٱلْخِيَامُ. وَمَضَى هُوَ بِرُتَادُ ٱلْأَرَاضِيَ ٱلْكَائِنَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْعَدُوِّ لِيَنْظُرَ أَيُّهَا أَصْلَحُ لِلْمِصَافِّ وَنَزَلَ قَرِيبَ ٱلظُّهْرِ. وَٱسْتَدْعَى أَخَاهُ ٱلْمَلِكَ ٱلْعَادِلَ. وَعَلَمَ ٱلدِّينِ سُلَيْمَانَ. وَأَخَذَ رَأْيَهُمَا فِي مَا يَصْنَعُ. وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ وَأَذِنَ ٱلظُّهْرَ. فَصَلَّى وَرَكِبَ لِيُشْرِفَ وَلِيَكْشِفَ عَنِ ٱلْعَدُوِّ وَيَتَسَمَّ أَخْبَارَهُ. وَأَتَاهُ ٱثْنَانِ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ قَدْ نُهِبَا وَأَمَرَ بِقَتْلِهِمَا فَقُتِلَا. ثُمَّ أُتِيَ بِٱثْنَيْنِ آخَرَيْنِ فَقُتِلَا أَيْضًا. وَجِيءَ أَوَاخِرَ ٱلنَّهَارِ بِٱثْنَيْنِ فَقُتِلَا أَيْضًا. وَعَادَ مِنَ ٱلرُّكُوبِ وَصَلَّى صَلَاةَ ٱلْمَغْرِبِ. وَجَلَسَ عَلَى عَادَتِهِ وَٱسْتَدْعَى أَخَاهُ وَصَرَفَ ٱلنَّاسَ. وَخَلَا بِهِ إِلَى هَوِيٍّ مِنَ ٱللَّيْلِ. ثُمَّ بَاتَ وَأَصْبَحَ وَنَادَى ٱلْجَاوِيشَ لِعَرْضِ ٱلْحَلْقَةِ لَا غَيْرُ. وَرَكِبَ إِلَى جِهَةِ ٱلْعَدُوِّ وَوَقَفَ عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى فِيسَارِيَةَ. وَكَانَ ٱلْعَدُوُّ قَدْ وَصَلَ إِلَيْهَا نَهَارَ ٱلْجُمُعَةِ سَادِسَ شَعْبَانَ. وَلَمْ يَزَلْ يَعْرِضُ هُنَاكَ إِلَى أَنْ عَلَا ٱلنَّهَارُ. ثُمَّ نَزَلَ وَأَكَلَ ٱلطَّعَامَ. وَرَكِبَ إِلَى أَخِيهِ وَعَادَ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ. وَأَخَذَ جُزْءًا مِنَ ٱلرَّاحَةِ. وَأُتِيَ بِأَرْبَعَةَ عَشَرَ مِنَ ٱلْإِفْرَنْجِ وَأَمَرَ إِفْرَنْجِيَّةً بَيْنَهُمْ أَسِيرَةٌ. وَهِيَ بِنْتُ ٱلْفَارِسِ ٱلْمَذْكُورِ. وَمَعَهَا أَسِيرَةٌ مُسْلِمَةٌ قَدْ أَخَذَتْهَا، فَأُطْلِقَتِ ٱلْمُسْلِمَةُ. وَرُفِعَ ٱلْبَاقُونَ إِلَى ٱلزَّرْدَخَانَةِ وَهَؤُلَاءِ أُتِيَ بِهِمْ مِنْ يَبْرُودَ أُخِذُوا فِي مَرْكَبٍ مِنْ جُمْلَةِ عِدَّةِ كَبِيرَةٍ قُتِلُوا. كُلُّ ذٰلِكَ فِي نَهَارِ ٱلسَّبْتِ سَابِعِ ٱلشَّهْرِ. وَهُوَ فِي ٱلْمَنْزِلَةِ يَنْتَظِرُ رَحِيلَ ٱلْعَدُوِّ. مُجْمِعًا عَلَى

www.marefa.org

لِلْغَايَةِ إِذَا رَحَلَ

الْمَنْزِلُ السَّادِسُ : وَلَمَّا كَانَ صَبِيحَةُ الثَّامِنِ رَكِبَ السُّلْطَانُ عَلَى عَادَتِهِ ثُمَّ نَزَلَ . وَوَصَلَ مِنْ أَخِيهِ أَنَّ الْعَدُوَّ عَلَى حَرَكَةٍ . وَكَانَتِ الْأَطْلَابُ قَدْ بَاتَتْ حَوْلَ يِسَارِيَّةٍ فِي مَوَاضِعِهَا. فَأَمَرَ بِمَدِّ الطَّعَامِ وَأَطْعَمَ النَّاسَ فَوَصَلَ ثَانٍ وَأَخْبَرَ : أَنَّ الْقَوْمَ قَدْ سَارُوا . فَأَمَرَ بِالْكُوسِ فَدُقَّ وَرَكِبَ وَرَكِبَ النَّاسُ وَسَارَ وَسِرْتُ فِي خِدْمَتِهِ حَتَّى أَتَى عَسْكَرَ الْعَدُوِّ وَصَفَّ الْأَطْلَابَ حَوْلَهُ وَأَمَرَهُمْ بِقَتَائِلِهِمْ وَأَخْرَجَ الْجَالِيشَ . فَكَانَ النَّشَّابُ يَنْهَمُّ كَالْمَطَرِ وَكَانَ عَسْكَرُ الْعَدُوِّ قَدْ وَثَبَ. فَكَانَتِ الرَّجَّالَةُ حَوْلَهُ كَالسُّورِ وَعَلَيْهِمُ اللُّبُودُ الثَّخِينَةُ وَالزَّرَدِيَّاتُ السَّابِغَةُ الْمُحْكَمَةُ بِحَيْثُ يَقَعُ فِيهِمُ النُّشَّابُ وَلَا يَتَأَخَّرُونَ وَهُمْ يَرْمُونَ بِالزَّرَنْبُوكِ فَيَجْرَحُ خَيْلَ الْمُسْلِمِينَ وَخَيَّالَتَهُمْ. وَلَقَدْ شَاهَدْتُهُمْ وَيَتَعَزَّزُ فِي ظَهْرِ الْوَاحِدِ مِنْهُمُ الْوَاحِدُ وَالْعَشَرَةُ وَهُوَ يَسِيرُ عَلَى هِينَتِهِ مِنْ غَيْرِ انْزِعَاجٍ . وَثَمَّ قِسْمٌ آخَرُ مِنَ الرَّجَّالَةِ مُسْتَرِيحٌ يَمْشُونَ عَلَى جَانِبِ الْبَحْرِ وَلَا قِتَالَ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا تَعِبَ هَؤُلَاءِ الْمُقَاتِلُونَ أَوْ أَثْخَنَهُمُ الْجِرَاحُ قَامَ مَقَامَهُمُ الْمُسْتَرِيحُ وَاسْتَرَاحَ الْقِسْمُ الْعَمَّالُ. هَذَا وَالْخَيَّالَةُ فِي وَسْطِهِمْ لَا يَخْرُجُونَ عَنِ الرَّجَّالَةِ إِلَّا فِي وَقْتِ الْحَمْلَةِ لَا غَيْرُ. وَقَدِ انْقَسَمُوا أَيْضًا ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ الْقِسْمُ الْأَوَّلُ الْمَلِكُ الْعَتِيقُ جَفْرِي وَجَمَاعَةُ السَّاحِلِيَّةِ مَعَهُ فِي الْمُقَدِّمَةِ وَالْأَنْكِتَارُ وَالْفَرَنْسِيسُ مَعَهُ فِي الْوَسْطِ وَأَوْلَادُ إِلِسْتَ أَصْحَابُ طَبَرِيَّةَ وَطَائِفَةٌ أُخْرَى فِي السَّاقَةِ. وَفِي وَسْطِ الْقَوْمِ بُرْجٌ عَلَى عَجَلَةٍ وَعَلَيْهِ كَالْمَنَارَةِ الْعَظِيمَةِ. هَذَا تَرْتِيبُ الْقَوْمِ عَلَى مَا شَاهَدْتُهُ. وَأَخْبَرَ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ مِنَ الْأَسْرَى وَالْمُسْتَأْمِنِينَ .

www.marefa.org

وَسَارُوا عَلَى ٱلْيَمَالِ وَسُوقُ ٱلْحَرْبِ قَائِمَةٌ وَٱلْمُسْلِمُونَ يَرْمُونَهُمْ بِٱلنُّشَّابِ مِنْ جَوَانِبِهِمْ وَيُحَرِّكُونَ عَرَائِمَهُمْ حَتَّى يَخْرُجُوا . وَهُمْ يَحْفَظُونَ نُفُوسَهُمْ حِفْظًا عَظِيمًا وَيَقْطَعُونَ ٱلطَّرِيقَ عَلَى هٰذَا ٱلْوَضْعِ وَيَسِيرُونَ سَيْرًا رَفِيقًا وَمَرَاكِبُهُمْ تَسِيرُ فِي مُقَابَلَتِهِمْ فِي ٱلْبَحْرِ إِلَى أَنْ أَتَوُا ٱلْمَنْزِلَ . وَكَانَتْ مَنَازِلُهُمْ قَرِيبَةً لِأَجْلِ ٱلرِّجَالَةِ . فَإِنَّ ٱلْمُسْتَرِيحِينَ مِنْهُمْ كَانُوا يُحَمِّلُونَ أَثْقَالَهُمْ وَخَيْلَهُمْ لِقِلَّةِ ٱلظَّهْرِ عَلَيْهِمْ . فَٱنْظُرْ إِلَى صَبْرِ هٰؤُلَاءِ ٱلْقَوْمِ عَلَى ٱلْأَعْمَالِ ٱلشَّاقَّةِ . وَكَانَ مَنْزِلُهُمْ قَاطِعَ نَهْرِ قِسَارِيَةَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلسَّابِعُ : وَلَمَّا كَانَتْ صَبِيحَةُ ٱلتَّاسِعِ وَصَلَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ قَدْ رَكِبَ سَائِرًا فَرَكِبَ ٱلسُّلْطَانُ أَوَّلَ ٱلْفَجْرِ وَطَلَبَ ٱلْأَطْلَابَ وَأَخْرَجَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ جَالِشًا . فَسَارَ يَطْلُبُ ٱلْقَوْمَ وَطَافَ ٱلْجَالِشُ حَوْلَهُمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَنَزَوْهُمْ بِٱلنُّشَّابِ . وَهُمْ سَائِرُونَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ عَلَى ٱلْيَمَالِ ٱلَّذِي حَكَيْتُهُ . وَكُلَّمَا ضَعُفَ قِسْمٌ عَاوَنَهُ ٱلَّذِي يَلِيهِ . وَهُمْ يَحْفَظُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا . وَٱلْمُسْلِمُونَ مُحْدِقُونَ بِهِمْ مِنْ ثَلَاثَةِ جَوَانِبَ وَٱلْقِتَالُ عَلَيْهِمْ شَدِيدٌ وَٱلسُّلْطَانُ يُقَرِّبُ ٱلْأَطْلَابَ . وَرَأْيُهُ هُوَ يَسِيرُ نَفْسُهُ بَيْنَ ٱلْجَالِشِينَ . وَنُشَّابُ ٱلْقَوْمِ يُجَاوِزُهُ وَلَيْسَ مَعَهُ إِلَّا صِبْيَانٌ مُجَيِّبِينَ لَا غَيْرُ . وَهُوَ يَسِيرُ مِنْ طَلَبٍ إِلَى طَلَبٍ يَحُثُّهُمْ عَلَى ٱلتَّقَدُّمِ وَيَأْمُرُهُمْ بِمُضَايَقَةِ ٱلْقَوْمِ وَمُقَاتَلَتِهِمْ وَٱلْكُوسَاتُ تَخْفِقُ وَٱلْبُوقَاتُ تُنْعَرُ وَٱلصِّيَاحُ بِٱلتَّهْلِيلِ وَٱلتَّكْبِيرِ يَرْتَفِعُ . هٰذَا وَٱلْقَوْمُ عَلَى أَتَمِّ نِظَامٍ عَلَى تَرْتِيبِهِمْ لَا يَتَغَيَّرُونَ وَلَا يَتَزَعْزَعُونَ . وَجَرَتْ حَالَاتٌ كَثِيرَةٌ وَرَجَّالَتُهُمْ تَجْرَحُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَخَيْلُهُمْ بِٱلزُّرْنُوكِ وَٱلنُّشَّابِ . وَلَمْ تَزَلْ حَوَالَيْهِمْ نَقَائِلُهُمْ وَتَحْمِلُ عَلَيْهِمْ وَهُمْ يَكُرُّونَ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْمُسْلِمِينَ

www.marefa.org

ثُمَّ يَعْبُرُونَ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ أَتَوْا نَهْرًا يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْقَصَبِ نَزَلُوا عَلَيْهِ. وَقَدْ قَامَتِ الظَّهِيرَةُ وَضَرَبُوا خِيَامَهُمْ. وَتَرَاجَعَ النَّاسُ عَنْهُمْ فَإِنَّهُمْ إِذَا كَانُوا نَزَلُوا أَيِسَ النَّاسُ مِنْ أَنْ يَنَالُوا مِنْهُمْ وَرَجَعُوا عَنْ خِيَامِهِمْ. وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ قُتِلَ مِنْ فُرْسَانِ الْإِسْلَامِ شُجَاعٌ كُنْيَتُهُ إِيَازُ الطَّوِيلُ بَعْضُ مَمَالِيكِ السُّلْطَانِ. وَكَانَ قَدْ فَتَكَ فِيهِمْ وَقَتَلَ خَلْقًا مِنْ خِيَالَتِهِمْ وَشُجْعَانِهِمْ وَكَانَتْ قَدِ اسْتَفَاضَتْ شَجَاعَتُهُ بَيْنَ الْعَسْكَرَيْنِ بِحَيْثُ أَنَّهُ جَرَتْ لَهُ وَقَعَاتٌ كَثِيرَةٌ وَصَدَقَتْ أَخْبَارُ الْأَوَائِلِ. وَصَارَ بِحَيْثُ إِذَا عَرَفَهُ الْإِفْرَنْجُ فِي مَوْضِعٍ يَخَافُونَهُ وَيَنْظُرُونَ بِهِ فَرَسَهُ وَأَسْلِحَتَهُ وَحَزِنَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ حُزْنًا عَظِيمًا وَدُفِنَ عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى الْبِرْكَةِ. وَنَزَلَ السُّلْطَانُ بِالثِّقَلِ عَلَى الْبِرْكَةِ وَهِيَ مَوْضِعٌ يَجْتَمِعُ فِيهِ مِيَاهٌ كَثِيرَةٌ وَأَقَامَ فِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ إِلَى بَعْدِ صَلَاةِ الْعَصْرِ وَأَطْعَمَ النَّاسَ خُبْزًا وَاسْتَرَاحُوا سَاعَةً. ثُمَّ رَحَلَ وَأَتَى نَهْرَ الْقَصَبِ وَنَزَلَ عَلَيْهِ أَيْضًا فَشَرِبَ مِنْهُ قَلِيلًا مِنْ أَعْلَاهُ وَالْعَدُوُّ يَشْرَبُ مِنْ أَسْفَلِهِ. لَيْسَ بَيْنَنَا إِلَّا مَسَافَةٌ يَسِيرَةٌ وَبَلَغَ الشَّعِيرُ الرُّبْعَ بِأَرْبَعَةِ دَرَاهِمَ وَالْخُبْزُ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ وَمِنْهُ رَطْلٌ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ. وَأَقَامَ يَنْتَظِرُ رَحِيلَ الْإِفْرَنْجِ حَتَّى يَرْحَلَ فِي مُقَابَلَتِهِمْ. وَبَاتُوا تِلْكَ اللَّيْلَةَ هُنَاكَ وَبِتْنَا أَيْضًا

ذِكْرُ وَقْعَةٍ جَرَتْ

وَذَلِكَ أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْعَسْكَرِ الْإِسْلَامِيِّ كَانُوا مُشْرِفِينَ عَلَى الْعَدُوِّ فَصَادَفُوا جَمَاعَةً مِنْهُمْ يَتَسَوَّقُونَ أَيْضًا عَلَى الْعَسْكَرِ الْإِسْلَامِيِّ فَظَفِرُوا بِهِمْ وَهَجَمُوا عَلَيْهِمْ وَجَرَى بَيْنَهُمْ قِتَالٌ عَظِيمٌ فَقُتِلَ مِنَ الْعَدُوِّ جَمَاعَةٌ وَأَحَسَّ بِهِمْ عَسْكَرُ الْعَدُوِّ. فَثَارَ إِلَيْهِمْ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ وَاتَّصَلَ الْحَرْبُ وَقُتِلَ أَيْضًا

www.marefa.org

مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ نَفَرَانِ وَأُسِرَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ ثَلٰثَةٌ وَمَثَلُوا بِخِدْمَةِ ٱلسُّلْطَانِ فَسَأَلَهُمْ عَنِ ٱلْأَحْوَالِ. فَأَخْبَرُوا أَنَّ ٱلْمَلِكَ أَنْكَتَارَ كَانَ قَدْ حَضَرَ عِنْدَهُ بِعَكَّا ٱثْنَانِ بَدَوِيَّانِ وَأَنَّهُمَا أَخْبَرَا لَهُ بِقِلَّةِ ٱلْعَسْكَرِ ٱلْإِسْلَامِيِّ وَذٰلِكَ ٱلَّذِي أَطْمَعَهُ حَتَّى خَرَجَ. وَأَنَّهُ لَمَّا كَانَ بِٱلْأَمْسِ يَعْنِي ٱلِٱثْنَيْنِ رَأَى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ قِتَالًا عَظِيمًا وَٱسْتَكْثَرَ ٱلْأَطْلَابَ وَأَنَّهُ جُرِحَ زُهَاءَ أَلْفِ نَفَرٍ وَقُتِلَ جَمَاعَةٌ وَأَنَّ ذٰلِكَ ٱلَّذِي أَوْجَبَ إِقَامَتَهُ ٱلْيَوْمَ حَتَّى يَسْتَرِيحَ عَسْكَرُهُ. وَأَنَّهُ لَمَّا رَأَى مَا أَصَابَهُ مِنَ ٱلْقِتَالِ ٱلْعَظِيمِ وَكَثْرَةِ ٱلْمُسْلِمِينَ أَحْضَرَ ٱلْبَدَوِيَّيْنِ عِنْدَهُ وَوَقَفَهُمَا وَضَرَبَ أَعْنَاقَهُمَا. وَأَقَمْنَا فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ فِي تِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ لِإِقَامَةِ ٱلْعَدُوِّ وَهُوَ ٱلثُّلَثَاءُ ٱلْعَاشِرُ مِنْ شَعْبَانَ

ٱلْمَنْزِلُ ٱلثَّامِنُ: وَلَمَّا كَانَ ظَهِيرَةُ ٱلْيَوْمِ ٱلْمَذْكُورِ رَأَى ٱلسُّلْطَانُ عَلَى ٱلرَّحِيلِ وَٱلتَّقَدُّمِ إِلَى قُدَّامِ ٱلْعَدُوِّ فَدَقَّ ٱلْكُوسَ وَرَحَلَ ٱلنَّاسُ وَدَخَلَ فِي شَعْرَاءَ أَرْسُوفَ حَتَّى تَوَسَّطَهَا إِلَى تَلٍّ عِنْدَ قَرْيَةٍ تُسَمَّى دَيْرَ ٱلرَّاهِبِ فَنَزَلَ هُنَاكَ وَدَهِمَ ٱلنَّاسَ ٱلْبَلْبَلُ وَهُمْ يَقْطَعُونَ فِي ٱلشَّعْرَاءِ وَأَصْبَحَ مُقِيمًا يَنْتَظِرُ بَقِيَّةَ ٱلْعَسَاكِرِ إِلَى صَبَاحِ ٱلْأَرْبِعَاءِ ٱلْحَادِيَ عَشَرَ. وَتَلَاحَقَتِ ٱلْعَسَاكِرُ وَرَكِبَ بَرْتَادُ مَوْضِعًا يَصْلُحُ لِلْقِتَالِ وَلِقَاءِ ٱلْعَدُوِّ. وَأَقَامَ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ أَجْمَعَ هُنَاكَ. وَمِنْ أَخْبَارِ ٱلْعَدُوِّ فِي تِلْكَ ٱلْمَنْزِلَةِ أَنَّهُ أَقَامَ عَلَى نَهْرِ ٱلنَّصَبِ ذٰلِكَ ٱلْيَوْمَ أَيْضًا. وَأَنَّهُ لَحِقَهُ نَجْدَةٌ مِنْ عَكَّا فِي ثَمَانِ بَطَسٍ كِبَارٍ وَبَرَكَ ٱلْإِسْلَامِ حَوْلَهُ يُوَاصِلُونَ بِٱلْأَخْبَارِ ٱلْمُسْتَجِدَّةِ يَوْمًا

ذِكْرُ مُرَاسَلَةٍ جَرَتْ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ

وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعَدُوَّ طَلَبَ مِنَ ٱلْمَلِكِ مَنْ يَتَحَدَّثُ مَعَهُ. وَكَانَ مُقَدَّمُ

www.marefa.org

ٱلْبُرْكِ عَلَمَ ٱلدِّينِ سُلَيْمَانَ فَإِنَّهَا كَانَتْ نَوْبَتَهُ. فَلَمَّا مَضَى ٱلْيَوْمُ مَنْ مَعَ كَلَامَهُمْ كَانَ كَلَامُهُمْ طَلَبَ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ حَتَّى يَتَحَدَّثُوا مَعَهُ. فَٱسْتَأْذَنَ وَمَضَى وَبَاتَ تِلْكَ ٱللَّيْلَةَ فِي ٱلْبُرْكِ وَيَتَحَدَّثُونَ مَعَهُ وَكَانَ حَاصِلُ حَدِيثِهِمْ أَنَّا قَدْ طَالَ بَيْنَنَا ٱلْقِتَالُ وَأَنَّهُ قَدْ قُتِلَ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ ٱلرِّجَالُ ٱلْأَبْطَالُ وَأَنَّا نَحْنُ جِئْنَا فِي نُصْرَةِ إِفْرَنْجِ ٱلسَّاحِلِ. فَٱصْطَلِحُوا أَنْتُمْ وَهُمْ وَكُلٌّ مِنَّا يَرْجِعُ إِلَى مَكَانِهِ. وَكَتَبَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى أَخِيهِ فِي صَبِيحَةِ يَوْمِ ٱلْخَمِيسِ ٱلثَّانِي وَٱلْعِشْرِينَ رُقْعَةً يَقُولُ لَهُ فِيهَا: إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُطَاوِلَ ٱلْإِفْرَنْجَ فَلَعَلَّهُمْ يُقِيمُونَ ٱلْيَوْمَ حَتَّى يَلْحَقَنَا ٱلدَّرَكَانُ فَإِنَّهُمْ قَدْ قَرُبُوا مِنَّا

ذِكْرُ ٱجْتِمَاعِ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ وَٱلْأَنْكَتَارِ

وَلَمَّا عَرَفَ ٱلْأَنْكَتَارُ وُصُولَ ٱلْمَلِكِ ٱلْعَادِلِ إِلَى ٱلْبُرْكِ طَلَبَ ٱلِٱجْتِمَاعَ بِهِ فَأَجَابَهُ إِلَى ذَٰلِكَ. فَٱجْتَمَعَا بِنَخْوَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِمَا وَكَانَ يُتَرْجِمُ بَيْنَهُمَا ٱبْنُ ٱلْهَنْفَرِي وَهُوَ مِنْ إِفْرَنْجِ ٱلسَّاحِلِ مِنْ كِبَارِهِمْ وَرَأَيْتُهُ يَوْمَ ٱلصُّلْحِ وَهُوَ شَابٌّ حَسَنٌ إِلَّا أَنَّهُ مَحْلُوقُ ٱللِّحْيَةِ عَلَى مَا هُوَ شِعَارُهُمْ. وَكَانَ ٱلْحَدِيثُ بَيْنَهُمَا أَنَّ ٱلْأَنْكَتَارَ شَرَعَ فِي ذِكْرِ ٱلصُّلْحِ وَأَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْعَادِلَ قَالَ لَهُ: أَنْتُمْ تَطْلُبُونَ ٱلصُّلْحَ وَلَا تَذْكُرُونَ مَطْلُوبَكُمْ فِيهِ حَتَّى أَتَوَسَّطَ أَنَا ٱلْحَالَ مَعَ ٱلسُّلْطَانِ. فَقَالَ ٱلْأَنْكَتَارُ: ٱلْقَاعِدَةُ أَنْ تَعُودَ ٱلْبِلَادُ كُلُّهَا إِلَيْنَا وَنَنْصَرِفُوا إِلَى بِلَادِكُمْ فَأَخَذَتْ لَهُ ٱلْجَوَابَ وَجَرَتْ مُنَاقَرَةٌ ٱقْتَضَتْ أَنَّهُمْ رَحَلُوا بَعْدَ ٱنْفِصَالِهِمْ. وَلَمَّا أَحَسَّ ٱلسُّلْطَانُ بِرَحِيلِهِمْ أَمَرَ ٱلثَّقَلَ بِٱلرَّحِيلِ وَوَقَفَ هُوَ وَعَبَّى ٱلنَّاسَ تَعْبِيَةَ ٱلْقِتَالِ. وَسَارَ ٱلثَّقَلُ ٱلصَّغِيرُ أَيْضًا حَتَّى قَارَبَ ٱلثَّقَلَ ٱلْكَبِيرَ. ثُمَّ رَدَّدَ أَمْرَهُ ٱلسُّلْطَانُ بِعَوْدِهِمْ إِلَيْهِ. فَعَادُوا وَوَصَلُوا وَقَدْ دَخَلَ

www.marefa.org

اللَّيْلُ وَتَحَيَّطَ النَّاسُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ تَحَيُّطًا عَظِيمًا وَاسْتَدْعَى أَخَاهُ لِيُعَرِّفَهُ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَلِكِ . وَخَلَا بِهِ لِذَلِكَ وَذَلِكَ فِي لَيْلَةِ الْجُمُعَةِ ثَالِثَ عَشَرَ. وَأَمَّا الْعَدُوُّ فَإِنَّهُ سَارَ وَنَزَلَ عَلَى مَوْضِعٍ يُسَمَّى الْبِرْكَةَ أَيْضًا يُشْرِفُ عَلَى الْبَحْرِ وَأَصْبَحَ السُّلْطَانُ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ مُتَطَلِّعًا إِلَى أَخْبَارِ الْعَدُوِّ . فَأُحْضِرَ عِنْدَهُ اثْنَانِ مِنَ الْإِفْرَنْجِ قَدْ تَخَطَّفَهُمَا الْيَزَكُ. فَأَمَرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمَا وَوَصَلَ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ الْعَدُوَّ لَمْ يَرْحَلِ الْيَوْمَ مِنْ مَنْزِلِهِ تِلْكَ . فَنَزَلَ السُّلْطَانُ وَاجْتَمَعَ بِأَخِيهِ يَتَحَدَّثَانِ بِهَذَا الْأَمْرِ وَمَا يَصْنَعُ مَعَ الْعَدُوِّ . وَبَاتَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ

ذِكْرُ وَقْعَةِ أَرْسُوفَ وَمَا أَنْكَتَتْ فِي قُلُوبِ الْمُسْلِمِينَ

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ السَّبْتِ رَابِعَ عَشَرَ بَلَغَ السُّلْطَانَ أَنَّ الْعَدُوَّ حَرَّكَ الرَّحِيلَ نَحْوَ أَرْسُوفَ . فَرَكِبَ وَرَتَّبَ الْأَطْلَابَ لِلْقِتَالِ وَعَزَمَ عَلَى مُضَايَقَتِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَمُصَادَمَتِهِمْ. وَأَخْرَجَ الْجَالِيشَ مِنْ كُلِّ طِلْبٍ . وَسَارَ الْعَدُوُّ حَتَّى قَارَبَ شَعْرَاءَ أَرْسُوفَ وَبَسَاتِينَهَا وَأَطْلَقَ عَلَيْهِمِ الْجَالِيشُ النُّشَّابَ وَلَزِمَتْهُمُ الْأَطْلَابُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ وَالسُّلْطَانُ يَقْرُبُ بَعْضُهَا وَيُوقِفُ بَعْضَهَا وَيُضَايِقُ الْعَدُوَّ مُضَايَقَةً عَظِيمَةً وَالْتَحَمَ الْقِتَالُ وَاضْطَرَمَتْ نَارُهُ مِنَ الْجَالِيشِ وَقُتِلَ مِنْهُمْ وَجُرِحَ . فَاشْتَدُّوا فِي السَّيْرِ عَسَاهُمْ يَبْلُغُونَ الْمَنْزِلَةَ فَيَنْزِلُونَ وَاشْتَدَّ بِهِمُ الْأَمْرُ وَضَاقَ بِهِمُ الْخِنَاقُ وَالسُّلْطَانُ يَطُوفُ مِنَ الْمَيْمَنَةِ إِلَى الْمَيْسَرَةِ يَحُثُّ النَّاسَ عَلَى الْجِهَادِ وَلَقِيَهُ مِرَارًا لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا صِبْيَانٌ بِحَيْمَيْنِ لَا غَيْرُ وَلَقِيَ أَخَاهُ وَهُوَ عَلَى مِثْلِ الْحَالِ وَالنُّشَّابُ يُجَاوِزُهُمَا وَلَمْ يَزَلِ الْأَمْرُ يَشْتَدُّ بِالطَّمَعِ لِلْعَدُوِّ وَطَمِعَ الْمُسْلِمُونَ فِيهِمْ طَمَعًا عَظِيمًا

www.marefa.org

حتى وصل أوائل راجليهم إلى بساتين أرسوف. ثم اجتمعت الخيالة وتواصوا على الحملة خشية على القوم ورأوا أنهم لا ينجيهم إلا الحملة. ولقد رأيتهم وقد اجتمعوا في وسط الرجالة وأخذوا رماحهم وصاحوا صيحة الرجل الواحد وفرج لهم رجالتهم وحملوا حملة واحدة من الجوانب كلها فحملت طائفة على الميمنة وطائفة على الميسرة وطائفة على القلب. فاندفع الناس بين أيديهم. وأنفق أني كنت في القلب ففر القلب فرارا عظيما فنويت التحيز إلى الميسرة وكانت أقرب إلي ووصلتها وقد انكسرت كسرة عظيمة وقربت أشد فرارا من الكل. فنويت التحيز إلى طلب السلطان وكان رد الأطلاب كلها كما جرت العادة ولم يبق للسلطان فيه إلا سبعة عشر مقاتلا لا غير وأخذ الباقين إلى القتال. لكن الأعلام كلها باقية ثابتة والكوس يدق لا يفتر. وأما السلطان فإنه لما رأى ما نزل بالمسلمين من هذه النازلة. سار حتى أتى طلبه فوجد فيه هذا النفر القليل. فوقف فيه والناس يفرون من الجوانب وهو يأمر أصحاب الكوس بالدق بحيث لا يفترون وكلما رأى فارا يأمر من يحضره عنده وفي الجملة ما أقصر الناس في فرارهم. فإن العدو حمل حملة ففروا. ثم وقف خوفا من الكمين فوقفوا وقاتلوا. ثم حمل حملة ثانية. ففروا وهم يقاتلون في فرارهم ثم وقف فوقفوا. ثم حمل حملة ثالثة حتى بلغ إلى رؤوس روابي هناك وأعالي تلول. ففروا إلى أن وقف العدو ووقفوا. وكان كل من رأى طلب السلطان واقفا والكوس يدق يستحي أن يجاوزه ويخاف غائلة ذلك فيعود إلى الطلب. فاجتمع في القلب خلق عظيم

www.marefa.org

وَوَقَفَ ٱلْعَدُوُّ قُبَالَتَهُمْ عَلَى رُؤُسِ ٱلتِّلَالِ وَٱلرَّوَابِي وَٱلسُّلْطَانُ وَاقِفٌ فِي
ظِلِّهِ وَٱلنَّاسُ يَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ حَتَّى أَتَتِ ٱلْعَسَاكِرُ بِأَسْرِهَا وَخَافَ ٱلْعَدُوُّ أَنْ
يَكُونَ فِي ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْكَمِينُ. فَتَرَاجَعُوا يَطْلُبُونَ ٱلْمَنْزِلَةَ وَعَادَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى
تَلٍّ فِي أَوَائِلِ ٱلشُّعَرَاءِ وَنَزَلَ عَلَيْهِ فِي خَيْمَتِهِ. وَلَقَدْ كُنْتُ فِي خِدْمَتِهِ أُسَلِّيهِ
وَهُوَ لَا يَقْبَلُ ٱلسُّلُوَّ وَظَلَّ عَلَيْهِ بِمِنْدِيلٍ وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَطْعَمَ شَيْئًا فَأُحْضِرَ
لَهُ شَيْءٌ لَطِيفٌ فَتَنَاوَلَ مِنْهُ شَيْئًا يَسِيرًا وَبَعَثَ ٱلنَّاسُ خَيْلَهُمْ لِلسَّقْيِ فَإِنَّ
ٱلْمَكَانَ كَانَ بَعِيدًا وَجَلَسَ يَنْتَظِرُ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلْعَوْدِ مِنَ ٱلسَّقْيِ وَٱلْجَرْحَى
يُحْضَرُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ يَتَقَدَّمُ بِمُدَاوَاتِهِمْ وَحَمْلِهِمْ وَقُتِلَ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ
رِجَالَةٌ كَثِيرَةٌ وَجُرِحَ مِنَ ٱلطَّائِفَتَيْنِ. وَكَانَ مِمَّنْ ثَبَتَ ٱلْمَلِكُ ٱلْعَادِلُ
وَٱلطَّوَاشِي فَايِمَازُ ٱلنَّجْمِيُّ وَٱلْمَلِكُ ٱلْأَفْضَلُ وَلَهُ وَصْدِمٌ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ
وَٱنْفَتَحَ دُمَّلٌ كَانَ فِي وَجْهِهِ وَسَالَ مِنْهُ دَمٌ كَثِيرٌ عَلَى وَجْهِهِ وَهُوَ صَابِرٌ
مُحْتَسِبٌ فِي ذٰلِكَ كُلِّهِ. وَثَبَتَ أَيْضًا طِلْبُ ٱلْمَوْصِلِيِّ وَمُقَدَّمُهُ عَلَاءُ ٱلدِّينِ
وَشَكَرَهُ ٱلسُّلْطَانُ عَلَى ذٰلِكَ وَتَفَقَّدَ ٱلنَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فَوَجَدُوا قَدِ
ٱسْتُشْهِدَ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلْعَسْكَرِ عُرِفَ مِنْهُمْ أَمِيرٌ كَبِيرٌ مُوسِكٌ. وَكَانَ شُجَاعًا
مَعْرُوفًا وَفَايِمَازُ ٱلْعَادِلِيُّ وَكَانَ مَذْكُورًا وَلَغُوشُ وَكَانَ شُجَاعًا. وَجُرِحَ
خَلْقٌ كَثِيرٌ وَخُيُولٌ كَثِيرَةٌ. وَقُتِلَ مِنَ ٱلْعَدُوِّ جَمَاعَةٌ وَأُسِرَ وَاحِدٌ فَأُحْضِرَ
فَأَمَرَ بِضَرْبِ عُنُقِهِ وَأُخِذَتْ مِنْهُمْ خُيُولٌ أَرْبَعَةٌ. وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ رَحِمَهُ
ٱللَّهُ إِلَى ٱلْقَلْبِ أَنْ يَسِيرَ إِلَى ٱلْعَوْجَاءِ فَٱسْتَأْذَنْتُهُ وَتَقَدَّمْتُهُ إِلَى ٱلْمَنْزِلِ وَجَلَسَ
هُوَ يَنْتَظِرُ ٱجْتِمَاعَ ٱلْعَسَاكِرِ وَمَا يَرِدُ مِنْ أَخْبَارِ ٱلْعَدُوِّ. وَكَانَ ٱلْعَدُوُّ قَدْ
نَزَلَ عَلَى أَرْسُوفَ

www.marefa.org

ٱلْمَنْزِلُ ٱلتَّاسِعُ : وَسِرْتُ بَعْدَ صَلَاةِ ٱلظُّهْرِ حَتَّى أَتَيْتُ ٱلْقَفْلَ وَقَدْ نَزَلَ قَاطِعُ ٱلنَّهْرِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلْعَوْجَاءِ فِي مَنْزِلَةٍ خَضْرَاءَ طَيِّبَةٍ عَلَى جَانِبِ ٱلنَّهْرِ وَوَصَلَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ٱلْمَنْزِلَةِ أَوَاخِرَ ٱلنَّهَارِ . وَٱزْدَحَمَ ٱلنَّاسُ عَلَى ٱلْقَنْطَرَةِ. فَنَزَلَ عَلَى تَلٍّ مُشْرِفٍ عَلَى ٱلنَّهْرِ وَلَمْ يَعُدْ إِلَى ٱلْخَيْمَةِ وَأَمَرَ ٱلْجَاوِيشَ أَنْ يُنَادِيَ فِي ٱلْعَسْكَرِ بِٱلْعُبُورِ إِلَيْهِ . وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْوَقْعَةِ أَمْرٌ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا ٱللهُ وَٱلنَّاسُ بَيْنَ جَرِيحِ ٱلْجَسَدِ وَجَرِيحِ ٱلْقَلْبِ . وَأَقَامَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى سُحْرَةِ ٱلْخَامِسَ عَشَرَ وَدُقَّ ٱلْكُوسُ وَرَكِبَ ٱلنَّاسُ وَسَارَ رَاجِعًا إِلَى جِهَةِ ٱلْعَدُوِّ حَتَّى وَصَلَ إِلَى قَرِيبِ أَرْمُوفَ وَصَفَّ ٱلْأَطْلَابَ لِلْقِتَالِ رَجَاءَ خُرُوجِ ٱلْعَدُوِّ وَمَسِيرِهِ حَتَّى يُصَادِفَهُ . فَلَمْ يَرْحَلِ ٱلْعَدُوُّ فِي ذٰلِكَ ٱلْيَوْمِ لِمَا نَالَهُمْ مِنَ ٱلتَّعَبِ وَأَقَامَ فُرْسَانُهُمْ إِلَى آخِرِ ٱلنَّهَارِ وَعَادَ إِلَى مَنْزِلِهِ ٱلَّتِي بَاتَ بِهَا . وَلَمَّا كَانَ صَبِيحَةُ ٱلسَّادِسَ عَشَرَ دُقَّ ٱلْكُوسُ وَرَكِبَ وَرَكِبَ ٱلنَّاسُ وَسَارَ نَحْوَهُمْ وَوَصَلَ خَبَرُ ٱلْعَدُوِّ أَنَّهُ قَدْ رَحَلَ طَالِبًا جِهَةَ يَافَا فَقَارَبَهُمْ مُقَارَبَةً عَظِيمَةً وَرَتَّبَ ٱلْأَطْلَابَ تَرْتِيبَ ٱلْقِتَالِ وَأَخْرَجَ ٱلْجَالِيشَ وَأَحْدَقَ ٱلْعَسْكَرُ ٱلْإِسْلَامِيُّ بِٱلْقَوْمِ وَأَلْقَوْا عَلَيْهِمْ مِنَ ٱلنُّشَّابِ مَا كَادَ يَسُدُّ ٱلْأُفُقَ وَقَاتَلَهُمْ قُلُوبُهُمْ قِتَالَ ٱلْحَنَقِ وَقَصَدَ رَحِمَهُ ٱللهُ تَحْرِيكَ عَزَائِمِهِمْ عَلَى ٱلْحَمْلَةِ حَتَّى إِذَا حَمَلُوا أَلْقَى ٱلنَّاسَ عَلَيْهِمْ وَيُعْطِي ٱللهُ ٱلنَّصْرَ لِمَنْ يَشَاءُ . فَلَمْ يَحْمِلُوا وَحَفِظُوا نُفُوسَهُمْ وَسَارُوا مُصْطَفِّينَ عَلَى عَادَتِهِمْ حَتَّى أَتَوْا نَهْرَ ٱلْعَوْجَاءِ وَهُوَ ٱلنَّهْرُ ٱلَّذِي مَنْزِلَتُنَا أَعْلَاهُ . فَنَزَلَ فِي أَسْفَلِهِ وَعَبَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى غَرْبِيِّ ٱلنَّهْرِ وَأَقَامَ ٱلْبَاقُونَ مِنَ ٱلْجَانِبِ ٱلشَّرْقِيِّ . فَلَمَّا عَلِمَ ٱلنَّاسُ بِنُزُولِهِمْ تَرَاجَعَ ٱلنَّاسُ عَنْهُمْ وَعَادَ ٱلسُّلْطَانُ إِلَى ٱلْقَفْلِ وَنَزَلَ فِي خَيْمَتِهِ وَأُطْعِمَ ٱلطَّعَامَ وَأُتِيَ

www.marefa.org

بِأَرْبَعَةِ مِنَ الإِفْرَنْجِ قَدْ أَخَذَتْهُمُ الْعَرَبُ وَمَعَهُمُ امْرَأَةٌ فَرُفِعُوا إِلَى الزَّرْدَخَانَةِ وَأَقَامَ بَقِيَّةَ ذَلِكَ الْيَوْمِ يَكْتُبُ الْكُتُبَ إِلَى الأَطْرَافِ بِاسْتِحْضَارِ بَقِيَّةِ الْعَسَاكِرِ وَحَضَرَ مَنْ أَخْبَرَهُ أَنَّهُ قُتِلَ مِنَ الْعَدُوِّ يَوْمَ أَرْسُوفَ خَمْلٌ كَثِيرٌ وَأَنَّهُ نَهَبَهَا الْعَرَبُ وَعَدُوُّهَا وَزَادَتْ عَلَى مِئَةٍ وَأَمَرَ السُّلْطَانُ أَنْ تَرْحَلَ الْجِمَالُ وَتَتَقَدَّمَ إِلَى الرَّمْلَةِ وَبَاتَ هُوَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ

الْمَنْزِلُ الْعَاشِرُ: وَلَمَّا كَانَ سَابِعَ عَشَرَ صَلَّى الصُّبْحَ وَرَحَلَ وَرَحَلَ مَعَهُ الثِّقَلُ الصَّغِيرُ وَسَارَ يُرِيدُ الرَّمْلَةَ وَأُتِيَ بِاثْنَيْنِ مِنَ الإِفْرَنْجِ فَأَمَرَ بِضَرْبِ أَعْنَاقِهِمَا. وَوَصَلَ مِنَ الْبَرَكَةِ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ الْعَدُوَّ رَحَلَ مِنْ يَافَا. وَسَارَ السُّلْطَانُ إِلَى أَنْ أَتَى الرَّمْلَةَ وَأُتِيَ بِاثْنَيْنِ مِنَ الإِفْرَنْجِ أَيْضًا. فَسَأَلْنَاهُمَا عَنْ أَحْوَالِهِمْ. فَذَكَرَا أَنَّهُمْ رُبَّمَا أَقَامُوا بِيَافَا أَيَّامًا وَفِي أَنْفُسِهِمْ عِمَارَتُهَا وَإِصْلَاحُهَا بِالرِّجَالِ وَالْعُدَدِ. وَأَحْضَرَ السُّلْطَانُ أَرْبَابَ مَشُورَتِهِ وَشَاوَرَهُمْ فِي أَمْرِ عَسْقَلَانَ وَهَلْ إِنَّهَا تُخْرَبُ أَوْ تُبْقَى. وَاتَّفَقَ الرَّأْيُ عَلَى أَنْ يَتَخَلَّفَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعَسْكَرِ مُقَارِبَ الْعَدُوِّ لِيَعْرِفَ أَحْوَالَهُمْ وَإِنْصَالَهَا وَأَنْ يَسِيرَ هُوَ وَيُخَرِّبَ عَسْقَلَانَ خَشْيَةَ أَنْ يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهَا الإِفْرَنْجُ وَهِيَ عَامِرَةٌ فَيَقْتُلُوا مَنْ بِهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَيَأْخُذُوا بِهَا الْقُدْسَ الشَّرِيفَ وَيَقْطَعُونَ بِهَا طَرِيقَ مِصْرَ وَخَيْبَ السُّلْطَانُ مِنْ ذَلِكَ وَعَلِمَ عَجْزَ الْمُسْلِمِينَ عَنْ حِفْظِهَا لِقُرْبِ عَهْدِهِمْ مِنْ عَكَّا وَمَا جَرَى عَلَى مَنْ كَانَ مُقِيمًا بِهَا. فَتَعَيَّنَ لِذَلِكَ خَرَابُ عَسْقَلَانَ. فَسَارَ الثِّقَلُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ. وَتَقَدَّمَ إِلَى وَلَدِهِ الْمَلِكِ الأَفْضَلِ أَنْ سَارَ عَقِبَ الثِّقَلِ نِصْفَ اللَّيْلِ وَسَارَ هُوَ وَأَنَا فِي خِدْمَتِهِ سَحَرَ الأَرْبِعَاءِ

www.marefa.org

المنزل الحادي عشر وهو على عسقلان. ولما كان يوم الأربعاء ثامن عشر الشهر وصل السلطان إلى يبنا فنزل بها وتغدى وأخذ الناس راحة. ثم رحل وسار حتى أتى أرض عسقلان وقد ضربت خيمته بعيدا منها. فبات هناك مهموما بسبب الخراب وما نام إلا قليلا. ولقد دعاني في خدمته سحرا وكنت فارقت خدمته بعد مضي نصف الليل. فحضرت وبدأ بالحديث في معنى خرابها وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث في المعنى ولقد قال لي: والله لأن أفقد أولادي بأسرهم أحب إلي من أن أقدم منها حجرا واحدا ولكن إذا قضى الله ذلك وفيه دعوته لحفظ مصلحة المسلمين. ثم استخار الله تعالى فأوقع الله في نفسه أن المصلحة في خرابها لعجز المسلمين عن حفظها. فاستحضر الوالي فبصر بها وهو من كبار مماليكه وذوي الآراء منهم فأمر بجمع القعلة فيها. ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه مستنفرا الناس للخراب. وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر برجا معلوما يخربونه. ودخل الناس البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء وكان بلدا خفيفا على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا في سكنه فلحق الناس عليه حزن عظيم وغم عويل أهله على مفارقة أوطانهم وشرعوا في بيع ما لا يمكن حمله وبيع ما يسوى عشرة دراهم بدرهم واحد وانحط البلد وخرج أهله إلى العسكر بذراريهم ونساءهم خشية أن يهجم الإفرنج وبذلوا في الكراء أضعاف ما يسوى. قوم إلى مصر وقوم إلى الشام وقوم يمشون. وجرت أمور عظيمة وفتنة هائلة

www.marefa.org

لَعَلَّهَا لَمْ تَخْتَصَّ بِالَّذِينَ ظَلَمُوا. وَكَانَ هُوَ بِنَفْسِهِ وَوَلَدُهُ الْمَلِكُ الْأَفْضَلُ يَسْتَعْمِلَانِ النَّاسَ فِي الْخَرَابِ وَالْحَثِّ عَلَيْهِ خَشْيَةَ أَنْ يَسْمَعَ الْعَدُوُّ فَيَحْضُرَ وَلَا يُمْكِنَ مِنْ خَرَابِهَا. وَبَاتَ النَّاسُ فِي الْهَمِّ عَلَى أَتَمِّ حَالٍ مِنَ النَّصَبِ وَالنَّصَبِ. وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَصَلَ مِنْ جَانِبِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ مَنْ أَخْبَرَ أَنَّ الْإِفْرَنْجَ تَحَدَّثُوا مَعَهُ فِي الصُّلْحِ وَأَنَّهُ خَرَجَ إِلَيْهِ ابْنُ الْهُنْفَرِي وَتَحَدَّثَ مَعَهُ وَأَنَّهُ طَلَبَ جَمِيعَ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ. فَرَأَى السُّلْطَانُ أَنَّ ذَلِكَ مَصْلَحَةٌ لِمَا رَأَى فِي أَنْفُسِ النَّاسِ مِنَ الضَّجَرِ وَالسَّأْمَةِ مِنَ الْقِتَالِ وَالْمُصَابَرَةِ وَكَثْرَةِ مَا عَلَاهُمْ مِنَ الدُّيُونِ. وَكَتَبَ إِلَيْهِ يَسْمَعُ فِي الْحَدِيثِ فِي ذَلِكَ. وَفُوِّضَ أَمْرُ ذَلِكَ إِلَى رَأْيِهِ وَأَصْبَحَ الْعِشْرِينَ عَلَى الْإِصْرَارِ عَلَى الْخَرَابِ وَاسْتِعْمَالِ النَّاسِ فِيهِ وَحَتْمِ عَلَيْهِ وَأَبَاحَهُمُ الْهُرِيَّ الَّذِي كَانَ ذَخِيرَةً فِي الْبَلَدِ لِلْعَجْزِ عَنْ نَقْلِهِ وَضَعْفِ الْوَقْتِ وَالْخَوْفِ مِنْ هُجُومِ الْإِفْرَنْجِ. وَأَمَرَ بِحَرْقِ الْبَلَدِ فَأُضْرِمَتِ النَّارُ فِي بُيُوتِهِ وَأَتْنُورِهِ وَرَفَضَ أَهْلُهُ بَوَاقِيَ أَقْمِشَتِهِ لِلْعَجْزِ عَنْ نَقْلِهَا وَالْأَخْبَارُ تَتَوَاتَرُ مِنْ جَانِبِ الْعَدُوِّ بِعِمَارَةِ يَافَا. وَكَتَبَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ يُخْبِرُ أَنَّ الْقَوْمَ لَمْ يَعْلَمُوا بِخَرَابِ الْبَلَدِ فَأَجَابَهُ أَنَّ سَوْفَ الْقَوْمِ وَطَوِيلَ الْحَدِيثِ لَعَلَّنَا نَتَمَكَّنُ مِنَ الْخَرَابِ وَأَمَرَ بِحَشْرِ أَبْرَاجِ الْبَلَدِ بِالْأَحْطَابِ وَأَنْ تُحْرَقَ وَأَصْبَحَ الْحَادِيَ وَالْعِشْرِينَ رَكِبَ بَحْثُ النَّاسِ وَدَامَ يَسْتَعْمِلُهُمْ عَلَى التَّخْرِيبِ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِهِ حَتَّى أَنَّهُ مِزَاجُهُ الْتَاثَ قَرِيبًا امْتَنَعَ بِسَبَبِهِ مِنَ الرُّكُوبِ وَالْغَدَاةَ مَوْمِنٍ. وَأَخْبَارُ الْعَدُوِّ تَتَوَاصَلُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَيَجْرِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمَلِكِ وَالْعَسْكَرِ وَقَعَاتٌ وَقَلَبَاتٌ وَهُوَ يُوَاظِبُ عَلَى الْحَثِّ عَلَى الْخَرَابِ وَنَقْلِ النَّقْلِ إِلَى قَرِيبِ الْبَلَدِ لِيُعَاوِنَ الْعُلْمَانَ وَالْحَمَّالُونَ

www.marefa.org

وَغَيْرُهُمْ فِي ذٰلِكَ . فَخَرِبَ مِنَ السُّورِ مُعْظَمُهُ وَكَانَ عَظِيمَ الْبِنَاءِ بِحَيْثُ أَنَّهُ كَانَ عَرْضُهُ فِي مَوَاضِعَ تِسْعَةَ أَذْرُعٍ وَفِي مَوَاضِعَ عَشْرَ أَذْرُعٍ . ذَكَرَ بَعْضُ الْحَجَّارِينَ لِلسُّلْطَانِ وَأَنَا حَاضِرٌ أَنَّ عَرْضَ السُّورِ الَّذِي يَنْقُبُونَهُ فِيهِ مِقْدَارُ رُمْحٍ . وَلَمْ يَزَلِ الْخَرَابُ وَالْحَرِيقُ يَعْمَلُ فِي الْبَلَدِ وَأَسْوَارِهِ إِلَى سَلْخِ شَعْبَانَ . وَعِنْدَ ذٰلِكَ وَصَلَ مِنْ جَرْجِيكَ كِتَابٌ يَذْكُرُ فِيهِ أَنَّ الْقَوْمَ يَتَسَحَّبُونَ وَصَارُوا يَخْرُجُونَ مِنْ يَافَا يَغَارُونَ عَلَى الْبِلَادِ الْقَرِيبَةِ مِنْهَا . وَتَحَرَّكَ السُّلْطَانُ لَعَلَّهُ يَبْلُغُ مِنْهُمْ غَرَضًا فِي غَرْمِهِمْ . فَعَزَمَ عَلَى الرَّحِيلِ وَعَلَى أَنْ يُخَلِّفَ فِي عَسْقَلَانَ حَجَّارِينَ وَمَعَهُمْ خَيْلٌ يُجَرِّبُهُمْ وَيَسْتَفْضُونَهُمْ فِي الْخَرَابِ . فَرَأَى أَنْ يُؤَخِّرَ بَعْثَهُ أَنْ يُحْرِقَ الْبُرْجَ الْمَعْرُوفَ بِالْأَسْبِتَارِ . وَكَانَ بُرْجًا عَظِيمًا مُشْرِفًا عَلَى الْبَحْرِ كَالْقَلْعَةِ الْمَنِيعَةِ . وَلَقَدْ دَخَلْتُهُ وَعَلَوْتُهُ فَرَأَيْتُ بِنَاءَهُ أَحْكَمَ بِنَاءٍ بِعَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَا يَعْمَلُ فِيهِ الْمَعَاوِلُ . فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يُحْرِقُوهُ حَتَّى يَبْنَى بِالْحَرِيقِ فَأَبَى لِلْخَرَابِ . وَأَصْبَحَ مُسْتَهَلَّ رَمَضَانَ أَمَرَ وَلَدُ الْمَلِكِ الْأَفْضَلُ أَنْ يُبَاشِرَ ذٰلِكَ بِنَفْسِهِ وَخَوَاصِّهِ . وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَحْمِلُ الْخَشَبَ هُوَ وَخَوَاصُّهُ لِحَرِيقِ الْبُرْجِ . وَلَمْ يَزَلِ النَّاسُ يَنْقُلُونَ الْخَشَبَ وَيَحْشُونَهُ فِي الْبُرْجِ حَتَّى امْتَلَأَ ثُمَّ أُطْلِقَتْ فِيهِ النَّارُ فَاشْتَعَلَ الْخَشَبُ وَبَقِيَ النَّارُ تَشْعَلُ فِيهِ يَوْمَيْنِ بِلَيْلَتِهِمَا . ثُمَّ رَحَلَ السُّلْطَانُ ثَانِيَ رَمَضَانَ نِصْفَ اللَّيْلِ خَشْيَةَ عَلَى مَزَاجِهِ مِنَ الْحَرِّ وَوَصَلَ بَيْنَا ضَاحِيَ النَّهَارِ وَبَاتَ فِي تِلْكَ الْمَنْزِلَةِ وَأَصْبَحَ ثَالِثَ الشَّهْرِ رَاحِلًا إِلَى جِهَةِ الرَّمْلَةِ .....

www.marefa.org

نُخْبَةٌ

مِنْ كِتَابِ التَّارِيخِ لِأَبِي الْفِدَاءِ

الْمَعْرُوفِ بِصَاحِبِ حَمَاةَ

ذِكْرُ وَفَاةِ نُورِ الدِّينِ وَمَا كَانَ لَهُ مِنَ الصِّفَاتِ

فِي سَنَةِ تِسْعٍ وَسِتِّينَ وَخَمْسِمِائَةٍ تُوُفِّيَ الْمَلِكُ الْعَادِلُ نُورُ الدِّينِ بْنُ مَحْمُودِ بْنِ عِمَادِ الدِّينِ زَنْكِيِّ بْنِ أُقْسُنْقُرَ صَاحِبُ الشَّامِ وَدِيَارِ الْجَزِيرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ حَادِيَ عَشَرَ شَوَّالٍ بِعِلَّةِ الْخَوَانِيقِ بِقَلْعَةِ دِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ. وَكَانَ نُورُ الدِّينِ قَدْ شَرَعَ يَتَجَهَّزُ لِلدُّخُولِ إِلَى مِصْرَ لِأَخْذِهَا مِنْ صَلَاحِ الدِّينِ وَكَانَ يُرِيدُ أَنْ يُخَلِّيَ ابْنَ أَخِيهِ سَيْفَ الدِّينِ غَازِيَ بْنَ مَوْدُودٍ فِي الشَّامِ فَبَالَغَ الْفَرَنْجُ وَسَيَّرَ هُوَ بِنَفْسِهِ إِلَى مِصْرَ. فَأَتَاهُ أَمْرُ اللهِ الَّذِي لَا مَرَدَّ لَهُ. وَكَانَ نُورُ الدِّينِ أَسْمَرَ طَوِيلَ الْقَامَةِ لَيْسَ لَهُ لِحْيَةٌ إِلَّا فِي حَنَكِهِ حَسَنَ الصُّورَةِ. وَكَانَ قَدِ اتَّسَعَ مُلْكُهُ جِدًّا وَخُطِبَ لَهُ بِالْحَرَمَيْنِ وَالْيَمَنِ لَمَّا مَلَكَهَا تُورَانْ شَاهْ بْنُ أَيُّوبَ وَكَذَلِكَ كَانَ يُخْطَبُ لَهُ بِمِصْرَ. وَكَانَ مَوْلِدُ نُورِ الدِّينِ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَطَبَّقَ ذِكْرُهُ الْأَرْضَ لِحُسْنِ سِيرَتِهِ وَعَدْلِهِ وَكَانَ مِنَ الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ عَلَى قَدَمٍ عَظِيمٍ وَكَانَ يُصَلِّي كَثِيرًا مِنَ اللَّيْلِ وَكَانَ كَمَا قِيلَ

جَمَعَ الشَّجَاعَةَ وَالْخُشُوعَ لِرَبِّهِ ... مَا أَحْسَنَ الْمِحْرَابَ فِي الْمِحْرَابِ

وَكَانَ عَارِفًا بِالْفِقْهِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَلَيْسَ عِنْدَهُ تَعَصُّبٌ وَهُوَ الَّذِي بَنَى أَسْوَارَ مُدُنِ الشَّامِ مِنْهَا دِمَشْقُ وَحِمْصُ وَحَمَاةُ وَحَلَبُ وَشَيْزَرُ وَبَعْلَبَكُّ وَغَيْرُهَا لَمَّا هُدِمَتْ بِالزَّلَازِلِ وَبَنَى الْمَنَارِسَ

www.marefa.org

ٱلْكَبِيرَةَ ٱلْحَنَفِيَّةَ وَٱلشَّافِعِيَّةَ وَلَا يَحْتَمِلُ هٰذَا ٱلْمُخْتَصَرُ ذِكْرَ فَضَائِلِهِ

وَلَمَّا تُوُفِّيَ نُورُ ٱلدِّينِ قَامَ ٱبْنُهُ ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ إِسْمٰعِيلُ بْنُ نُورِ ٱلدِّينِ مَحْمُودِ بِٱلْمُلْكِ بَعْدَهُ وَعُمْرُهُ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً وَحَلَفَ لَهُ ٱلْعَسْكَرُ بِدِمَشْقَ وَأَقَامَ بِهَا وَأَطَاعَهُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ بِمِصْرَ وَخُطِبَ لَهُ بِهَا وَضُرِبَتِ ٱلسِّكَّةُ بِٱسْمِهِ. وَكَانَ ٱلْمُتَوَلِّي لِتَدْبِيرِ ٱلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ وَتَدْبِيرِ دَوْلَتِهِ ٱلْأَمِيرَ شَمْسَ ٱلدِّينِ مُحَمَّدًا ٱلْمَعْرُوفَ بِٱبْنِ ٱلْمُقَدَّمِ. وَلَمَّا مَاتَ نُورُ ٱلدِّينِ وَمَلَكَ ٱبْنُهُ ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ سَارَ مِنَ ٱلْمَوْصِلِ سَيْفُ ٱلدِّينِ غَازِي بْنُ قُطْبِ ٱلدِّينِ مَوْدُودِ بْنِ عِمَادِ ٱلدِّينِ زَنْكِي وَمَلَكَ جَمِيعَ ٱلْبِلَادِ ٱلْجَزَرِيَّةِ (الجزرية)

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ سَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ. وَفِي أَوَّلِ هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ ٱجْتَمَعَ عَلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلصَّعِيدِ يُقَالُ لَهُ ٱلْكَنْزُ جَمْعٌ كَثِيرٌ وَأَظْهَرَ ٱلْخِلَافَ عَلَى صَلَاحِ ٱلدِّينِ فَأَرْسَلَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ إِلَيْهِ عَسْكَرًا فَقَتَلُوا وَقُتِلَ ٱلْكَنْزُ وَجَمَاعَةٌ مَعَهُ وَٱنْهَزَمَ ٱلْبَاقُونَ

ذِكْرُ مُلْكِ صَلَاحِ ٱلدِّينِ دِمَشْقَ وَغَيْرَهَا

فِي هٰذِهِ ٱلسَّنَةِ سَلَخَ رَبِيعٌ ٱلْأَوَّلِ مَلَكَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ دِمَشْقَ وَحِمْصَ وَحَمَاةَ. وَسَبَبُهُ أَنَّ شَمْسَ ٱلدِّينِ ٱبْنَ ٱلدَّايَةِ ٱلْمُقِيمَ بِحَلَبَ أَرْسَلَ سَعْدَ ٱلدِّينِ كَمُشْتِكِينَ يَسْتَدْعِي ٱلْمَلِكَ ٱلصَّالِحَ ٱبْنَ نُورِ ٱلدِّينِ مِنْ دِمَشْقَ إِلَى حَلَبَ لِيَكُونَ مُقَامَهُ بِهَا. فَسَارَ ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ إِلَى حَلَبَ مَعَ سَعْدِ ٱلدِّينِ كَمُشْتِكِينَ. وَلَمَّا ٱسْتَقَرَّ بِحَلَبَ وَتَمَكَّنَ كَمُشْتِكِينُ قَبَضَ عَلَى شَمْسِ ٱلدِّينِ ٱبْنِ ٱلدَّايَةِ وَإِخْوَتِهِ وَقَبَضَ عَلَى ٱلرَّئِيسِ ٱبْنِ ٱلْخَشَّابِ وَإِخْوَتِهِ وَهُوَ رَئِيسُ حَلَبَ وَٱسْتَبَدَّ سَعْدُ ٱلدِّينِ بِتَدْبِيرِ ٱلْمَلِكِ ٱلصَّالِحِ

www.marefa.org

فَخَافَهُ ابْنُ الْمُقَدَّمِ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأُمَرَاءِ الَّذِينَ بِدِمَشْقَ. فَكَاتَبُوا صَلَاحَ الدِّينِ وَاسْتَدْعَوْهُ لِيَمْلِكُوهُ عَلَيْهِمْ. فَسَارَ جَرِيدَةً فِي سَبْعِ مِائَةِ فَارِسٍ وَلَمْ يَلْبَثْ وَوَصَلَ إِلَى دِمَشْقَ فَخَرَجَ كُلُّ مَنْ كَانَ بِهَا مِنَ الْعَسْكَرِ وَالتُّقَوِيَّةِ وَخَدَمُوهُ وَنَزَلَ بِدَارِ وَالِدِهِ أَيُّوبَ الْمَعْرُوفَةِ بِدَارِ الْعَقِيقِ وَعَصَتْ عَلَيْهِ الْقَلْعَةُ. وَكَانَ فِيهَا مِنْ جِهَةِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ خَادِمٌ اسْمُهُ رَيْحَانُ. فَرَاسَلَهُ صَلَاحُ الدِّينِ وَاسْتَمَالَهُ فَسَلَّمَ الْقَلْعَةَ إِلَيْهِ. فَصَعِدَ إِلَيْهَا صَلَاحُ الدِّينِ وَأَخَذَ مَا فِيهَا مِنَ الْأَمْوَالِ. وَلَمَّا ثَبَتَ قَدَمُهُ وَقَرَّرَ أَمْرَ دِمَشْقَ اسْتَخْلَفَ بِهَا أَخَاهُ سَيْفَ الْإِسْلَامِ طُغْتِكِينَ بْنَ أَيُّوبَ وَسَارَ إِلَى حِمْصَ مُسْتَهَلَّ جُمَادَى الْأُولَى

وَكَانَتْ حِمْصُ وَحَمَاةُ وَقَلْعَةُ بَارِينَ وَسَلَمِيَّةُ وَتَلُّ خَالِدٍ وَالرُّهَا مِنْ بِلَادِ الْجَزِيرَةِ فِي أَقْطَاعِ فَخْرِ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ الزَّعْفَرَانِيِّ. فَلَمَّا مَاتَ نُورُ الدِّينِ لَمْ يُمْكِنْ فَخْرَ الدِّينِ مَسْعُودًا الْمُقَامُ بِحِمْصَ وَحَمَاةَ لِسُوءِ سِيرَتِهِ مَعَ النَّاسِ وَكَانَتْ هَذِهِ الْبِلَادُ لَهُ بِغَيْرِ قِلَاعِهَا. فَإِنَّ قِلَاعَهَا فِيهَا وِلَايَةٌ لِنُورِ الدِّينِ وَلَيْسَ لِفَخْرِ الدِّينِ مَعَهُمْ فِي الْقِلَاعِ حُكْمٌ إِلَّا بَارِينَ فَإِنَّ قَلْعَتَهَا كَانَتْ لَهُ أَيْضًا. وَنَزَلَ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى حِمْصَ فِي حَادِي عَشَرَ جُمَادَى الْأُولَى وَمَلَكَ الْمَدِينَةَ وَعَصَتْ عَلَيْهِ الْقَلْعَةُ. فَنَزَلَ عَلَيْهَا مَنْ يُضَيِّقُ عَلَيْهَا وَرَحَلَ إِلَى حَمَاةَ فَمَلَكَ مَدِينَتَهَا مُسْتَهَلَّ جُمَادَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ. وَكَانَ بِقَلْعَتِهَا الْأَمِيرُ عِزُّ الدِّينِ جُرْدِيكُ أَحَدُ الْمَمَالِيكِ النُّورِيَّةِ. فَامْتَنَعَ فِي الْقَلْعَةِ فَذَكَرَ لَهُ صَلَاحُ الدِّينِ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ غَرَضٌ إِلَّا حِفْظُ بِلَادِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ عَلَيْهِ وَأَنَّمَا هُوَ نَائِبُهُ وَقَصَدُهُ مِنْ جُرْدِيكَ الْمَسِيرُ إِلَى حَلَبَ فِي رِسَالَةٍ فَاسْتَغْلَظَ جُرْدِيكُ عَلَى ذَلِكَ. وَسَارَ جُرْدِيكُ إِلَى حَلَبَ بِرِسَالَةِ صَلَاحِ الدِّينِ وَاسْتَخْلَفَ فِي

www.marefa.org

قَلْعَةِ حَمَاةَ أَخَاهُ. فَلَمَّا وَصَلَ جُرْدِيكُ إِلَى حَلَبَ قَبَضَ عَلَيْهِ كَمُشْتِكِينُ وَسَجَنَهُ. فَلَمَّا عَلِمَ أَخُوهُ بِذَلِكَ سَلَّمَ الْقَلْعَةَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ فَمَلَكَهَا

ثُمَّ سَارَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى حَلَبَ وَحَصَرَهَا وَبِهَا الْمَلِكُ الصَّالِحُ. فَجَمَعَ أَهْلَ حَلَبَ وَقَاتَلُوا صَلَاحَ الدِّينِ وَصَدُّوهُ عَنْ حَلَبَ وَأَرْسَلَ سَعْدُ الدِّينِ كَمُشْتِكِينُ إِلَى سِنَانٍ مُقَدَّمِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ أُمُورًا عَظِيمَةً لِيَقْتُلُوا صَلَاحَ الدِّينِ. فَأَرْسَلَ سِنَانٌ جَمَاعَةً وَوَثَبُوا عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ فَقَتَلُوا دُونَهُ.

وَلَمْ يَسْتَمِرَّ صَلَاحُ الدِّينِ مُحَاصِرًا لِحَلَبَ إِلَى مُسْتَهَلِّ رَجَبٍ وَرَحَلَ عَنْهَا بِسَبَبِ نُزُولِ الْفَرَنْجِ عَلَى حِمْصَ وَسَارُوا إِلَى حِمْصَ فَرَحَلَ الْفَرَنْجُ عَنْهَا وَوَصَلَ صَلَاحُ الدِّينِ إِلَى حِمْصَ وَحَصَرَ قَلْعَتَهَا وَمَلَكَهَا فِي الْحَادِي وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ مِنَ السَّنَةِ. ثُمَّ سَارَ إِلَى بَعْلَبَكَّ فَمَلَكَهَا

وَلَمَّا اسْتَقَرَّ مُلْكُ صَلَاحِ الدِّينِ بِهَذِهِ الْبِلَادِ. أَرْسَلَ الْمَلِكُ الصَّالِحُ إِلَى ابْنِ عَمِّهِ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي صَاحِبِ الْمَوْصِلِ يَسْتَنْجِدُهُ عَلَى صَلَاحِ الدِّينِ. فَجَهَّزَ جَيْشَهُ صُحْبَةَ أَخِيهِ عِزِّ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ مَوْدُودِ زَنْكِي وَجَعَلَ مُقَدَّمَ الْجَيْشِ أَكْبَرَ أُمَرَائِهِ وَهُوَ عَزُّ الدِّينِ جُرْدِيكُ وَلَقَبُهُ سَلْغُنْدَارُ وَطَلَبَ أَخَاهُ الْأَكْبَرَ عِمَادَ الدِّينِ زَنْكِي بْنَ مَوْدُودٍ صَاحِبَ سِنْجَارَ يَسِيرُ فِي الْجُمْلَةِ أَيْضًا. فَامْتَنَعَ مُضَايَعَةً لِصَلَاحِ الدِّينِ. فَسَارَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي وَحَصَرَهُ بِسِنْجَارَ وَوَصَلَ عَسْكَرُ الْمَوْصِلِ صُحْبَةَ مَسْعُودِ بْنِ مَوْدُودٍ وَسَلْغُنْدَارَ إِلَى حَلَبَ وَانْضَمَّ إِلَيْهِمْ عَسْكَرُ حَلَبَ وَسَارَ إِلَى صَلَاحِ الدِّينِ. فَأَرْسَلَ صَلَاحُ الدِّينِ يَبْذُلُ حِمْصَ وَحَمَاةَ وَأَنْ يَمُرَّ بِيَدِهِ دِمَشْقُ وَيَكُونَ فِيهَا نَائِبًا لِلْمَلِكِ الصَّالِحِ. فَلَمْ يُجِيبُوا إِلَى ذَلِكَ وَسَارُوا إِلَى قِتَالِهِ وَاقْتَتَلُوا

www.marefa.org

عِنْدَ قُرُونِ حَمَاةَ فَانْهَزَمَ عَسْكَرُ الْمَوْصِلِ وَحَلَبَ وَغَنِمَ صَلَاحُ الدِّينِ وَعَسْكَرُهُ أَمْوَالَهُمْ وَتَبِعَهُمْ صَلَاحُ الدِّينِ حَتَّى حَصَرَهُمْ فِي حَلَبَ وَقَطَعَ حِينَئِذٍ خُطْبَةَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ بْنِ نُورِ الدِّينِ وَأَزَالَ اسْمَهُ عَنِ السِّكَّةِ وَاسْتَبَدَّ بِالسَّلْطَنَةِ. فَرَاسَلُوا صَلَاحَ الدِّينِ فِي الصُّلْحِ عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا بِيَدِهِ مِنَ الشَّامِ وَلِلْمَلِكِ الصَّالِحِ مَا بَقِيَ بِيَدِهِ مِنْهُ فَصَالَحَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَحَلَ عَنْ حَلَبَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَّلِ مِنْ شَوَّالٍ مِنْ هَذِهِ السَّنَةِ. وَفِي الْعَشْرِ الْأَخِيرِ مِنْ شَوَّالٍ مَلَكَ السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ قَلْعَةَ بَارِينَ وَأَخَذَهَا مِنْ صَاحِبِهَا فَخْرِ الدِّينِ مَسْعُودِ بْنِ الزَّعْفَرَانِيِّ. وَكَانَ فَخْرُ الدِّينِ الْمَذْكُورُ مِنْ أَكَابِرِ الْأُمَرَاءِ النُّورِيَّةِ

ذِكْرُ انْهِزَامِ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي صَاحِبِ الْمَوْصِلِ مِنَ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ

ثُمَّ دَخَلَتْ سَنَةُ إِحْدَى وَسَبْعِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ وَفِيهَا عَاشِرَ شَوَّالٍ كَانَ الْمُصَافَّةُ بَيْنَ السُّلْطَانِ صَلَاحِ الدِّينِ وَبَيْنَ سَيْفِ الدِّينِ غَازِي بْنِ مَوْدُودِ بْنِ زَنْكِي بْنِ السُّلْطَانِ. فَهَرَبَ سَيْفُ الدِّينِ غَازِي وَالْعَسَاكِرُ الَّتِي كَانَتْ مَعَهُ. فَإِنَّهُ كَانَ قَدِ اسْتَجَدَّ بِصَاحِبِ حِصْنِ كِيفَا وَصَاحِبِ مَارِدِينَ وَغَيْرِهِمَا وَنَهَتْ عَلَى سَيْفِ الدِّينِ غَازِي الْهَزِيمَةُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَوْصِلِ مَرْعُوبًا وَقَصَدَ الْهُرُوبَ مِنْهَا إِلَى بَعْضِ الْقِلَاعِ فَثَبَّتَهُ وَزِيرُهُ وَأَقَامَ بِالْمَوْصِلِ وَاسْتَوْلَى السُّلْطَانُ صَلَاحُ الدِّينِ عَلَى أَثْقَالِ عَسْكَرِ الْمَوْصِلِ وَغَيْرِهِمْ وَغَنِمَ مَا فِيهَا. ثُمَّ سَارَ إِلَى بَزَابَةَ وَحَصَرَهَا وَتَسَلَّمَهَا. ثُمَّ سَارَ إِلَى مَنْبِجَ فَحَصَرَهَا فِي آخِرِ شَوَّالٍ. وَكَانَ صَاحِبُهَا قُطْبُ الدِّينِ يَنَالُ بْنُ حَسَّانَ

www.marefa.org

ٱلْمَجِيِّ شَدِيدَ ٱلْبُغْضِ لِصَلَاحِ ٱلدِّينِ وَفَتْحَهَا عَنْوَةً وَأَسَرَ بَنَالَ وَأَخَذَ جَمِيعَ مَوْجُودِهِ. ثُمَّ أَطْلَقَهُ فَسَارَ بَنَالُ إِلَى ٱلْمَوْصِلِ فَأَقْطَعَهُ سَيْفُ ٱلدِّينِ غَازِي مَدِينَةَ ٱلرَّقَّةِ

ثُمَّ سَارَ ٱلسُّلْطَانُ صَلَاحُ ٱلدِّينِ إِلَى عَزَازَ وَنَازَلَهَا ثَالِثَ ذِي ٱلْقَعْدَةِ وَتَسَلَّمَهَا حَادِيَ عَشَرَ ذِي ٱلْحِجَّةِ. فَوَثَبَ إِسْمَاعِيلُ عَلَى صَلَاحِ ٱلدِّينِ فِي حِصَارِهِ عَزَازَ فَضَرَبَهُ بِسِكِّينٍ فِي رَأْسِهِ فَجَرَحَهُ فَأَمْسَكَ صَلَاحُ ٱلدِّينِ ٱلْإِسْمَاعِيلِيَّ وَنَبَّهَ يَضْرِبُ بِٱلسِّكِّينِ فَلَا يُؤَثِّرُ حَتَّى قُتِلَ ٱلْإِسْمَاعِيلِيُّ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ. وَوَثَبَ آخَرُ عَلَيْهِ فَقُتِلَ وَثَالِثٌ فَقُتِلَ أَيْضًا وَنَجَا ٱلسُّلْطَانُ إِلَى خَيْمَتِهِ مَذْعُورًا وَأَعْرَضَ جُنْدُهُ وَأَبْعَدَ مَنْ أَنْكَرَ مِنْهُمْ. وَلَمَّا مَلَكَ ٱلسُّلْطَانُ عَزَازَ رَحَلَ عَنْهَا وَنَازَلَ حَلَبَ فِي مُنْتَصَفِ ذِي ٱلْحِجَّةِ وَحَصَرَهَا وَبِهَا ٱلْمَلِكُ ٱلصَّالِحُ وَٱنْقَضَتْ هٰذِهِ ٱلسَّنَةُ وَهُوَ مُحَاصِرٌ لِحَلَبَ. فَسَأَلُوهُ فِي ٱلصُّلْحِ فَلَجَابَهُمْ إِلَيْهِ وَخَرَجُوا إِلَيْهِ بِشَيْءٍ صَغِيرٍ لِنُورِ ٱلدِّينِ فَأَكْرَمَهَا وَأَعْطَاهَا شَيْئًا كَثِيرًا وَقَالَ لَهَا: مَا تَرَوْنَ؟ فَقَالَتْ أُرِيدُ قَلْعَةَ عَزَازَ وَكَانُوا قَدْ عَلِمُوهَا ذٰلِكَ. فَسَلَّمَهَا ٱلسُّلْطَانُ إِلَيْهِمْ وَٱسْتَقَرَّ ٱلصُّلْحُ وَرَحَلَ ٱلسُّلْطَانُ مِنْ حَلَبَ فِي ٱلْعِشْرِينَ مِنَ ٱلْمُحَرَّمِ سَنَةَ ٱثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ

يتلوه القسم الثالث من الجزء الثاني
من كتاب العبر لابن خلدون
وهي كتاب نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب
وبين كتاب الافادة لابي اللطيف
وبين كتاب نخبة المطالب في مراتب الانصار لابن سلوم
وبين كتاب نهاية المطلوقات لابن عبد الكريم

www.marefa.org

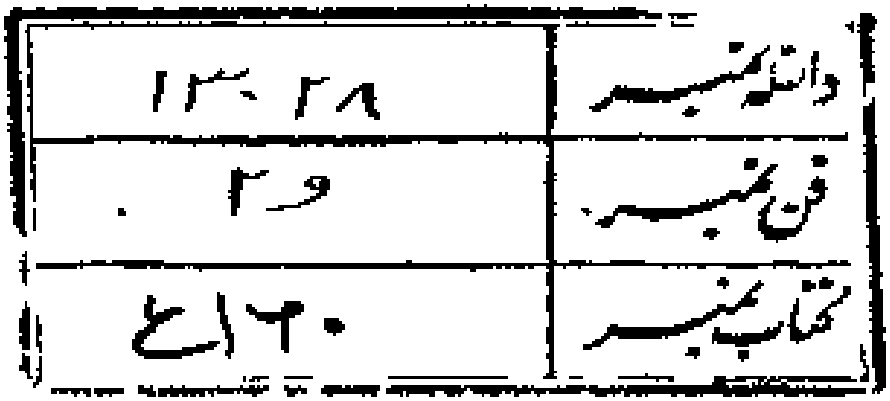

www.marefa.org

www.marefa.org

www.marefa.org

www.marefa.org

www.marefa.org